

أشرف العشماوي

السيمفونية الأخيرة

Telegram: @mbooks90



الدار المصرية اللبنانية

«بعض الحكايا تُروى بنظرة..

بذمعة..

بصوت الخطي..

بكفّ ثلّوح في آخر الدّرب..

من بعيد..

دون وداع أو مُلتقى»

أشرف

مقعد بمنتصف الصف الأول

باريس / ميدان الأوبرا / فبراير / 2015

فُتح الستار، عند لحظة ظهوره بدا طيفًا يخرج من بين ثنايا أسطورة، كان آخر مَنْ دخل المسرح، متأخرًا عن المايسترو بخطوتين، ربما هو الوحيد الذي يُسمح له بكسر تقاليد الدخول العريقة، استقبلوه بعاصفة من التصفيق حتى جلوسه، حيّاهم بإيماءة صغيرة، وانشغل بضبط وضعية مقعده وتهيئة الكمان الراقد بين ذقنه وكتفه، وبينما الأضواء تغمر وجهه كان صمت الترقب يسود الأرجاء.

جلس أعضاء الأوركسترا في أماكنهم واستعدوا للعزف عدا هو، لا يزال ذهنه منشغلًا بترتيب مواضع ذاكرته على الكونشيرتو الأول لتشايكوفسكي، تتناثر النغمات في عقله باحثة عن لحن يجمع شتاتها، يتوتر، وترتعش كفه رعشة خفيفة لا يلاحظها أحد، قلبه يعزف قبل أصابعه، مرتجفًا على وتر لا مرئي، شيء ما يقلقه منذ حفل الاستقبال بالسفارة المصرية، أصابعه الباردة تلامس رقبة الكمان، بينما تعزف ضلوعه إيقاعًا متوترًا يسبق الحدث، قلقه ليس خوفًا من خطأ، ولا من أوركسترا فرنسية يعزف معها لأول مرة، بل من النغمة الأولى، الففتتح؛ الشعور ذاته يراوده من جديد، بعدما عادت كوابيسه لزيارته في منامه وكبرت هواجسه، حتى صوّرت له أن الكونشيرتو الأول الذي سيعزف اليوم هو الأخير، وأن الليلة مهما بدأت بالموسيقى ستنتهي بكشف الحقيقة.

تنفس بعمق ليطمئن نفسه، لا أحد هنا يعرف ماضيه ولا حتى خطيئته، المهم أنه موجود وباريس كلها تتوق لسماع موسيقاه كعادتها، فحضوره سؤال لا يُطرح، وغيابه إجابة لا تُصدق، وكل من أجروا معه حوارًا تعلّموا ألا يلتقوا بعينيهِ مرتين إذا خلع نظارته السوداء، في ملامحه شيء ما يشبه الذنب، وفي صمته

وعد لم يف به، بريق العينين يشي بوعيد مؤجل إلى حين، وكلما حاول أحد أن يصف الشجن الملتصق بوجهه كقناع، فقدت الكلمات معانيها، كأنها تخاف فضح حقيقته.

خارج مسرح قصر جارنييه للفنون الذي تزينه قبة خضراء عتيقة، لفحت نسيمات باردة مئات الوجوه المصطفة في طابور يمتد حتى حافة الطريق ويتجاوزها أحيانًا، المسرح كالعادة يرفع لافتة كُتب عليها «كامل العدد»، والمصاييح تُضيء واجهة القصر بوهج عظيم، ليبدو القلب النابض الوحيد في صدر مدينة النور، يتذمر الواقفون في الطوابير، ويتكاثف البخار من أنفاسهم ليهمس بأسرارهم للسماء، يأمل كل منهم في مقعد استثنائي أو حتى حضور الحفل وقوفًا، بعدما بيعت ألف وستمئة تذكرة في أقل من يومين.

داخل المسرح يسود صمت مهيب، يليق بقداس في الكنائس الكبيرة، لا يقطعه إلا نبض الترقُّب الذي يخفق في القلوب، ووقع الخطوات الرصينة على أرضية من خشب الأرو اللامع.

بدأ العزف، لامست أصابع يسراه الأوتار، نذت من يُمناه أول حركة طويلة قبل انعطافة قصيرة مهيبة في حركتها الثانية، سحب القوس بخفة يُجيدها ببراعة، ليُخرج صوتًا مبحوحًا من الوتر أشبه بالنحيب، انسابت النغمات ناعمة آتية من السماء كما يصفها جمهوره، راحوا يتمايلون مع انحناءات قوسه الحادة على أوتار الكمان، حتى اختتم المفتتح بنهاية تشبه رقصة لم تكتمل. مقدمة موسيقية اشتهر بها ويتوقعها الجمهور دائمًا، مع ذلك ينبهرون كما لو أنهم يسمعونها لأول مرة، تفلت صيحات، تدمع عيون، وتهيم أرواح عاشقين؛ كثيرون ظلوا واقفين بعدما غلبهم الحماس، صفقوا بغزارة لدقيقة على الأقل، لكن في مكان ما بالصف الأول، جلس شخص وحيد لا يُبدي أي ردة فعل، فقط يُطيل النظر للمسرح صامتًا، نظرة حادة بلا رجفة جفن، وثقيلة كنعش يحمل جثمان رجل مُثقل بالذنوب.

عقب عزف المقطوعة الرابعة، توالى التصفيقُ لدقائق طالت أكثر من المعتاد، ثم هدأت القاعة وبدأ العزف من جديد، الأوركسترا الفرنسية تتبعه ككتيبة مطيعة، مئات الهواتف المحمولة تومض أمامه لتسجل لحظات تاريخية ستخلد عبر الزمن، التصفيق يعلو في الوقفات الموسيقية بانتظام عسكري، بينما سامي عرفان يعزف محاولاً تفادي النظر للرجل الصامت، وكلما وقعت عيناه عليه يشعر أن كل نغمة يسحبها من الكمان تنزع طبقة رقيقة من جلده، وكل صوت يخرج من الوتر يحمل أثر صراخ قديم.

انتهى عزف القطعة الموسيقية الخامسة، ووقف منحنيًا في صمت تام لتحية جمهوره، طال انحناءه كمن يعتذر عن ذنب عظيم، ثم رفع رأسه قليلاً، لمح الشخص الصامت ذاته، لا يزال يحرق نحوه بوجه لا يحمل كراهية ولا شفقة، بل شيئاً آخر أشبه بالانتظار.

تلك الليلة هي الأخيرة في جولته الأوروبية الحالية، عادة يختتمها بباريس حيث يعيش، لكنها المرة الأولى التي تمئى لو تُلقى، اقترب خطوتين بحذر من حافة المسرح وانحنى ثانية، الأضواء كفيلة بإخفاء كل شيء إلا النظرات، رفع ظهره ببطء، هذه المرة ثبتت عينيه نحوه، شابٌ في نهاية العشرينيات على الأكثر، يرتدي سترة رمادية باهتة لا تليق باحتفال، ظل جالساً وسط الواقفين، لا يصفق، لا يبتسم، ولا يشيح بنظره عنه.

رمقه سامي بنظرة أخيرة، فُخيل إليه أن شفّته تحملان ابتسامة غير مكتملة تُعد بقاء قريب، ليس هنا وسط الزحام إنما وجهًا لوجه في مكان بعيد. تباطأت خطواته فوق المسرح، شعر بارتباك يُقيده من الهاجس الذي يحاصر عقله. مَرَّ أصابعه بين خصلات شعره الأبيض الطويلة وغاب وراء الستار. في الكواليس أسرع من خطواته في الرواق الطويل، حيث تتنفس الجدران روائح الخشب القديم ونسيج الستائر السمكية، أول ما دخل غرفته وضع آلة الكمان على

الطاولة، كما يضع شرطي مُنْهَكَ سلاحه بعد انتهاء الخدمة، أفرغ قليلاً من زجاجة الويسكي في كوب قصير ووضعه عليه بعض الماء، تجزّعه دفعة واحدة، ثم أغمض عينيه وهو جالس تحت ضوء خافت لمصباح أصفر اعتاد عليه، وفوق مقعد جلدي قديم لا يفارقه في كل حفل، ظل يراقب يده اليمنى، تلك التي حملت الكمان، وهي ذاتها التي وقّعت القرارات. مع الكأس الثالثة شعر أنه أفضل حالاً، وبينما يخلع سترته ببطء، لمح فوق الطاولة ظرفاً يحمل اسمه الفني بحروف كبيرة وبالفرنسية، فتحه بحذر، وجد بداخله ورقة مطوية مكتوبة بخط يد حاد وبخروف دقيقة للغاية تشكّل سؤالاً من كلمتين.. «هل تتذكّرني؟».

أغمض عينيه، قفزت في ذهنه صورة وحيدة محفورة من زمن بعيد، تعجب لأنه لا يزال بنفس الهيئة واللامح، كأن سنيّاً لم تمر، تنهّد بعمق بعدما أدرك أن تلك الليلة لم تكن حفلاً عادياً، إنما موعد مؤجل مع ماضٍ لم يُدفن بعد.

الليلة تبذل الحال، لن يعود العزف هواية، إنما طقش تطهيري، وسيلة يُخرس بها صوتاً من الأصوات التي تركها خلفه؛ صوت خافت لكنه صاحب صدى مُخيف، الليلة أيقن أن الموسيقى لا تُشفي إنما تؤجّل النزيف، وأن كل ما كان يخشاه تحقق، الليلة عرف أن الذاكرة لا تموت، وأحياناً تحجز لنفسها مقعداً في الصف الأول.

نقوش على جدران الطفولة

الإسكندرية / فيلا بحي رشدي / يونيو / 1962

في البدء كان الصمت، لا صمت العزلة، بل نوع آخر أليف، خرج من أحشاء الطاعة وترنّى في أحضان الخوف كظلّ لا يفادر الجدران، صمت بدأ كغرف موروث حتى صار قانونًا غير مكتوب أثبته طوال حياته.

في أغلب الليالي يتعثر النوم في طريقه لجفنيه، يتقلب فوق فراشه كما لو كان جسده مُقيّدًا بحبال غير مرئية تُثبته من أطرافه الأربعة، كل صوت يسمعه من الخارج يضرب جدران غرفته ويرتد لقلبه كتهديد خفي، صوت القطار البعيد يأتيه كصرخة مكتومة من زمن آخر، هدير الريح بين أشجار الحديقة يشبه أنين الجدة حين تغفو على مقعدها، دقائق عقارب الساعة تبدو مثل خطوات رتيبة تقترب من فراشه، كل شيء في البيت يُنذر بأن ثمة من يراقبه، حتى الظلال المتسللة من بين شقوق الستائر، يراها أشباحًا صغيرة تطوف فوق جدران الغرفة وتخنق أنفاسه، لا يُطمئنه إلا مصدر خوفه.. جدته، والتي أقنعتة بأنها ترى، حتى لو كان جفناها مُسدلين.

في تلك الليلة رآها في منامه وقد تحوّلت إلى تمثال من حجر، لكن عينيها ظلتا مفتوحتين، فجأة تقدّم تمثالها نحوه رغم ثقل قدميه، تراجع إلى الخلف بسرعة حتى سقط في حفرة عميقة بلا قاع، استيقظ فزعًا على صوت ارتطام المروحة بأرض الغرفة بعدما انخلع مسمارها، ثم ساد الصمت مجددًا، صمت لا يُكسر حتى بالبكاء.

لا تزال صورتها منطبعة في ذهنه منذ كان في الخامسة من عمره عندما رحل والداه في حادث سير، واقفة تحت بقعة ضوء مصباح صغير خافت في نهاية

الطريقة، يراها من بعيد مثل كائن خرافي مخيف، تظهر في وقت محدد، التاسعة مساء كل ليلة شتاء والعاشرة في الصيف، تذكره بموعد نومه وتراجع نظافته الشخصية بصرامة، شعرها الأحمر مشدود خلف رأسها كعقدة حبل مشنقة، ملامحها منحوتة من صرامة ويقظة متوترة ومؤثرة، تتبدل في لحظة لتغيب صورة الجدة الطيبة، ويحل محلها مزيج من شدة أب وعقل أم.

صوت خطواتها المنتظمة شرارة البدء قبل أن يعلو صوتها، يعرف متى يغلق عينيه كي لا يلمح شرارتها، ومتى يتنفس عندما تبتعد عنه، ومتى يحبس الهواء في رئتيه كي لا يحدث صوتًا يُغضبها.

- رايح فين يا سامي؟

يُجيب بنبرة يائسة كمن يعرف الردّ مقدمًا:

- هركب البسكليتة تحت في الجنينة.

دون أن تنظر له تشير بإصبعها ناحية الشرفة، ترمق السفرجي بنظرة يفهمها، ليسحب الدراجة من مقودها نحو الشرفة الطولية وسط تأفف مكتوم من الطفل سامي.

الشوارع مزدحمة والسيارات لا ترحم، أمك وأبوك ماتا في حادث سير، والأطفال يُدهسون كالنمل كل يوم، ركوب الدراجة مغامرة رعناء لا تليق بأبناء العائلات المحترمين، يسد أذنيه ويخضع لسطوة كلماتها الشبيهة بعناوين الصحف اليومية، لا يتذمر، لا يُطالب بحقوقه، يركب الدراجة صامتًا ويدور بها في ذات المساحة كفأر محبوس لا يجد مخرجًا حتى يهده التعب.

بات يحفظ بلاطات شرفته قطعة قطعة، يرن في أذنيه صوت العجلات كلما مرت فوق البلاطة المكسورة، يعرف لون السماء من خلف الأسياخ التي تُكوّط الشرفة كأعمدة رومانية شاهقة، لكنه أبدًا لم يعرف الطريق، لم يلعب في الشارع،

لا يعرف كيف يبدو الأطفال حين يركضون ويتعرقون حتى يغطي السواد ياقات قمصانهم، حتى الكرة التي تصطدم بأسياخ شرفته من أطفال يلهون بها أمام فيلا جدته لم يختبرها، لا تزال كرتة بيضاء، نظيفة، صغيرة، مُقيّدة مثله، محبوسة معه بين أربعة جدران، تدور في فضاء غرفته كما تدور مروحة مُعلّقة في سقف طوال حياتها.

حين جاء الصيف واشتدت حرارة الشمس كان لا بد من الذهاب إلى البحر، فوجئ أنه أيضًا مشروط، جسد لا يبقى مبتلًا خوفًا من نزلة برد، ولا جلوس بعيدًا عن المظلة تجنبًا لضربة شمس، كثرة اللعب في الرمال تُفسد الجلد وتتجمع حبيباته تحت الأظافر فتغير من لونها، وعندما يحين وقت السباحة ينزل الخدم قبله ويخرجون بعده، صار البحر في عينيه سطحًا مُريبًا لا ثقة فيه ولا أمان له، الخوف لافتة مُعلّقة على كل ما تقع عليه عيناه، ولو غفل عنها سمع حروف الكلمة بصوت جدته مُدوّيًا، لا ثقل الجدة من تكرار نصيحتها عليه كل صباح «الحذر لا يأتي متأخرًا، وعليه أن يسبق الطيش بخطوتين على الأقل».

تؤمن جدته أن الطفل الذكي هو الذي لا يتحرك كثيرًا، يُطيع بغير سؤال، كثرة الحركة خطر، والخروج على التعليمات يعني التيه، وآمن سامي من ورائها بأن الفضول جريمة والسؤال خطيئة، فحرص على ألا يرتكب أيًا منهما قدر ما يستطيع، مرة وحيدة حاول التمرد، فتح الثلاجة واختلس قطعة شوكولاتة صغيرة، ظل يمضغها بحذر كسارق يخفي دليل جريمته حتى سمع وقع خطوات جدته المنتظمة كعسكري الدرك، لم يهنأ بقطعة الشوكولاتة، وتسالت قطرات العرق من جبهته حتى سالت على وجهه وعنقه، ضاقت أنفاسه وشعر أنه مُراقب، فتح النافذة وبصق ما تبقى من القطعة المُذابة كي يتخلص من الذنب والجُرم معًا.

تجاوز سامي السابعة ولم يكن له حيوان أليف ولا صديق من أولاد الجيران، كبر وصار صبيًا يقترب من العاشرة ولم يكن بحوزته ما يُبعث أنه مَرٌّ بطفولة، ولا

أصدقاء دراسة يتذكر أسماءهم، ولا صور فوتوغرافية تحمل ضحكة حقيقية، ألبوم صورهِ يشبه ملفًا رسميًا لطالب متفوق لا يفتعل المشاكل، طفل بشعر مُشذب وجسد خالٍ من الكدمات، لا خدش من غصن شجرة ولا ندبة من شجار مع أقرانه، ولا كدمة تحت عينه؛ جسده كتاب أبيض بلا كلمات ولا سطور، كتاب يصلح للزينة فوق رف عالٍ بمكتبة كلاسيكية.

ينام كل ليلة على حكايات الجدة، التي تحكي له قصصًا عن الأطفال الذين ضلوا الطريق عندما خالفوا نصائح أهلهم، عن الذين ركبوا القطار الخطأ في الحياة وتحدثوا مع الغرباء، تقول في نهاية كل حكاية جملة أثيرة: «إن السلامة ليست جُبْنًا.. وإن الموت يحب الجريء ويسعى إليه».

تربى سامي لا يعرف متى يسقط ولا كيف يقوم إن وقع، لا يثق في الخطوة التالية التي يخطوها، وعندما كبر ودخل كلية الشرطة لم يكن اختيارًا، بل استكمالًا لنظام مخطط سلفًا من الجدة تنفيذًا لوصية أبيه التي لم يسمعها منه بأذنيه، نُقلت كغيرها من الوصايا عبر الجدة، هي التي تمنح وتمنع، تقرر وتسرد وحدها وقائع التاريخ الذي يُحفر في الذاكرة، هي القائد الذي يُصدر الأمر، وسامي هو الجندي الذي لا يبتسم وينفذ، دومًا مشغول في معركته مع الحياة، بالرغم من أنه يسير على قضبان لا يحيد عنها أبدًا.

عدوان سلبي

الإسكندرية/ محطة الرمل/ يوليو/ 1966

شقت السيارة الكاديلاك الحمراء طريقها على كورنيش الإسكندرية باتجاه محطة الرمل، طوال الطريق تحكي جدة سامي بفخر عن تاريخ السيارة التي اشتريتها من مزاد مقتنيات الملك منذ عامين، عربة لم تُستخدم تقريبًا، اشتراها فاروق قبل ثورة يوليو بأسابيع من مدينة ديترويت الأمريكية، منذ وصولها القاهرة خرجت مرة يتيمة من قصر عابدين إلى الإسكندرية، هناك استقرت بجراج قصر رأس التين، ولم تخرج بعدها للنور إلا يوم المزاد، وعندما رأتها وقعت في غرامها، زادت عليها حتى اقتنصتها بمبلغ ألف وخمسمئة جنيه، فوصفها أصدقاءؤها بالجنون.

يجلس سامي دومًا بالأريكة الخلفية، في منتصفها تمامًا، تحسبًا لأي توقف مفاجئ، أو حادث طارئ كما تحذره الجدة دومًا، طوال الطريق إلى محطة الرمل يتخيل أن قضبان الترام أوتار كمان ضخمة، والعجلات تُصدر نغمات تعزف في رأسه، يسمعها بوضوح في أذنيه، فيغمض عينيه ويفتح ذراعيه كأنه يقود الأوركسترا.

قرب الميدان يغادر السيارة مع جدته، يرافقه اثنان من الخدم على يمينه ويساره، يسير الموكب الصامت وراء الجدة، تتأخر جليستها عنها بخطوتين، صدرها منتفخ بالكبرياء، تتحدث عن أصولها الشركسية كأنها تلحن كل من لا ينتمي لها، وتتحسر على مصر التي كانت مصبوغة بالملكية قبل أن تأمر جليستها بفض كيس كسرات الخبز لإطعام أفراخ الحمام.

وسط نصف دائرة صغيرة من الخدم للحماية يقف سامي وحده، يراقب بعينين

ثابتتين سرب حمام يطير فوق رأسه ثم يهبط على مقربة من قدميه، تتهافت الحمامات على كسرات الخبز، تقترب واحدة آمنة، ينتظرها بغريزة صياد، يحنى ظهره ويمد إصبعيه كملقاط، يقبض على رقبتها ثم يخنقها ببطء، تشهق مرتين وترتج، تهمس له خادمة حتى لا تنتبه الجدة:

- الحمامة بتفرفر حرام عليك.

يرخي إصبعيه كأن شيئاً لم يكن، تطير الحمامة مذعورة في خطوط متعرجة حتى تسقط على مبعده وهي تترنح، تلتفت له جدته سائلة بعينيها إن كان فرغ من إطعام الطيور؟ يجيبها بإيماءة من رأسه، فتمنحه جنيهاً مكافأة ثم يعود للسيارة هادئاً.

في المساء تغفو الجدة على الكنب، بهدوء ينهض سامي، يتذكر حرمانه من اللعب بالحديقة، يتجه نحو نظارتها الطبية، يلتقطها بإصبعين ثم يرميها من الشباك دون أن ينظر لأسفل، يكفي بصوت الارتطام لكي يهدأ، يعود إلى سريره ليغط في نوم عميق كمن نام على ضميره، في الصباح يملأ الصراخ البيت بعدما اتهمت جدته خادماتها بإضاعة نظارتها، تبكي الخادمة نافية التهمة، بينما تقسم الجدة أن الباشا الكبير لو كان حيّاً لأمر بجلدها مئة جلدة على الأقل؛ على الأريكة يتمدد سامي في كسل كأن الأمر لا يعنيه، وبعد ما يطمئن لعقاب الخادمة التي تزعجه وضياع النظارة من جدته القاسية، يدخل غرفته ليعزف على الكمان كمن يتطهر من الذنب.

مؤخراً أصاب رأس الجدة صداع نصفي، حُرم فيه سامي من العزف على الكمان كي لا يحدث ضوضاء تضايقها حتى ضاق بحاله، في اليوم السابع اختمرت برأسه فكرة جديدة كعادته مع كل أزمة يتعرض لها، أحضر خيطاً شفافاً وصمغاً بلا رائحة، وبخفة يد نشال راح يلصق طرفه في قاعدة الفازة الكريستال التي تزين بهو الفيلا، جلس ينتظر كصياد صبور على فريسته نهاراً كاملاً حتى

تمر الجدة بالقرب منها، وما إن حانت اللحظة وحجبت جدته رؤية الفائزة عن عينيه بجسدها حتى جذب طرف الخيط بهدوء بينما ظلت ملامح وجهه متجمدة، سقطت الفائزة وتحطمت لقطع صغيرة استحال معها ترميمها، فزعت الجدة وبكت ثم تهاوت على الأرض بعدما خانتها ساقاها.

جلست بجوار الشظايا، تهذي كمجذوبة، ترثي قطعها الفنية التي ورثتها عن جدها ياور الخديو، على مقربة منها يغمض سامي عينيه، وفي عتمة جفنيه يظهر أمامه سرب حمام يطير محلقًا عدا واحدة تتأخر، تتباطأ، ثم تهبط بالقرب من قدميه، ينتظرها بلهفة، يقبض كفه على الفراغ وهو يركز على أسنانه، ليختنق الهواء بين أصابعه.

تجاوز سامي العاشرة ولا يزال وحيدًا، اهتدى إلى لعبة جديدة يُفرغ فائض طاقته فيها، كان يُغلق باب غرفته عليه ويضرب كرة التنس البيضاء في الحائط، ثم يرتمي على فراشه ليصدها كحارس مرمى، متقمصًا دور المعلق والجماهير على التوالي، يصف براعته في صد الكرة ثم يهال مع كل رمية ينجح في الإمساك بها، لعبة يمارسها وحده كل يوم حتى يَقل ويتعب، ثم يعزف على الكمان لأكثر من ساعة حتى تنهزه جدته بسبب تجاوزه المدة المحددة للموسيقى، يخرج من غرفته غاضبًا، ويجلس إلى جوارها ليلعب بعساكر بلاستيكية خضراء، يختار أصفر قطعة ويجعلها تقتل الآخرين وهو يصدر أصواتًا تشبه إطلاق الرصاص.

استمر سامي يلهو حتى بدأ التلفزيون يذيع خطاب الرئيس عبد الناصر بمناسبة عيد الثورة الرابع عشر، تابعت جدته ما يدور على الشاشة بغير اهتمام، بينما يجلس هو متراخيًا بجوارها ويتنأب بعدما قتل عساكره كلها، فجأة نُحى عبد الناصر الأوراق جانبًا، وارتجل بضع عبارات حماسية عن مصادرة أراضي الإقطاعيين ثم ضحك متهكمًا، قاطعته الجماهير بتصفيق جنوني فاعتدلت

الجدة في جلستها، أعاد عبد الناصر الجملة كأنه يتعمد التكرار ليُسْمِعَهَا ما قاله، نهضت السيدة العجوز بهدوء متوجهة لحجرة نومها، ثم عادت تمد الخُطى حاملة مسدسًا صغيرًا، وفجأة أطلقت ثلاث رصاصات صوب الشاشة.

سَمِع دوي رهيب تردد صдаهِ بأرجاء البيت، وظل الرئيس يبتسم بينما الجماهير لا تتوقف عن التصفيق، نظرت الجدة ناحية سامي ببرود، ثم أشعلت سيجارة رغم تحذيرات طبيبها بالتوقف عن التدخين، أعادت ظهرها للوراء مغمضة عينيها كمن انتهى من عبء ثَقِيل على قلبه، بالكاد لملم سامي شتات نفسه بعد أن تسربت قطرات رَغَمًا عنه في سرواله، تفحص مسدسها وبدأ أنه لا يفهم ما حدث، منحته جدته ابتسامة واسعة وهي لا تزال مغمضة عينيها، لم يكن يعرف أن المسدس مُحدث صوت، يُريح أعصابها كلما أطلقت منه رصاصة صوب الضباط الأحرار كما فضفضت له بعدما كبر، لكن يومها وجهت الرصاصات كلها نحو كبيرهم لأول مرة.

مع مرور الوقت اعتاد سامي على تصرُّفها ولم يعد يدهشه أو يخاف منه، وطوال سنوات الستينيات المتبقية من عصر ناصر قُضت جدته على أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين ظهروا على شاشة التليفزيون أمامها تباغًا، إلى أن تولي السادات مقاليد الحكم فتوقفت عن إطلاق الرصاص. اعترفت لحفيدها بعدما تخرج في كلية الشرطة أن قرار المصادرة لأرضها صدر عقابًا لها على عبارة تفوهت بها مع صديقاتها بنادي سبورتنج بالإسكندرية، عندما وصفت الضباط الأحرار بأنهم أشبه بعساكر الشطرنج الذين تمردوا على الملك عندما وصلوا لنهاية الرقعة دون مقاومة، ثم ضحكت بمرارة مؤكدة أن اللعبة ستفسد حتمًا بعد وصولهم في وقت واحد لخط النهاية، وترقيتهم جميعًا إلى قطع أهم وأكبر من قدراتهم وتحتاج إلى ذكاء في الحركة، مَطَّت شفيتها ثم رددت بأسى أنهم جميعًا صاروا وزراء وأفيالًا وأحصنة، مَلَّؤوا الرقعة حتى اختفت عساكر الشطرنج منها، ولم يَعد هناك مكان شاغر لأي قطعة أخرى غيرهم.

هز سامي رأسه وكفيه في وقت واحد، لم يفهم ما تعنيه بسهولة، لكنه لم يكلف نفسه عناء السؤال.

بعد واقعة إطلاق الرصاص على جمال عبد الناصر لمصادرة أملاكها غضبت الجدة على مدينة الإسكندرية، انتقلت إلى القاهرة، واشترت شقة فسيحة بجاردن سيتي تحتل طابقًا كاملاً بالعمارة، تجلس كل يوم بشرفتها وقت العصري، تتأمل كورنيش النيل الجديد الذي يعج بالمارة والسيارات، صخب وزحام يبعثان على الضيق ويجلبان الضجر، لكنها فيما يبدو ترى بخيالها شيئاً آخر، فقد كانت تبتسم غالبية الوقت، المرة الوحيدة التي رأى فيها سامي ملامحها غائمة قبل أن تفلت دمعة من بين جفניה عندما نفذوا قرار مصادرة أرضها الزراعية التي ورثتها عن جدها الباشا، أكثر من ألفي فدان بمحافظة أسيوط مزروعة بأشهر أنواع المانجو، وكانوا قد تغافلوا عنها لبضع سنين بعد الثورة بسبب حماية مؤقتة من أنور السادات لقريه من العائلة، وعندما ابتعد السادات عن الثوار مؤقتاً في منتصف الطريق، صادروا أرضها على الفور.

يومها أخبرها خادمها ببدء تنفيذ قرار مصادرة الأرض الذي تلقاه عبر الهاتف من موظف إدارة الحراسات، ناولها الخادم السماعة لتعرف تفاصيل القصة الحزينة، ففاجأت الجميع بإغلاقها الخط في وجه الموظف دون أن تتفوه بكلمة، ثم طلبت من الخادم نزع فيشة التليفون، فيما يبدو اكتفت بمئتي فدان تركوها لها، أما مسدس الصوت فقد أهدته لسامي يوم تخرجه، وحرصت دومًا على أن تتأكد من حمله له طوال الوقت، مؤكدة أن صدى صوته أقوى من تأثير الرصاص الحقيقي، فصَدَّقَها.

عسكر وحرامية

القاهرة/ ميدان التحرير/ يناير/ 1977

القاهرة مدينة مُنتفضة لا تعرف الصمت كل الوقت، استيقظت غاضبة في صباح غائم من يناير بعد شبات طويل، غَلَّت أصواتها حتى صار يختلط فيها صفير عجلات المترو بنفير السيارات وسرينة عربات الإسعاف، تتكاثف هتافات الغضب من فوقها كسحب دخان ظلت تكبر، الخبز صار أغلى من الصبر، والطفل الذي سرق رغيفًا من مخبز في قرية نائية بالمحلة الكبرى أصبح رمزًا لوطن بأكمله.

مَرَّ السابح عشر من يناير وانقضت ساعات طوال من اليوم الثامن عشر، ميدان التحرير يتنهَّد كهجوز يستعد لنوبة سعال متواصل، والحشود الغاضبة تتلوى كأفعى ضخمة جائعة وسط الزحام، بينما جنود الأمن المركزي يترنحون كأحجار الدومينو في نهاية الدور بعد الخسارة، وسماء يناير تُمطر غضبًا على الرؤوس لتغسل مصر من وهم الطاعة العمياء وهواجس الخوف.

اقترب الملازم أول سامي عرفان من نقطة التمرکز الرئيسية قرب فندق هيلتون، وجد العساكر يتكؤمون خلف الدروع كالأرانب المحاصرة، وقف وسطهم بزيه الرسمي وكفاه ترتشعان داخل جيبه من الخوف؛ خوفٌ لا يُكتب في تقارير ولا يُذكر في عناوين جرائد، خوفٌ من نوع خاص، يُقاس برجفة جفن وعرق بدن، وعين لا ترى إلا مستقبلًا مبهمًا طوال الوقت، ولولا القفاز الجلدي، لرأوا المسدس الصغير يرتج بين أصابعه وهو يخفيه بجيبه، مسدس الصوت هدية الجدة يوم تخرجه، الملفوف بشالها البني، المطرّز بنصيحة قديمة كانت تقولها بصوتها المرتفع «كن مثل مولانا جلالة الملك فاروق ولا ترفع سلاحًا على ابن بلدك»، لكنه

الآن يتخبط في بحر من الجموع الساخطة التي فُتت نقطة التمرکز وشرذمت عساكرها، مثلما كان يفعل بجنود لعبته البلاستيكية الصغيرة.

رفرفت الالفتات فوق رأسه كألجنة لهب، واشتعلت عيون المتظاهرين بالقهر، تلك أول مأمورية شُرطية في حياته المهنية القصيرة عقب تخرجه قبل بضعة أشهر، بدا الأمر أشبه بقفزة في الظلام، من العزف على الكمان وكتابة نوتة موسيقية إلى الوقوف في قلب الميدان بين جنود وضباط ومنتظاهرين غاضبين، وما بين العصا والسوط، وعبوات الغاز وخزائن الرصاص، ترن في أذنيه موسيقاه التي كان يعزفها كل صباح مع أوركسترا الشرطة، وفي صدره شيء لا يستقر بين ضلوعه، يشبه طائرًا مذعورًا، كلما ارتفعت الهتافات فوقه ارتجف.

- اضرب .

أتى صوت اللواء عبر جهاز اللاسلكي بنبرة حديدية آمرة لجميع الضباط، بينما سامي لا يملك إلا المسدس الملفوف بالنصائح والدعوات، راح يرفعه ببطء، يُغمض عينيه ثم يضغط الزناد، لتخرج فرقة جوفاء تشبه مواء قطّة ميتة في أنبوب صدئ، فلا ينتبه أحد. عندما فتح عينيه وجد الجموع تحاصره، عجز عن التراجع ووقف يلهث، بينما الحشد يقترب.

أولهم امرأة بوجه مشقوق وجلد ملتصق بالعظم كخبز ناشف، والثاني شاب له عينان واسعتان كنافذتين على جهنم، أمسك بكتف سامي وراح يهزه بعنف كأنه يُفقيه من غفلته، غابت ملامح البقية عنه، وبدأ يتراجع ببطء من زحزحة الجموع له، يتعثّر، يكاد يسقط، ثم مض برأسه ذاكرة قديمة عن الخوف، عن بيت الإسكندرية، عن الدراجة التي يركبها في الشرفة بعيدًا عن الخطر، يسمع شذرات من تحذيرات الجدة وحكايات قبل النوم المخيفة لكنها لا تخترق أذنيه، يسحب نفسه بصعوبة من الميدان كمن ينتشل جثة عكس مجرى الماء، يتسلّل إلى شارع جانبي وهو يستند إلى جدار بيت قديم، قلبه يدق كطبول إفريقية، يتحسّس

المسدس الصغير كتميمة بلا جدوى، فجأة حاصرته جوقة من صبية، لا يتجاوز أكبرهم الخامسة عشرة، ملامحهم غاضبة وصوتهم مُدوّ، يحمل كل منهم حجزاً في حجم رغيف خبز مُدعم، صرخ فيه أحدهم:

- معانا ولّا علينا يا حيلة أمك؟

أجابه سامي بصوت مختنق رافعاً كفه لأعلى مثل راية بيضاء في معركة غير متكافئة:

- متخافوش أنا من موسيقى الشرطة.. لكن عيب تتكلم معايا كدا يا ابني أنت وهو.

لم يفهم الصبي كلامه فرماه بحجر، أصابه في كتفه، اهتز سامي كزهرة ذابلة تحت المطر، حاصره الجمع كما تحاصر الضباع أسداً جريحاً، دون تفكير أطلق أربع رصاصات من مسدس الصوت، فابتعدوا عنه فزعين متخلّين عن حجارتهم، هرول عائداً إلى الميدان مضطراً حتى لا تظهر له جوقة مماثلة، عندما دخل الميدان مرة ثانية كانت الجموع تتكاثر كالنمل، من بعيد لمحّه قائده، صرخ فيه عبر مكبر الصوت:

- اضرب طلقة فوق دماغهم خليفهم يعرفوا إننا لسه قادرين.

لم يكن يملك إلا رصاصة صوت أخيرة، متردداً جذب مسدسه من نطاقه وأطلقها في الفراغ، لتردّ عليه القاهرة الغاضبة بصرخة تشبه صرخة امرأة في المخاض.

- القوات تتراجع فوراً.

فور النداء تقهقر مع زملائه وعساكره خوفاً من فيضان الحشود الغاضبة، اختبؤوا في المدرعات الكبيرة التي ما إن ابتلعتهم حتى زمجرت مغادرة، عاد إلى المعسكر قرب منتصف الليل، تسال إلى عنبره كفأر خائف من حصار عشرات

القطط لجحره، وضع المسدس الفارغ على الطاولة ونزع قفازه ببطء، جلس أمام المرأة فرأى نفسه كطفل تائه في زئ لا يشبهه.

خلع ملابسه الميري المفتزة الفمزقة، ترك الماء ينهمر فوق رأسه لدقائق طويلة، بعدها دخل لينام على سرير بارد، ظل يحلم بشوارع تمشي فيها أرواح هائمة، لا تطالب إلا برغيف خبز وكلمة عدل، ثم رأى نفسه يعزف لحنًا بالكمان فوق كوبري قصر النيل لكنه لا يُطرب أحدًا؛ لحنٌ يشبه البكاء؛ لحنٌ لا يرفع الأعلام بل يطويها لتصير أكفأًا، وكلما مَزَّر القوس على الوتر لا يصدر إلا صوت طلقة مترددة، خائبة، طلقة لا تؤذي أحدًا ولا تنقذ آخر، طلقة مُعلقة بين الرجاء وخيبة الأمل.. مثله تمامًا.

- انتفاضة حرامية.

يسمعه بصوت الرئيس السادات في منامه، ثم يُطلق النفير مدويًا في معسكر الجبل الأخضر، يأمره قائد معسكره بالتصدي للمتظاهرين باعتباره عسكريًا والرئيس وصفهم بالحرامية، وكلمة الرئيس قانون، زاد القائد على كلام الرئيس ووصفهم بالشياطين، لكن جدته أخبرته وهو صغير أن الشياطين يسكنون المدينة ويلبسون ألف قناع، يمشون وسط الزحام فلا يتعرّف عليهم أحد، كبرت حيرته فصرخ خائفًا حتى هزته يدٌ برفق، استيقظ وهو يتعزّق من كل جسده رغم برودة الطقس.

- أنت كويس؟

هز رأسه بالإيجاب لزميله، ثم تجرّع الكثير من الماء، تمذّد على سريريه يرتجف، بداخله شيء يشبه ندما لم يُولد بعد، ناوله الضابط الذي أيقظه قرصًا ليساعده على الاسترخاء في ساعات الليل المتبقية، لكن الكوابيس تُحلق كطيور جارحة فوق فراشه، لم يتوقع أن يرى وجوهاً خارجة من رحم الطين لتوها، وجوهاً لا تعرف الكذب ولا تجيد الكلام، هتفت لأن الجوع لا يحتاج تعليلًا ولا فتوى،

خرجوا من المصانع مثل موجة غاضبة لا تستأذن، تسللوا من نسيج مصر وأحلامها المبتورة، كانوا عمالاً من شركة الغزل، تبعهم آخرون من مصنع الحديد والصلب، وانضمت لهم جموع من كل مدينة كانت صامته حتى ضاقت فصرخت، الهتاف كان عن الرغبة، لكنه لم يكن عن الجوع وحده، كان ضد المهانة، ضد من باعوا الوعد بينما الشارع يشتعل، ضد الحاكم الذي قال إن النصر في أكتوبر سيُطعمهم ثم سلمهم إلى البنك الدولي.

القرارات نزلت على الناس كالسياط، رُفِعَ الدعم عن السكر والزيت والأرز والخبز والشاي والبنزين واللحم؛ اللحم الذي كان له وحده ثمن مضاعف، ذُكِرَ في بيان خرج من فم رئيس الوزارة إلى بطن الناس مباشرة فأوجعهم، ثارت النفوس وصاحت الحناجر وهرولت الأقدام إلى الشارع بغير ترتيب.

كان يظن أن الدولة ستخاف على الناس، لكنه رأى البوليس يضرب والناس تحرق، لم يفهم أن النيران اشتعلت مبكراً من دعاء الأمهات ومن شتائم العجائز، ومن غضب الموظفين الذين خرجوا لأول مرة دون إذن أو ترتيب، شاهد النار تأكل المركبات وتلتهم العربات وواجهات المحلات، لمح البلطجية يندسون وسط الحشود، ربما لم يشعلوا النار لكنهم لحقوا بها فقط، أغمض عينيه مقتنفاً هذه المرة بأن الوجوه التي رآها لم تكن «حرامية» كما قال الرئيس، ولم يكن هو «عسكر» كما يظن قائده، لكنه مجرد شخص تأخر كثيراً في الفهم فتجمد مكانه كصورة تذكارية لم تلتقط بعد.

جسد يغني والآخر لا يُجيد الإنصات

القاهرة/ فندق هيلتون / ديسمبر/ 1980

الطبول تدق والموسيقى تعلو بوتيرة صاخبة، غالبية العيون متعلقة ببوابة القاعة، والكل مترقب للفقرة القادمة، ربما أنا الوحيد المسترخي بمقعدي غير منشغل بشيء، مثل ضيف حضر بغير دعوة لحفل زفاف لا يعرف أصحابه، فحرص على توزيع ابتساماته بالتساوي فوق الطاولات.

الورود تحيط بالكوشة من ثلاث جهات، على يميني تجلس عروس اختارتها جدتي كي أتزوج وأنجب، فلا توجد عندي أسباب أخرى، مشاعري نحوها محايدة منذ لقائي الأول بها، لا أحببتها ولا كرهتها، ولم تراودني رغبة للزواج منها، كنت مغرمًا بغيرها ولا أزال، ولما استعجلني أهلها بعد ما طالت فترة خطبتنا، وافقت جدتي ورتبت وحددت.. فامتثلت.

انتبهت إلى تباطؤ إيقاع الموسيقى بغير مقدمات إلى أن صارت خافتة، انشغلت بمراقبة عازف الكمان الذي ظل يعزف حتى صاح رجل رقيق من أقصى القاعة:

- فاتنة الرقص الشرقي.. شهير زكي.

مَظ الرجل حروف اسمها الأول، اختص حرف السين كأن واؤًا تليه قبل أن تشبكه الهاء، هرولت الراقصة من باب القاعة ببدلة صفراء فاقعة حتى وصلت قرب الكوشة، استدارت بحركة لولبية وانحنى للمدعوين فالتهبت كفوفهم بالتصفيق بعدما شَرَّت أعينهم، غُصت في مقعدي الوثير شاردًا مع لحن ألف ليلة وليلة الذي تعزفه الفرقة، خاصة عازف الكمان الذي بدا مندمجًا في ملكوت وحده منسلخًا عن بقية الموسيقيين.

بعد دقائق معدودات شعرت بحركة غير عادية، لمحت رجالاً كثيرين ببدايات داكنة، خفتت الموسيقى إلا من دقات متباعدة على استحياء، ثم اندفع رجل أنيق طويل من الباب الرئيسي للقاعة ناظرًا إلى يساره في حذر، بجواره رجل مهيب يرتدي الزي العسكري متأخرًا عنه بخطوة، ومن ورائهما كثيرون، فجأة لمع وسطهم كالنجم الساطع آخر من كنا نتوقع حضوره، رئيس الجمهورية.. أنور السادات.

لم أتخيل أنه شديد الشمرة هكذا، وجهه مرتاح الملامح، ورشاقة خطوته لا تخطئها عين وأناقته لافتة، على مقربة منه رجال على وجوههم جهامة لا تناسب أجواء الفرح، شقوا له طريقًا من بين صفوف المدعوين الذين اقتربوا ليصافحوه، في حين وقف بعضهم في أماكنهم ليروه بوضوح، صفق الجميع بحماس كأنها فقرة فنية إضافية، أشار أحدهم للراقصة قبل دخول الرئيس بثوان، فتسمرت في مكانها لاهثة حتى مرّ السادات من أمامها، فأطلقت زغرودة طويلة أجبرته على الابتسام.

دبّت الروح في جسدي من بعد موت، ونهضت عروسي بصعوبة بسبب ذيل الفستان الطويل، فضحت خُمرة وجنتيها خجلًا، وسارعت ابتسامتها الواسعة بالتعبير عن فرحة كبيرة لحضور الرئيس كي تداري كسوفها، ابتسم السادات حتى بان صفا أسنانه الناصعة، صافحها ثم قبّل رأسها بحنان أبوي نال استحسان عواجيز الفرح، شكرته عروسي لتلبية الدعوة، فهُزّ رأسه ممتنًا، بعدها شدّ علي يدي بقوة وهو يتفوّس في وجهي بنظرة باهتة، اقترب من أذني هامسًا ببضع كلمات لم تسمعها حتى عروسي، ذهشت من طلبه لكنني اكتفيت بهز رأسي بالإيجاب.

أمسك الرئيس بكفينا معًا مستجيبًا لعشرات الصور التي التقطت لنا، ثم ثبت طرفي شاربه بإصبعيه وهبط درجة من سلم الكوشة ملتفتًا ناحيتنا نصف التفاتة

قائلاً بنبرة صوته المميزة:

- مبروك يا ولاد.

بعدها استدار رافعاً كفه محيياً المدعوين الذين لم يتوقفوا عن التصفيق،
بدا المشهد أشبه بختام مسرحية هو نجمها الأول وآخر من يظهر على خشبة
المسرح، هز رأسه مستحسنًا وغادر والموكب كله وراءه تاركًا لنا صخبه.

عادت شهير زكي لوصلتها الراقصة، بدت فقرتها خافتة من بعد سطوع،
وانشغل المدعوون عنها بالحديث عن صلتى بالرئيس، حاولوا تخمين العبارات
التي همس بها لي، وبسببها نُثرت إشاعات كثيرة على الطاولات عن أنني الوزير
القادم في التغيير المرتقب، بعضهم اقترح وزارة الثقافة باعتباري عازفًا بارعًا
على الكمان، مع أنها آلة غير شعبية ولا جمهور لها، ولا أظن أن الرئيس نفسه سمع
بها، إذعى آخرون أنه سيتم تعييني سفيرًا في الخارجية متخطيًا كل الدرجات
الوظيفية، باعتباره حلقًا قديمًا لدي ووُجد في مهده مبكرًا ككل أحلامي، وقالت
قلة، بخبرة السنين، إنها مجرد مجاملة اجتماعية للعروسين، فحمائي عمل
بالمقاولات وقت فصل السادات من الخدمة العسكرية قبل الثورة وساعده آنذاك
على إيجاد فرصة عمل له، وفي الوقت ذاته كان أبي ضابطًا كبيرًا بوزارة الداخلية
عندما أعتقل الرئيس السادات بتهمة قتل وزير المالية، قبل أن يصبح وحده
بعدها بسنوات من الأحرار.

أمضيت ساعات الفرح القليلة مستمتًا بتخمين ما يقال وينقل لي عبر جدتي
كل حين، بدت كوكالة أنباء كلاسيكية تنقل الخبر ولا تُعلق عليه، مالت على
أذني في إحدى رحلاتها المكوكية من كرسيها إلى الكوشة مستندة على عصاها،
سألتنى بخبث شفاف في عينيها:

- هو الرئيس قال لك إيه؟

ابتسمت بمكر حتى أثير فضولها، لم أخبرها أنني لم أفهم طلبه، وأن كل ما

همس به بضع كلمات مبهمه بغير معنى واضح، ربما لم أسمعها جيداً وتحزجت أن أطلب منه إعادتها، مع ذلك استنتجت جدتي أنها مجاملة لعائلتنا دون غيرها.

علا صوتها قائلة بفخر:

- ما هو الرئيس عارف إنك ابن باشا وحفيد باشا وعلشان كذا جه يقدم التهاني والتبريكات.

منحّتها ابتسامة واسعة كي تسكت، مضى الفرح رتيبًا بالنسبة لي وحدي، وعندما افتتح بوفيه العشاء انشغلت عن المدعوين بذكرياتي، شدّ خيوطها من ذاكرتي طفلَ مرق كالسهم بين طاولات الصالة مُرتديًا زي البحارة الأزرق، نفس الذي كنت أرتديه في صفري مُمسكًا بآلة الكمان التي كان جدي لأمي يعزف عليها أحيانًا عندما يكون مزاجه رائعًا، لم يكن تعلقي بالموسيقى بدأ بعد مع مدرسي بالمدرسة، والأمر مجرد محاكاة لصورة مطبوعة بالألوان على غلاف علبة حلوى لبحار صغير يعزف على كمان، وفي كل مرة أحاول العزف ينهرني أبي، وفي مرة كسر لي الكمان، وبينما اكتفت جدتي بملامح استياء على وجهها، ظلت أُمي على الحياد، في حين اشترى لي جدي لأُمي سُرًا كمانًا جديدًا، لكنه رحل قبل أن يسمعني أعزف عليه.

- ألف مبروك.

أخرجتني المباركة من ذكريات الطفولة، انتبهت إلى أن قاعة الفرح صارت شبه خاوية، وأنني كنت أصافح المدعوين وأتلقى التهاني بطريقة آلية، ابتسمت لعروسي ابتسامة ذات معنى، مع ذلك ظلت محتفظة بخجل غريب بدا لي بروداً مستتراً، نفضت الفكرة بسرعة من رأسي، الليلة ليلتي، وأنا أهم من الجميع الذين حضروا فرحي بمن فيهم الرئيس السادات نفسه، لكن عندما صعدنا لجناحنا بالفندق واقتربت من عروسي، قرأت على صفحة عينيها كلمات الفراق التي قلتها بيني وبين نفسي كعادتي ولم تسمعها هي وقتها بوضوح، ومنذ تلك الليلة صرنا

جسدين، أحدهما يغني والآخر لا يُجيد الإنصات.

موعد مع الرئيس

القليوبية/ القناطر/ يناير/ 1981

عدنا من شهر العسل الذي أمضيناه بأسوان محتقنين مشحونين مستعدين للنزال مبكرًا، ربما اكتشفنا من الليلة الأولى أننا نقيضان، لكن لم يَشْك أحدنا من الآخر، العلاقة بيننا ليست حربًا ولا سلامًا، هي شيء ما بلا معنى، كما لو أن كلينا يُقيم مؤقتًا في بيت انتظارًا لهدم مؤجل.

أمضينا أسبوعًا وبضعة أيام مجرد جسدين فائرين، يفرغان شحنتهما كل يوم بصورة شبه آلية، ثم يحملقان في بعضهما لساعات بعد نقاشات سخيفة عن ضرورة الالتحاق بشركة والدها كمدير للأمن، بدلًا من عملي ضابطًا بسلاح الخيالة أو موسيقى الشرطة التي نُقلت إليها مؤخرًا. سنوات عمري تتسرب مني وأنا في غفلة من أمري كما وصفتني زوجتي، وعلى الرغم من ذلك كنا في الليل نشرب معًا وننتشي فننسى اختلافنا، نذوب في عناق قصير حتى تنطفئ جذوة الشهوة رغم برودتها الغالبة، لينتبه العقل ويعود لسخافاته.

«طمني عليك»

سألني جدتي عند دخولي الشقة بعينين تنطقان بقلق أب ورقة قلب أم، ابتسمت لها ابتسامة تعرفها وتطمئن بها على أحوالي منذ صغري، احتضنتني بقوة تاركة دموعها تنساب في صمت، ثم دقت جرسها الفضي الصغير إيذانًا بتجهيز الطعام.

رغم طبيبتها التي تظهر في فترات نادرة على ملامحها وتفلت معها دموعها، إلا أن الديكتاتور الصغير الذي يسكن روحها سرعان ما يظهر معلًا بوضوح أنه لا يفارقها حتى في نومها، كل شيء بنظام وميعاد، وفقًا لرغباتها حتى لو استشارت

آخرين، تركيبة عجيبة كما تصف نفسها، ابنة ضابط عظيم، وأم لضابط أعظم،
وعندما تأتي سيرتي تتأزم ملامحها وتقول بنبرة يائسة:

- وجدة ظابط بوليس مع إيقاف التنفيذ عشان عاوز يبقى مزيكاتي.. يا
حسرتي!

- أنا فنان يا نينة، عازف كمان، وبعدين أنا بشتغل في البوليس، يعني تنامي
بالليل مطمئة وتسببي الباب مفتوح كمان.

قلتها وضحكت، لكنها رمقتني بنظرة غاضبة بسبب حبي للموسيقى ورغبتني
في الاستقالة من الداخلية والتفرغ للعزف على الكمان. قبل أن ندخل جناحنا أنا
وزوجتي لتغيير ملابسنا دق جرس الباب بطريقة مقلقة، هرع سفرجي لفتحه،
وعاد ليخبرنا أن رجلًا يحمل خطابًا حكوميًا ويريد توقيعي عليه لاستلامه،
صاحت جدتي بنبرة متهكمة:

- أكيد أورد نمرة في فرح زي الآلاتية بتوع فرقة حسب الله.

كتمت زوجتي ضحكة لا تخلو من شماتة، وعندما التقت عينانا أفلتت منها،
ذهبت لتسلم الخطاب، فوجدت رجلًا وقورًا عزفني بنفسه أنه من مراسم رئاسة
الجمهورية، ثم لامني على غيابي، أخبرني أنهم يبحثون عني منذ أسبوع،
وفي كل مرة يتم إبلاغه من جدتي التي وصفها بـ «الست الكبيرة» بأن يترك
«الأوردر» مع البواب فينصرف وهو لا يفهم مقصدها، اعتذرت بعبارات مُبهمة
فتقبلها ممتعضًا، وسألني خطابًا بضرورة حضوري صباح الغد لتسلم العمل بقصر
عابدين، حاولت فهم أية تفاصيل منه، لكنه تحوّل فجأة إلى شخص صامت
وانصرف.

غدت ملوِّحًا بالخطاب وأنا أردد عبارة رئاسة الجمهورية، نجحت في جذب
خيوط الفضول من عيونهم حتى صاحت جدتي:

- ظمريت فيه العشرة، أنا قلت برضه البكباشي أنور السادات لازم يختارك وزير معاه إكرامًا لأبوك.

- بجد يا سامي بقيت وزير؟!

قالتها زوجتي بنبرة حانية لم أسمعها طوال شهر العسل، تنهدت تنهيدة طويلة وأجبتها:

- همة طلبوا أروح بكرة الصبح بدري قصر عابدين، بس لغاية دلوقتي معرفش نوع الشغل إيه.

- وزير.. مؤكد وزير، هو حياقي حد ابن ناس ذوات زيك وحفيد باشاوات غيرك.

- يا نينه هو في ظابط رتبته نقيب في الداخلية بيتعين وزير بجواب حكومي حتى لو كان أبوه الملك نفسه، أكيد شغلانة تانية في أمن مقرات الرئاسة مثلاً.

- بلاش كلام فارغ يا ولد، أنت باشا ابن باشا، وأقل من وزير داخلية لازم ترفض.

قالتها غاضبة وهي تتأهب للجلوس على صدر المائدة، وراءها صورة كبيرة لجدها الباشا مرتدياً بدلة التشريفات الملكية، صورة التقطها أحد فناني القصر وقتها، واحدة من بين عشرات الصور واللوحات في بيتنا، فأينما يولي المرء وجهه تصادفه صور مماثلة بأحجام مختلفة للعائلة المالكة كأننا أحفاد محمد علي باشا.

تأملت صورة جدها، تشريفاتي الخديوي، ولوهلة حُيل إلي أن نظراته تحمل الكثير من الشفقة على حالي.

ظللت راقداً في فراشي قلقاً حتى غفوت قرب الفجر، صحت بعد ساعات قليلة عندما هزني الضيق وأقلق روعي بكوابيس متفرقة، نهضت متكاسلاً رغم إلحاح دقات جرس الباب، تثاءبت ثم توجهت لاستطلاع الأمر مضطراً عندما لم يستجب أحد من الخدم الذين يبيت أحدهم معنا، في طريقي لمحت ورقة صفراء مثبتة بقطعة مغناطيس صغيرة فوق باب ثلاجة جناحنا، نزعت الورقة وقرأتها في عجالة، كتبت زوجتي كلمات قليلة تعبر عن ضيقها لعدم استجابتي للعمل مع أبيها في شركة المقاولات، ثم اختتمت بعبارة غريبة «لو عينوك وزير ماتنساش تشكر دادي، أكيد هو اللي اقترح اسمك على أونكل أنور السادات».

كرمشت الورقة وألقيتها بأول سلة مهملات صادفتني، عندما فتحت باب الشقة وجدت بواب العمارة مرتبكا مُصَفَّرَ الوجه، أبلغني أن مرسيدس سوداء تقف أسفل البيت بها رجلان يسألان عني وطلبا إيقاظي على وجه السرعة، سألته عنهما بالتفصيل، فتلفت خلفه، ثم اقترب وهمس:

- يقولوا من رئاسة الجمهورية يا سامي بيه.

لم أشأ إيقاظ زوجتي، اكتفيت بترك ورقة لها، لصقتها على باب الثلاجة وهزنت رأسي في ضيق، تذكرت أنها أتت بالمغناطيس والأوراق الملونة من باريس وقت الخطوبة عندما سافرت لشراء فستان الفرحة، أعجبتها فكرة الرسائل المتبادلة بعدما رأتها في فيلم سينمائي هناك، واكتشفت أنهم يبيعون الفكرة في المحلات الكبيرة للمغفلين من أمثالها فانجذبت لها، كتبت في ورقتي أنني في طريقي لقصر عابدين، ولم أخبرها بمشاعر أخرى تمر بداخلي.

ارتديت بدلة داكنة تليق بالمكان وصاحبه، واخترت رابطة عنق أهدتني إياها دينا يعقوب، وهبطت مسرعا، صافحني الرجلان وفتح لي أحدهما الباب الخلفي وانطلقت بنا السيارة؛ بعد قليل لاحظت أننا لم نذهب إلى قصر عابدين أو قصر الطاهرة، بل سلطنا الطريق الزراعي باتجاه القليوبية، وعندما لاحت القناطر

الخيرية وانحرفت السيارة في طريق جانبي مُمهد عليه حراسة عسكرية، لم يكن صعباً علي إدراك أننا بطريقنا لاستراحة الرئاسة، ومن حجرة انتظار في بيت ريفي بسيط إلى رواق قصير يفضي إلى مضيضة، ومنها لشرفة نصف دائرية تطل على حديقة واسعة دخلت، فجأة وجدتُ أمامي الرئيس السادات بجلباب رمادي فوقه عباءة صوف فضفاضة وينتعل صندلاً، كان يجلس على مسافة قريبة جداً مني، ارتبكْتُ قليلاً حتى التفتُ ناحيتي وهو يخلع نظارته، رمقني بنظرة ناعسة مريبة فانتابتنني رهبة أكبر.

ثلاثة فئران في المصيدة

باريس / شارع شانزليزيه / نوفمبر / 2014

خرجت من الباب الخلفي لمسرح الأوليمبيا بعد حفل موسيقى ناجح حضرته جماهير غفيرة كالمعتاد، النسمات الباردة المميزة لشتاء باريس تلسع وجهي بصفحات حانية تنعشني، قبل أن أركب سيارتي لمحت فتاة سمراء بعيون واسعة وملامح شرقية، ذكّرني بليل القاهرة ونورها وسحرها، كانت تقترب مني بخطوات مترددة، ولوهلة خالجي شعور أنني أعرفها، توترت قليلاً حتى طمأننتني ابتسامة واسعة رسمتها على شفثيها وهي تمد يدها لمصافحتي، طلبت التقاط صورة معي فاستجبت لها، أخرجت من حقيبتها أسطوانة موسيقي الأحدث، فُضّت علبتها الكرتونية بسرعة وسألتني التوقيع عليها، أبدت ترحيباً بلا سبب، بالرغم من أنني عادة لا أفعلها بالطريق العام أبداً حتى لا يتجمع الناس كالنمل حولي.

عندما أخرجت قلّمي من جيب سترتي انتبهت إلى الزحام الذي بدأ يزيد، الدائرة تضيق والبعض يتصايح باسمي، توترت وطلبت من مدير أعمالي استعجال وصول سيارتي بسائقها، تجبرني الحشود على التفّرس في الوجوه بحثاً عن ملامح محددة تزورني في كوابيسي، أمسكت بالقلم مبتسماً بثقة مصطنعة، سألت الفتاة عن اسمها لأهديها أسطوانتي، ردّت بفرنسية غريبة:

- اسمي أمينة يا مسيو سامي... أمينة يوسف بوسعيد.

- أمينة يوسف سعيد؟

سألتها بدهشة بعدما انتابني قلق عظيم، التصق الاسم في أذني كأن شوكة توقفت بحلقي، ارتبكت الفتاة من نبرة سؤالي عندما أعدت نطق اسمها كما

سمعت، رفعت كتفيها وهي تتلفت حولها مبتسمة، أعدت سؤالها عن الاسم، فرمقتني بنظرة لا تخلو من ومضة حذر، هزت رأسها أسفة، بدت غير متحمسة لتوقيع الأسطوانة راغبة في الرحيل، تجفد القلم بين أصابعي وداهمتني رجفة، ملأني الشك، فثبث نظري على وجهها بصورة ربما ضايقته، علا صوتي بنبرة أمرة وأنا أطلب منها إعادة اسمها بالكامل، قبل أن تجيبني باغتها بسؤال وأنا اقترب خطوة أخرى منها:

- إنتي من مصر يا أمينة؟ صح؟ انطقي من غير تفكير.

نظرت لي بدهشة غريبة واستنجدت بربها بالفرنسية، تراجعت وابتسمت ابتسامة طفولية وهي تهز رأسها نافية بشدة، تشبثت بيد صديقها وغمزت بعينها اليسرى مؤكدة أنها تتمنى زيارة القاهرة لكن لم يحالفها الحظ، فجأة غلت سرينة سيارة شرطة ولمعت أنوارها من بعيد، تبدلت ملامح أمينة ورفيقها وعلى الفور تبخرا من وسط الجمع بخفة ورشاقة أذهلتني، حاولت جذبها من ذراعها، لكنها سبقتني تاركة أسطوانتها بين يدي، كانت تركض بخطوات مسرعة، وصوت صديقها يسبقها بنبرة حادة ليستعجل فرارهما قبل وصول سيارة الشرطة، ركبا سيارة حمراء صغيرة كانت تنتظرهما على مقربة وانطلقت بهما محدثة صوتا عاليا بإطاراتها أربكني أكثر، كما لو كنت تلقيت ضربة مباغته بصدري مباشرة.

- وراهم بسرعة إوعى يغيبوا عن عينا.

صرخت في مدير أعمالي وركبت السيارة التي تحركت بصعوبة وسط زحام المعجبين، خسرنا وقتا كبيرا، فأمرت سائقي بمضاعفة السرعة، بعد دقيقتين تمكنت من رؤية سيارة الشرطة على مسافة قريبة منا، بينما سيارة أمينة الحمراء الصغيرة في المقدمة تكاد تطير من فوق الأسفلت.

ظلت عرباتنا الثلاثة تجري وأضواء النيون تتكسر على زجاج السيارات تباغا كأطياف عابرة، بينما زخات من المطر تنقر السقف كأنها تُعد أنفاسي، انعطفت

السيارة الحمراء إلى شارع ضيق ومنه إلى طريق الشانزليزيه، صرير الإطارات على الأسفلت المبتل زادني توترًا، دارت السيارة نصف دورة، وفي اللحظة ذاتها راوغت وسارت في الطريق المعاكس، انحرفت سيارة الشرطة أقصى اليمين في الشارع الجانبي، في حين أمرت سائقي بالدوران وراء السيارة الحمراء والسير عكس الاتجاه، تردد السائق لوهلة، ثم ضغط دواسة البنزين بقوة وهو يلف المقود إلى نهايته ناحية اليسار.

كانت سيارة أمينة أمامنا مباشرة ثم نجح السائق في الاقتراب منها أكثر حتى تجاوزها بالكاد، كي يسدّ عليها الطريق ويجبرها على التوقف، عبرت السيارتان قوس النصر بسرعة عالية، من مقعدي الأمامي رأيت جزءًا من وجه أمينة في المرأة الجانبية، بدت فزعة، فتأكدت هواجسي، هذه المرة لم أقل شيئًا لسائقي، مددت يدي اليسرى وأدرت مقود سيارتي فجأة لأقصى اليمين، تشابكت أجزاء من مقدمة السيارتين في قبلة قصيرة، عصفت السرعة بنا، فتراقصت السيارتان فوق الأسفلت، ثم انزلقت السيارة الحمراء نحو طريق المشاة حتى أجبرها جذع شجرة ضخمة على التوقف، في حين لحقت بها سيارتنا وارتطمت بسور حجري عريض فتهشمت واجهتها.

قبل أن يهبط أحد منا كانت عربات الشرطة تحيط بالمكان، أضواء الإشارات المثبتة أعلى سقف كل سيارة تدور في الظلام لتلطم كل الوجوه تباغًا بنورها البرتقالي، تجفّع حشد صغير من ضباط وضابطات فرنسيات وأخرجوا الركاب الثلاثة من العربة الحمراء، وقفت أمينة بينهم مذعورة، تعمدت الشرطة ترك مصابيح إحدى السيارات مضاءة في مواجهتهم، بدّوا كفئران مذعورة، عالقين في مصيدة لم يقرر صاحبها مصيرهم بعد.

من مكاني لاحظت أن الفتاة بخير إلا من خدوش طفيفة، نبهني سائقي لجرح صغير يزين جبهتي وبقعة دماء تلون ياقة قميصي، لم أهتم واقتربت من الفتاة، التفت نحوي غاضبة، ثم سبني سائق العربة الحمراء، فجأة انشقت الأرض وظهر

بعض المصورين، دارت الفلاشات لالتقاط عشرات الصور، اقتربت من الضابط الذي تعرّف على شخصيتي، فوجئت به يشكرني على معاونته في إيقاف السيارة، بعدها سألني عن الأشياء التي سرقها مني ركاب العربة الحمراء قبل أن يهربوا بها، هزرت رأسي بالنفي، انتهزت الفرصة وطلبت من الضابط أن يسمح لي بالحديث مع أمينة على انفراد، رفض طلبي بصلف وأمرني بالانتظار لحين سؤالهم شفويًا.

في التحقيق السريع الذي جرى معهم، سمعت أمينة تشرح للضابط أنها طالبة مغربية تدرس الفنون بباريس وإقامتها انتهت منذ شهرين، توصلت له كي يتركها، فاقتربت منهما أكثر واستأذنته للمرة الثانية في سؤالها عن اسمها بالكامل، استجاب الضابط لطلبي هذه المرة بعدما ظنّها عشيقتي حسبما فهمت من ابتسامته الغريبة، ما إن أعدت سؤالني على الفتاة حتى لعنت اليوم الذي ذهبت فيه لحفلي المشؤومة، ثم علا صوتها بالعربية وهي تصرخ:

- اسمي خرا على رأسك أمينة بوسعيد من مراكش، أبويا اللي سماني كدا روح قبره اسأله.

تراجعت مدهوشًا من وقاحتها، لكنني انتبهت للكثرة العربية في كلامها هذه المرة، وقفت على الرصيف مستندًا على ذراع مدير أعمالني، أستنشق هواءً باردًا يوسع صدري، الشارع من حولي يضج بأصوات سيارات الإسعاف وصفارات الشرطة وأضواء كاميرات المصورين، ركزت بصري على الفتاة، لم تكن سوى شابة مغربية بلامح شاحبة وملابس رخيصة، تشبث بيد صديقها وهي تكرر بالفرنسية أنها بلا أوراق إقامة حاليًا وهربت خوفًا من الترحيل لا أكثر، أوضحت وهي تبكي أنها لم تقصد إثارة الشرطة ولم تضايق أحدًا أو تطارد آخر، ثم أشارت ناحيتي رافعة كفها، معذرة، حتى لا أقدم بلاغًا ضدها فيتعقد موقفها، للحظة شعرت أن الأرض انسحبت من تحت قدمي، وأن كل ما دار في رأسي عن الفتاة بسبب قرابة متخيلة مع شخص أخاف من ظهوره للمرة الثانية كانت مجرد أوهام

وهو اجس ليلية.

تقدمت بصعوبة ناحية الضابط ورجوته احتواء الموقف، قلت بصوت عال حتى تسمعني أمينة:

- أنا متنازل عن أي حقوق لي في تلفيات سيارتي، ومتحمل نفقات إصلاح السيارة الحمراء.

وقعت على محضر البوليس المبدئي وانصرفت، لكن في الليلة التالية، ولأيام طويلة بعدها، ظللت عازفاً عن الخروج من بيتي، كنت أجلس في الشرفة أشرب وأدخن حتى أول خيط نور، وبداخلي تساؤلات كثيرة عن أشباح الماضي التي لا تتوقف عن ملاحقتي لكني لم ألتق بها بعد، ربما تكون أوهاماً بأشكال متباينة، لكنها في كل مرة ترتد إلي مثل صدى صوت في غرفة خالية.

لمحت على مقربة مني نسخة من صحيفة لوفيجارو، وضعها مدير أعمالي على المنضدة، جذبتها وتصفحتها بلامبالاة حتى وصلت لصفحتها الأخيرة، وجدت خبراً بصورة ملونة لي يفيد بتعرضي لحادث سير بسبب إصرار معجبين مغاربة مهووسين بعزفي على الكمان على ملاحقة سيارتي للحصول على توقيعي، وصفت الصحيفة الحادث في عنوان الخبر بأنه مطاردة ليلية كادت أن تكلف الجميع حياتهم.

طويت الصحيفة في ضيق وصببت لنفسي كأساً مضاعفة من الويسكي، ناديت على مدير أعمالي ليشاركني، وطلبت منه أن يختار نخباً نشرب من أجله الكأس الأخيرة تلك الليلة، فقال دون تفكير، وهو يبتسم بخبت «كلام جرايد».

باب باريس

القاهرة/ قصر عابدين / فبراير/ 1981

حسر الرئيس السادات بعضًا من جلبابه بين ساقيه ومَسَحَ طرفي شاربه
بلسانه، كان جالسًا على أريكة خفيضة ممسكًا بغليونه وعلبة ثقاب، على مقربة
من قدميه كوم من أوراق غير مرتبة، تلفت ناحية اليسار فجأة، وزعق بصوت
جهوري:

- البوسطة يا وله.

اقترب شاب أنيق فارع الطول وانحنى ولملم الأوراق بعناية وانصرف في
صمت، أشعل الرئيس الغليون ودعاني للجلوس لكن على مبعدة، رحب بي ذاكرًا
والدي بالخير واختص حماي بالقدر ذاته، ثم تبدلت نبرته إلى أخرى معاتبة وراح
يلومني قائلاً:

- هو أنا موش قلت لك ليلة الفرح تخلص شهر العسل وأشوفك في الرئاسة..
اتأخرت علينا ليه يا أفندي؟

ارتبكت وتعزقت، قبل أن أرد انتشلي الرئيس من حرجي وقال مبتسمًا:

- سيبك من شغلانة البوليس دي، أنا اخترتك جنبي هنا في المراسم تستقبل
ضيوفي وترتب مواعيدي، عاوز في مدة قصيرة أعتد عليك، أنت واجهة كويسة
للرئاسة وأنا بختار لمصر اللي يليق بيها.

هزرت رأسي وتفوهت ببضع عبارات شكر متلعممة، لا أعرف شيئًا عن المراسم
ولا أدري ماذا يفعلون بالتحديد، حاولت تخمين سبب اختياري لكن عقلي تشوش
من كلمات الرئيس عن استقبال ضيوفه، متخيلاً سفرجي جدتي وهو يفتح الباب

لضيوفنا، ويقودهم إلى الصالون، ثم يأتي لإبلاغنا بقدومهم قبل أن يقدم لهم الشاي والقهوة.

ربما قرأ الرئيس أفكاري، ضغط زرًا بجواره ليمثل بين يديه رجل أشيب وقور، طلب منه السادات تسليمي العمل وإفهامي جميع الأمور في المراسم، ثم قال بنبرة جادة:

- عاوز في ظرف أسبوعين أشوف سامي عرفان قدامي في كل مناسبة.. مفهوم؟

- مفهوم يا ريس.

قالها الرجل المهيب وهو يهز رأسه بالإيجاب كبندول، استدار وأنا خلفه بعدما حرصت على مصافحة الرئيس وشكره، رغم التنبيه عليّ بعدم المصافحة باليد قبل دخولي.

في حجرة قريبة من مَصِيفَةِ الرئيس، وقبل أن أتهياً للجلوس، عرّفني الرجل المهيب بنفسه، مدير مراسم رئاسة الجمهورية والأمين الأول لها، ثم قال بصرامة وملامح جبهة:

- إعمل حسابك معندناش مواعيد انصراف، لكن بنبقى على مكاتبنا من ثمانية الصبح كل يوم، أيام الجمعة أجازة، إلا لو الرئيس عنده ارتباط، مفيش أسئلة والتعليمات بتننفذ بالحرف، والغلطة الأولى هي الأخيرة، السياسة مش شغلتنا خالص ولا لنا رأي فيها حتى لو إيجابى، وفي كل الأحوال لازم تبلغنا بتحركاتك قبل ما تنزل من بيتكم، عشان نعرف نلاقيك لو عاوزينك.

ظلت كلمات مدير المراسم ترن في أذني طوال الطريق من استراحة القناطر حتى وصولي إلى قصر عابدين، حياتي ستنقلب، لن أصحو عندما تنتهي أحلامي، ولن أنام عندما يداعب النوم جفوني كما اعتدت، العمل في شرطة

الخيالة ومن بعدها قطاع الموسيقى يمنحاني فرصة لكي أنظم وقتي وأذهب للمكتب كما أشاء وأعزف كل ليلة مثلما أحب، لكن مع هذه الوظيفة سيكون التردد على البارات من المحظورات. داهمتني هواجس سخيفة ظلت تتسبب عقلي وتقود تفكيري نحو الاعتذار، ولم أخرج منها إلا والسيارة تعبر بوابة جانبية لقصر عابدين، لمحت لافتة نحاسية لامعة محفورًا عليها كلمتان بحروف بارزة.. «باب باريس»، تلك التي خصصها الخديو إسماعيل لكي تدخل منها أوجيني، إمبراطورة فرنسا، القصر عند حضورها للقاهرة، على الفور انهمرت الذكريات كالطر من رأسي، لا عن قصة حب إسماعيل وأوجيني، إنما عن قصة حبي الوحيدة مع دينا يعقوب التي وضعت لها كلمة النهاية مبكرًا قبل اكتمال فصلها الأخير.

كنت وقتها في الثامنة عشرة من عمري، لكنها المرة الأولى التي أدخل فيها كنيسة، كان بداخلي اعتقاد ساذج أنني سأخلع حذائي وأتوضأ مثلما نفعل في مساجدنا، ففوجئت بالجميع يدخلون بالأحذية دون وضوء، لم نجلس على الأرض، إنما فوق دك خشبية متراصة متتالية، أمامنا مسرح، وعلى الجدران والسقف نُقِشَت رسوم مبهجة رغم الإضاءة الخافتة، رأيت صورة المسيح واضحة وملونة، وجهه هادئ وملامحه مستريحة، هنا رأيته لأول مرة، وهنا تعلق بها قلبي، أتيت مع جدتي كي نعزي في وفاة صديقة من صديقاتها، وأتت دينا مع جدتها وأما بسبب يعود للجيرة التي تجمعهم مع أسرة المرحومة.

تفاعلت الكيمياء بيننا من النظرة الأولى، عيناها بحيرتان رائقتان، تخبرانك بلا موارد أنك على موعد مع الهوى، ينتظرك على ناصية الشوق، يناديك برغبة، تهمس بحروف اسمي في شغف، لاكتشف نفمة فرنسية رقيقة تُطربني وتغمر وجداني، فيتمايل معها قلبي الذي رقص وحده يومها، متجاهلاً عقلي المندهش من فيضان مشاعري لأول مرة في حياتي، ربما تركني عقلي ألهو مؤقتًا حتى يرتوي قلبي من جمالها، وتنهل عيونني من بحيرات رائقة أتوق للغوص فيها، مَدَّ

عقلي حبل مشاعري على غاريه لأطول فترة ممكنة، لكن جدتي كان لها دورًا رأي آخر.

اقتربت بما يكفي من دينا يعقوب، أفصحت لها عن حبي دون مقاومة، فالحياة قصيرة لا يتكرر فيها هذا الجمال مرتين، قلت لها كل ما حفظته من شعر الغزل، ثم عزفت لها مقطوعة على الكمان سقيثها باسمها، ابتسمت فأضاءت ابتسامتها وجهها كله، أعلنت ضحكتها الخافتة الخجلة عن حبها، وبعدها قالتها مرات ومرات بنغم:

- أحبك يا سامي.

لم أسمع اسمي بهذه العذوبة من قبل، ولا شعرت بلمسة حانية من فتاة كما أحسست مع دينا، يتملكني العشق عندما تلامس أصابعي أناملها الرقيقة، ويغمرني الشوق لقا أحتويها بكفي وأقربها من فمي، ألتهمها بقبلات متتالية وأنا أذوب عشقًا، لا تبعد شفتاي عن يديها، أهمس في راحتيها وتسمعني بقلبها فتتوهج ابتسامتها وتتورد وجنتاها، مع الوقت صرت أشعر أنها جزء مني، خارجة من بين ضلوعي، هي روعي التي ترفرف أمامي فتبهجنني، وتجعلني أطيّر بجناحي الحب والرغبة.

كبرت قصة الحب بيننا بعدما اقتربنا فانسجمنا، أحببنا واعترفنا وزادت الألفة، تلامسنا فُعشقنا بعضنا، غرقت في حضنها وذابت بين ذراعي، كل مرة أشعر أنها الأولى التي أكتشفها فيها، تمنيت أن أعيش هنا، بين نهديها، في حضنها، بالقرب من قلبها وعينيها، لا أفارقها، رائحة جسدها تخترق أنفي وتبقى معي، تمنيت أن أدفن هنا، في المكان ذاته الذي يهبني الحياة، لأراها في حياة أخرى فيكتب لي الخلود معها. حتى جاء يوم وهمست لي قلقة:

- أنا خائفة...

قاطعتها بقبلات متتالية حتى سكنت وذابت، وعدتها أنني لن أتركها، حتى لو

حاولتُ لن أستطيع، والله كنت صادقًا، ربما أدركت جدتي في الوقت نفسه أن الإشارة خرجت من اللقاء الأول بيني وبين دينا في الكنيسة، تعرف أنها انتقلت من أعيننا ولا مست قلبينا فتلاقت روحانا، نظراتها ونبرة صوتها وهي تسألني عن دينا أو «الزفتة»، كما سمّتها، مُبعدة نظارتها الطبية أسفل أرنبة أنفها، لا تشيان بغير ذلك، الكلمات التي تبعثرها بغير انتظار لجواب تبدو مثل كلمات متقاطعة، تعرف وحدها حلّها؛ كلمات لو رتبته ستؤكد معرفتها بتفاصيل علاقتي مع دينا، ربما عيناى تفضحاننى ولعثة لسانى تكشف أسرارى.

حملت عبارات جدتي بعض التحذيرات وقتها، لكنى تجاهلتها بتصميم المحبين وعنادهم، صورتها تنبيهًا روتينيًا كي لا ننحرف، لكننا تمادينا حتى هوينّا، أعرف أن المرأة عندما تعطي كل شيء لرجل لا ترغب بعده في غيره، لا تتصور الحياة بدونه، وحتى لو حدث لن تعطي الرجل الثاني كل ما حصل عليه الحبيب الأول، دفقة الشاعر الحقيقية لا تظهر إلا مرة واحدة، وأنا المحظوظ الذي حصل عليها كاملة.

- أنت أكيد إتجننت.

ثلاث كلمات قالتها جدتي عندما صارحتها برغبتي في الزواج من دينا، أشاحت بوجهها، وتظاهرت بضيق سرّيته للامحها، مع ذلك لمحت دمة تترقرق بعينيها وهي تنهض من فوق أريكتها مبتعدة عني، رافضة مجرد الكلام في الموضوع، زادتنى طريققتها إصرارًا حتى لانت وقبلت بدء المفاوضات معي، لكنها تفاوضت باعتبارها الطرف الأقوى، نفسيًا واقتصاديًا، تدرك أنها نقطة ضعفى وتلعب عليها باستمرار.

وبكلمات حاسمة أعلنت رفضها لهذه الزيجة، ثم كشفت عن حيثيات حكمها الجائر قائلة:

- عيلتها عادية، ناس بسيطة ما نعرفش لهم أصل ولا فصل، موش من مستوى

أبوك وجدك، أبوها وجدها موظفين مش باشوات ولا حتى بهوات، وبعدين قول لي مين عيلة يعقوب أفندي دي اللي تناسب عيلة عرفان باشا، أنا موش عاوزة أحكي لك الكلام الكثير اللي سمعته عنها وإن عندها عقم وما بتخلفش، تبقى مجنون لو بتفكر تتجوزها.

ما كل هذا الهراء؟ لم أقلها لجدتي لكني صرخت بها في أعماقي وحدي، دوى صداها بوجداني، وربما ارتسمت حروف غضبي على مكثاي، لكن جدتي تظاهرت أنها لا تجيد القراءة، وعندما رفعت راية التمرد والعصيان أظهرت لي وجهها الآخر، من مكمنه زار الديكتاتور الصغير الذي يعيش بعقلها وينوجد أبواب قلبها وقت اللزوم، ظهر كمارد عظيم لم أستطع مقاومته، أخافني بحجمه، ومثني بنار الغضب عندما نفتها في وجهي، هددتني جدتي بمقاطعة طويلة المدى، معنوية ومادية مثلما فعلت وقت رفضي دخول كلية الشرطة حتى استجبت فرفعت العقوبات عني.

- عاوزني أموت بحسرتي عليك يا سامي بعد كل العمر اللي ضيعته في تربيتك؟

ظوت جدتي ماردتها بين ضلوعها وتغيرت نبرتها، مالت إلى السكينة والرجاء، لم أصدقها وزاد خوفي من شيطانها، لا أذكر كل كلماتها تحديدًا الآن، لكن دموعها أضفت مزيجًا من الشفقة على المشهد حتى لانت إرادتي مضطرًا. عاد المارد إلى قمقمه هذه المرة راضيا بعدما أدى دوره وكشف ضعفه، ترك لي جدتي بوجهها الطيب البشوش والدموع المترقرقة، الصورة التي أضعف أمامها كل مرة، تحاوطني بحنان حتى تحصل على ما تريد، تاركة قلبي ينزف مشاعري ذمًا إلى أن أعلن بوضوح، وبكلمات لا تقبل القسمة على اثنين "أنني لن أتزوج دينا يعقوب"، وبعدها ترتاح لتتركني أشقى وحدي كعادتها.

مدينة البهائم

الفيوم / مزرعة حكومية / أغسطس / 1981

جذبت مقعده بهدوء من خلفه، ووضع قلم الحبر الذي يوقع به قراراته في جيبه؛ منذ قليل انتهى اجتماع مجلس الوزراء الذي ترأسه السادات كعادته مؤخرًا، قبل أن يتجه الرئيس نحو باب الخروج التفت ناحية وزير الزراعة ثم سأله:

- أخبار مزرعة تسمين العجول اللي وعدتني بزيارتها في الفيوم إيه؟
- المحافظ هناك بلغني أنها جاهزة يا ريس تحت أمرك أي وقت، أول ما ترجع بالسلامة من أمريكا نرتب لمعالينك الزيارة.
- لا، طالما جاهزة يبقى خلاص نروح بعد بكرة الظهر، رتبوا لنا الزيارة.
- قالها السادات لرئيس ديوانه وهو يشعل غليونه، تاركًا أعصاب الوزير تحترق بغير رائحة، ثم رفع يده مُحييًا الوزراء وغادر وأنا أتقدمه بخطوات، فتحت باب السيارة وتراجعت كي أفسح المجال لحارسه الشخصي، ناداني السادات فاقتربت، همس لي:
- تروح بكرة بعريتك تتفقد المزرعة بتكليف مني، والكلام يبقى بيني وبينك بس لما ترجع.

قبل الزيارة بيوم، وقفت أعاين المزرعة وأتفقد مسار الزيارة مع المحافظ ووكيل وزارة الزراعة ومديري التموين بالمحافظة، لسعتنا أشعة الشمس لسعة خفيفة كأنها تثنينا عما نفعله، شحنت مئات الأبقار على متن العشرات من عربات النقل حتى استقرت داخل المزرعة، ثم اقترح وكيل وزارة الزراعة وضع جاموسة

بين كل ثلاث بقرات، لم أفهم سبب اقتراحه وحرصت على عدم التوغل في الزريبة، كي لا يفسد حذائي الإيطالي الجديد.

عند المغادرة سألته عن الجاموس الذي حشره بالزريبة فضحك وهو يقول:

- الرئيس فلاح ابن فلاح ولازم يشوف مواشي من بلدنا، جاموس بلدي يفرح موش كله بقر فريزيان مستورد، عمومًا ما تشغلش بالك أنا متفق مع معالي الوزير على كل شيء.

قلت لنفسني هذا الرجل مؤكد مخبول لكي يظنني سأشغل بالي بجاموس الفيوم، تركت الرجل وجلست على مقعد أسفل مظلة أثوا بها من شاطئ بحيرة قارون، خلعت نظارتي لأحك مقدمة أنفي لمرّة ثالثة، خشيت من إصابتي بحساسية بسبب قربي من الزريبة، أو ربما حشرة غريبة قد قرصتني، نويت التوجه لطبيب الرئاسة فور عودتي لقصر عابدين، تابعت ترتيبات دخول البهائم التي وصلت في شاحنات لم تُطفأ محركاتها بعد، وشغلت ذهني بإحصاء أعداد الجواميس التي تُدفع بالعصي، كأنهم مجندون جدد في طابور استعراض، بعد الخمسين ملث، بداخلي قناعة أن هذا السيرك لا لزوم له، لا يهم أن تكون هناك مزرعة حقيقية، يكفي أن تظهر كمزرعة من بعيد، فمن المؤكد أن الرئيس لن يدخلها، وسيكتفي بنظرة ويحصل على لقطة، وبعدها يعود للقاهرة.

- الرئيس هيمشي لغاية فين يا سامي بيه؟

لم أضع أي مسارات داخل الزريبة، أبلغت ضابط الحرس الجمهوري الذي يرافقني بالمسار القصير خارجها ومكان التصوير، حددت المواضع التي سيتوقف عندها الرئيس فوافق عليها بعدما عاينها، نبهت على وكيل الوزارة بنظافة المكان، وطلبت من المجندين الذين أثوا بهم من معسكر قريب للأمن المركزي أن يرفعوا الحبال التي تربط العجول، بحيث لا تظهر كأنها مقيدة الحرية في لقطات الصور غداً.

دوّنت كل شيء في دفتري وعدت لقصر عابدين، دخلت على السادات بين موعدين، توقفت على عتبة الباب لقا وجدته مشغولاً مع سفيرنا في واشنطن، تصورت أنه سيستدعيني بعدها للسؤال عن البهائم، لكنه اكتفى بقاء بعض المحافظين المنتظرين منذ الصباح، ثم طلب تأجيل أي لقاءات أخرى لأنه سيشاهد فيلمًا سينمائيًا هذا المساء ببيته في الجيزة.

في اليوم التالي وصلنا المزرعة قرب الظهر، وقفت على يمين السادات، كنت أسبقه بعشر خطوات، وأشير له من بعيد، كما يُفُضَّل، إلى مسار الزيارة ومواضع الوقوف، قدمت وكلاء الوزارة ومديري الإدارات الزراعية والتموين الذين كانوا في استقباله بوظائفهم، ثم أشرت إلى موضع محدد لأخذ لقطة الافتتاح.

سار كل شيء كما حُطّط له حتى فوجئت بدخول السادات إلى الزريبة، لوهلة ظننت أنه سيقف بعثبتها لزوم التصوير، وتأكيدًا لصورة الفلاح التي يعتز بها، لكنه توغل، وهرول الحشد من مسؤولي المحافظة وراءه حتى اختلطوا بالبهائم، ربت السادات على ظهر جاموسة بدت مضطربة، هائجة، ترفس التراب وتلوك الهواء بين فكّيهما في غضب؛ لاحظت أن السادات كان عصبيًا، التفت لوزير الزراعة، همس له ببعض كلمات فانقبضت أسارير الوزير.

كنت لا أزال خارج الزريبة، حاولت تثبيت نظري على الرئيس حتى تلاقت عينانا، لمحت نظرة غضب سكنت وجهه للحظات قبل أن تزول، ولم يقل شيئًا بعدها كأنني المسؤول عن البهائم، أكمل جولته واستمع في لا مبالاة لبعض الشرح من وكيل أول الوزارة، متجاهلاً الوزير الذي تأخر خطوتين للوراء، ثم ركب السادات سيارته وعاد إلى القاهرة.

في المساء استدعاني الرئيس لمكتبه قبل أن يغادر قصر عابدين، ظل يدخن غليونيه في هدوء ثم سألني:

- عملت اللي قلت لك عليه قبل الزيارة يا سامي؟

- أيوة يا ريس، دؤنت ملاحظات وحاولت أعرض الموضوع على سيادتك قبلها لكن حضرتك كنت مشغول إمبراح.

- عظيم، وعرفت الجاموسة أجروها بكام يا سامي؟

نظرت للسادات في حيرة، لم أفهم السؤال، واستأذنت منه في تكراره على مسامعي، فقال وهو يبتسم:

- دؤنت ملاحظات إيه بقى.. إحكي لي.

ذكرت له ما رأيت بالتفصيل، فأفلتت منه ضحكة ساخرة وسألني بجدية:

- أنت عمرك رحت الفلاحين يا سامي؟

- كثير يا فندم، عندنا عزية في أسيوط وكنت بركب فيها خيل وأنا صغير باستمرار و.....

قاطعني السادات وهو يضحك ويضرب الهواء بكفه:

- خيل إيه يخرب نافوخك، أنا بكلمك عن المواشي اللي في الزرايب.

أطرقت بعدما شعرت بتقصير ما، وقفت صامتًا في انتظار بيان الخطأ الذي وقعت فيه فقال الرئيس:

- شوف يا سامي الجاموسة تقريبًا كدا دفعوا فيها عشرة جنيه إيجار اتناشر ساعة لغاية ما ترجع تبات في زريبتها، طبقًا مبلغ كبير، لكن أهل الفيوم ناصحين، قالوا دي زيارة رئيس الجمهورية والوزير والمحافظ مزنوقين، يبقى نغالي في الأسعار.

صمت السادات وانشغل بإشغال غليونه، ثم رفع عينيه نحوي فجأة وقال:

- أنت فاهم أنا بتكلم عن إيه يا سامي؟

- تمام يا ريس.

- تمام إيه وخيبة إيه، أنت باين عليك خواجه.. أقعد عشان أفهمك ومحدث
يضحك عليكم بعد كدا.

جلست على حافة أريكة خضراء قريبة من مكتبه وبدأت أتعرق بكثافة، تحدث
الرئيس بنبرة هادئة واضعًا ساقًا على ساق بعدما أعاد ظهره للوراء:

- شوف يا ابني أنا فلاح مش أفندي، النهاردة لاحظت إن البهايم كلها هايجة،
الخالة دي ما تحصلش إلا لما تكون البهيمة مش بايتة في زربتها، لأن ما
يكركبش الزريبة إلا البهيمة الغريبة، كل المواشي اللي أنت شفتها النهاردة، بما
فيها البقر الفريزيان الهادي بطبيعته دا، أجروها قبلها بيوم بالشيء الفلاني، عشان
أشوف مزرعة نموذجية وأقول عفارم.

ابتسمت وكدت أصفق إعجابًا بكلامه، فهمت لماذا تقلبت ملامح الوزير ووكيل
الوزارة والمحافظ عندما قرر السادات دخول الزريبة، تجرأت وسألته عن تصرفه
الذي ينوي عليه معهم، توجهم وجهه واعتدل في جلسته قائلاً:

- بعد احتفالات ستة أكتوبر هغير الوزارة كلها، ناوي أجيب شباب أثق فيهم
يشيلوا المسؤولية معايا.

- تمام يا ريس.

نهضت مستئذناً في الانصراف فأشار لي برأسه لأنصرف، لكن عند الباب
ناداني، نبّه عليّ بالمتابعة مع رئيس الديوان بعدم نشر أي أخبار أو صور عن زيارة
المزرعة، ترددت للحظة ثم قلت:

- لكن الطريق من الجيزة للفيوم كان مغلقًا، والناس عرفت أن سيادتكم رحت
ورجعت والإشاعات ممكن.....

قاطعني ضاحكًا وهو يقول:

- ما أنا عامل حسابي وقلت للديوان ينبهوا على الصحفيين أن الخبر هو تفقد طريق الفيوم الصحراوي.

في تلك اللحظة أدركت أن الرئيس لم يأت ليزور المزرعة، بل جاء ليرى عن قرب من ظن أن بإمكانه تسويق الوهم له فيطيح به في أقرب تعديل وزاري وهو مطمئن. خرجت من قصر عابدين وطوال الطريق للبيت لا شيء في ذهني سوى صورة المسؤولين واقفين وسط عشرات الجواميس والأبقار، كأنها صورة تذكارية أخيرة قبل قرار الإقالة المنتظر.

كنا معًا ليلة الثورة

واشنطن / البيت الأبيض / سبتمبر / 1981

أيام الدراسة كنت أستلقي على أريكة وأقرأ، وعندما تخرّجت من كلية الشرطة، كان المكتب لأضع فوقه كوب شاي أو فنجان قهوة، ولا شيء آخر، فبقية اليوم أركب الخيل وأتابع العناية بالكلاب البوليسية، وعندما نُقلت لموسيقى الشرطة لم يكن لدي مكتب من الأساس.

اليوم غرقت في شؤون إدارية تتطلب جلوسي وراء مكتبي لساعات طوال، لا أستوعب أنني صرت مسؤولاً عن ترتيب دخول وزراء مصر وكبار القادة والملوك والرؤساء والسفراء، أجانب وعرب، إلى الرئيس ليلتقوا به دقائق قليلة، يتطلب عملي أحياناً الدخول لتنبيه الرئيس بأن وقت اللقاء قد انتهى إذا لم يكن الضيف ملكاً أو رئيساً، أغلب الأحيان يستجيب السادات، يهب واقفاً مصافحاً ضيفه الذي يغادر مجبراً وهو ينظر لي في ضيق كأنني السبب في إنهاء زيارته، لا يعلم الضيوف أن كل شيء مُقدر بالدقيقة، منذ أن يصحو الرئيس من نومه وحتى يخلد إلى فراشه في الحادية عشرة مساءً، ولو استطاعت الحراسة الشخصية السيطرة على أحلام الرئيس لفعلوها حتى تخلو لياليه من الكوابيس.

كرهت الأوراق والأختام معًا بعدما ابتلعت وقتي وحرمتني من العزف على الكمان، في تلك الفترة اقتربت من نائب الرئيس، حسني مبارك، كان بلا اختصاصات محددة تقريباً أو هكذا يبدو للناظرين، يتندرون في الرئاسة على طريقة ضحكته، ويشيرون أن السادات اختاره ليؤدي أموراً لا نفع من ورائها، ولا يريد أحد القيام بها، لبلوغ أهداف لا يهتم الناس بتحقيقها.

خصصوا له مكتباً بغرفة قريبة من غرفة مكتبي، وكان يتردد على مكتبه

في مواعيد ثابتة يمكن ضبط الساعة عليها، يجلس بمفرده أغلب الأوقات، لا توجد ورقة أمامه حتى أطلقوا عليه «المكتب النظيف»، مع ذلك كان هو ورئيس مجلس الشعب الوحيدين اللذين يلتقيان السادات في أي وقت دون موعد سابق أو انتظار، لكن مبارك لم يفعلها من نفسه، في كل مرة كان ينتظر أن يستدعيه السادات، ربما ليس لديه ما يقوله، فهو لا يفعل شيئًا يُذكر كما يشيرون عنه، لكنني في كل مرة أدخلته فيها للرئيس شعرت أنه يؤدي مهام سرية للغاية، وكان السادات يستمع له بإنصات شديد، ويصطحبه معه في جولاته كأنه يعطيه دروسًا خصوصية في حكم مصر، وعندما اقتربت من مبارك أكثر شعرت أنه يعتمد تصدير الصورة السلبية للآخرين.

اقترابي بما يكفي من النائب حسني مبارك أتاح لي وقت راحة كل يوم بين فترات العمل الإداري السخيف، كنت أجلس معه بمكتبه نتسامر لساعات، وما بين فنجاني الشاي والقهوة يثرثر عن بطولاته وقت النكسة، وكيف تمكن من حماية سرب طائراته والهبوط بها في مطار بني سويف العسكري، ثم يدلف منها إلى إنجازهِ الأعظم، الضربة الجوية التي فاجأ بها إسرائيل في حرب أكتوبر، وبالرغم من أن البعض هنا يشكك في دقة كلامه، فإنهم لم يجروا على مواجهته؛ بدوري اخترت الصمت، لاشك أن الحكايات التي حكاها النائب شيقة وحقيقية، لكن تكرارها خلق عندي بعض الملل، ثم لاحظت مع الوقت أن دور البطولة يكبر كل مرة حتى يحسب السامع أن مبارك هو بطل الحرب الوحيد، أحلث الأمر في البداية للفراغ الذي يحيط بالرجل الثاني في مصر وعدم توقعه لقدر مكانته، خاصة بعدما دار كلام بالكواليس عن الوزير منصور حسن الذي ينوي السادات تعيينه في منصب نائب رئيس الجمهورية قريبًا، مبارك نفسه كان يردد أن طموحه لم يتعد تعيينه سفيرًا لمصر في العاصمة البريطانية، ولما سأله مرة عن سبب اختياره لندن تحديدًا، ضحك قائلاً بعفوية:

- أهو الواحد يعمل له قرشين بالإسترليني ينفعوه يا أخي.

رغم الانطباعات الأولية التي حرص النائب مبارك على إظهارها لمحدثه بأنه رجل بسيط بلا عمل حقيقي، لكنني لم أقنع أبدًا، ومع الوقت تأكدت أن شخصيته شديدة التعقيد وليست بهذه البساطة التي تبدو على السطح، كان شديد العناد، لديه صبر لا ينفد، يُجيد الكتمان فلا يعرف عنه أحد شيئًا إلا الرئيس السادات الذي يدين له مبارك بالولاء التام، يكفي أن يعلن الرئيس عن فكرة تراوده فيردها النائب كأنها أمر يتحتم تنفيذه على الفور، وعلى مدار شهور، رأيت فيها بانتظام، ظل حريصًا على الكمون في مكانه كمن يترصد بشخص محدد، فقط ينتظر الفرصة المناسبة لبدء الهجوم ولا يشغله مرور الوقت.

جرت الأمور روتينية كتعاقب فصول السنة الأربعة، إلى أن أبلغني مدير المراسم بنبرة تحمل الكثير من الاستعجال:

- سامي.. إعمل حسابك إنك مسافر زيارة أمريكا بعد شهر، وكمان حتبقى في مراسم سيادة الرئيس صف أول.

- صف أول؟

رددتها غير مصدق، بدد مدير المراسم دهشتي وهو يرفع كتفيه قائلاً:

- تعليمات سيادة الرئيس كدا.

تركني مدير المراسم غارقًا في قلقي، تدن في أذني الكلمات التي دارت من وراء ظهري منذ تعييني في الرئاسة، أن الرئيس اختارني بسبب ملامحي الأوروبية وإتقاني لأكثر من لغة أجنبية، مجرد واجهة براقية ولا شيء آخر، نفضت الأفكار السلبية من رأسي وقررت الاستعداد جيدًا للرحلة لإثبات وجودي.

قبل سفري زرت النائب حسني مبارك في مكتبه من باب اللياقة باعتباره رفيق أيام الملل الطويلة، أبدى الرجل اهتمامًا بالزيارة ونبهني إلى ضرورة العناية بالتفاصيل، أفاض في الكلام عن أمور تافهة وبسيطة في عملي حتى شعرت أنه

لا يثق في، وأن ملامحي هي سبب تعييني كما يقال، حاولت نفذ الإشاعات التي تدور حولي من رأسه، أخبرته ببرود أنني أراها كأى زيارة وأنني مستعد لها، معلنا رأيي بصراحة أن كل المباحثات ناجحة دائما كما تخبرنا الجرائد القومية كل مرة.

اعتدل مبارك في جلسته وقال بنبرة جادة:

- شوف كل الزيارات والمباحثات كوم، وأمريكا كوم تاني، دي يا سامي زي الحج كدا، أمريكا بتتعامل مع العرب بطريقة أنا ربكم الأعلى، يا إما تغفر لك ذنوبك وترجع نضيف، يا إما تخرج من الجنة وتبقى ملعون من الكل زي إبليس.

وصلت مع الوفد الأمني قبل زيارة السادات بيومين، تفقّدت مع الحراسة الخاصة مقر إقامة الرئيس، ثم استرحنا لنصف يوم، وفي المساء ذهبت مع مدير المراسم إلى البيت الأبيض، مررنا بالطريق الذي سيسير فيه الرئيس، أحصيت الخطوات التي سيقطعها السادات حتى يصافح الرئيس الأمريكي ريجان وزوجته، نبهنا على المراسم الأمريكية بعدم تبادل القبلات بين الرئيس الأمريكي ريجان والسيدة جيهان السادات تفاديا للغط سبّته قُبلة بروتوكولية عابرة في زيارة سابقة لأمريكا وقت الرئيس كارتر.

حسبت الوقت الذي قد يستغرقه في التقاط الصور التذكارية وتبادل عبارات الترحيب، ثم دخلنا بعدها البيت الأبيض وتوجهنا إلى المكتب البيضاوي، لكن لم يُسمح لي بالدخول، طلب مني مدير المراسم حفظ تقاطع الطرقات وجغرافيا المكان في رأسي كخطوط كفي، وبعدها همس:

- لازم عينك تكون في عين الرئيس طول الوقت، ده أول امتحان حقيقي لك، والشغل بره غير في مصر.

دوّنت في مفكرة صغيرة أهم المسارات واعتمدت على ذاكرتي في الباقيات. وصل السادات صباح اليوم التالي مبكرًا، دارت المراسم والاستقبالات كما هو مقدر لها، ولم يحدث أي خروج عن النص وفقًا للتعبير الذي يستعمله مديري.

في مساء اليوم نفسه أقام ريجان حفل عشاء رسمي على شرف الرئيس، ألقى فيه كلمة ترحيب قصيرة بالوفد المصري، كانت لدينا صورة منها قبل بدء الاحتفال، لكن فجأة خرج ريجان عن النص، مازح السادات بأنه ليس محظوظًا مثله لأنه لم يشترك في ثورة أتت به لحكم بلاده، ومع ذلك يشعر بالفخر لمشاركته الرئيس المصري الحدث الأكبر ليلة ثورة يوليو، عندما ذهب السادات إلى السينما.

سكت ريجان برهة ثم ابتسم قائلاً:

- هل يتذكر السيّد الرئيس الفيلم الذي شاهدته تلك الليلة ومن كان يطل عليه من الشاشة طوال الوقت؟

ضجّت القاعة بضحك أعقبه تصفيق خافت كأنهم يعتذرون عن السخرية، بعدها أردف ريجان:

- سعيد أنني شاركتك سيدي الرئيس في لحظة تاريخية فارقة، كنا معًا ليلة الثورة في السينما.

هذه المرة اكتفى الحضور بالابتسام، بينما ظل السادات راسعًا ابتسامة هادئة كبحر رائق.

مال على أذني رئيس الديوان هامسًا:

- ريجان غلط غلطة عمره، مؤكد سيادة الرئيس بيرقّد له دلوقتي ووقت كلمته هيخرج عن النص ويبستفه، قبل كدا عملها مع جولدا مائير ووصفها بالسيدة العجوز، وعملها مع مناحم بيغن لما حاول يحرجه ويقول له عندك الجرأة أتمنى

تدعوني للقاهرة، فالريس قال له أنا فعلاً بخطط لاستقبالك في سينا. اتفرج واتعلم يا سامي.

نقلت بصري صوب السادات فوجدته جامد الوجه، عيناه مثبتتان على ريجان والغليون بين شفتيه وخيط دخان رفيع يثلوي أمامه في الهواء كأن الكلام لا يهمه، فأيقنت أنه يخطط لضربة موجعة بالفعل.

انتهى ريجان من كلمته وخيل لي أن السادات يتظاهر بالتصفيق لكنه لا يفعلها، انتقلت الكلمة للرئيس المصري حسبما أعلن مدير المراسم الأمريكي، نهض السادات بهدوء متجهاً إلى منصة صغيرة، وتحركت في اللحظة ذاتها حتى اقتربت من الرئيس حاملاً «الدوسيه» الذي يحوي كلمته، مثبتاً نظري على عينيه إذا ما أراد شيئاً ما، لكنه تناول الملف بصورة آلية وفتحه بهدوء ومضى يقرأ بوتيرة واحدة، لم تكن كلمته مملة لأنها بليغة وموجزة، لكنه لم يفاجئ ريجان أو الحضور بأي خروج عن النص، بدا كأسد عجوز قلّمت أظافره وسقطت أنيابه بعدما تلقى هجوماً مباغتاً، وبعدها لعق جراحه ومضى في سلام.

بعد انتهاء الكلمة التي نالت تصفيقاً أكثر من الذي نالته كلمة الرئيس الأمريكي، كأنهم يعوضونه عن السخرية التي لحقت به، انشغل الجميع في تبادل الأنخاب بكؤوس الشامبانيا، توجهت إلى المائدة المخصصة لنا في قاعة أخرى أصغر، الباب مفتوح بين القاعتين، ومن مائدتنا يمكنني وحراسة السادات الشخصية رؤيته بوضوح، تنبعت وهو يفتش جيوبه بينما الغليون بين شفتيه فهرولت بعلبة الثقاب وقدمتها له فهو لا يحب أن يشعل له أحد غليونه، انحنيت كرقم ثمانية وسألته هامساً إن كان يريد أي شيء آخر، فاكتفى بهز رأسه سلماً في وجوم.

عدنا ظهر اليوم التالي للقاهرة بعدما أصدر السادات أمره بتجهيز الطائرة قبل الموعد المحدد للمغادرة بعشر ساعات، فيما يبدو اختار النوم في طائرته حتى إنه لم يخرج للصحفيين كالمعتاد. نمت بدوري طوال الرحلة وعندما وصلنا

القاهرة وغادرت المطار وجدت السماء غائمة، لم تكن من تلك الغيوم التي تنذر
بأمطار لكنها تشي بشبورة ثقيلة قادمة، طلبت من سائق الرئاسة توصيلي إلى
فندق الشيراتون بالدقي، قررت تمضية بعض الوقت بالبار، بعد الفجر بساعتين
ثقلت رأسي، فقررت أتمشى على النيل لأفريق، صادفني نسيم لطيف فأغمضت
عيني واستنشقت أكبر كمية ممكنة من الهواء، شعرت أن جسمي يرفض السكون
ومهيأ للحركة والنشاط، ولولا الحياء لآثرت الجري، في اللحظة ذاتها ارتفع صوت
بائع جرائد عابر فوق كوبري الجلاء، استوقفني صياحه بعنوان مثير فناديته،
حصلت على نسخة وطالعت صفحتها الأولى في ذهول، السادات وضع ألف
وخمسمئة شخص في المعتقل بقرار واحد منفرد، ولأنه لم يوقع أية أوراق في
الطائرة عند عودتنا، أيقنت أن قراراته تلك وقعت قبل سفره، وأجل إعلانها إلى
اليوم حتى يبدو وكأن الإدارة الأمريكية توافقه عليها.

طويت الجريدة ونظرت للسماء فوجدت الشبورة تتزايد وتهبط ثقيلة، سكنت
نسائم الهواء فجأة وشعرت باختناق، خفت من ربطة عنقي وأحسست أن
النشاط يتسرب من جسدي ولم أعد قادرًا حتى على المشي، ساقاي ثقيلتان
لا تطاوعاني والقلق يبدد طاقتي، أوقفت تاكسي وألقيت بجسدي المنهك على
الأريكة الخلفية وأشرت له ناحية جاردن سيتي دون كلام، بينما كلمات النائب
حسني مبارك عن أهمية زيارة أمريكا لمحو الذنوب تتردد في أذني وبصوت
السادات المميز نفسه.

رقصة البجعة الأخيرة

القاهرة/ مدينة نصر/ أكتوبر/ 1981

تناثرت قطرات المطر مغلقة زجاج نوافذ سيارتي بغلالة مثل البلور الشفاف، مُعلنة أننا في حضرة الخريف بأجوائه الغائمة، لكنها سرعان ما توقفت وسطعت شمس دافئة حَسَّنت مزاجي.

وصلت قبل الرئيس السادات بنحو ساعة إلى ساحة العرض العسكري، الأجواء متوترة للغاية والحراسة مشددة بصورة ضايقت غالبية الضيوف، منذ أسبوعين أبلغنا وزير الداخلية بمعلومات عن مؤامرة كبيرة لاغتيال الرئيس، طلب منه ارتداء واقي الرصاص إذا ما صمم على حضور العرض العسكري، ولقًا لم يجد أذانًا مصغية لكلامه، اقترح إنابة حسني مبارك بدلًا منه، لكن الرئيس رفض مناقشة أمر ذهابه، ولم يرتدِ الواقي هذا الصباح حسبما علمنا من الحراسة الشخصية.

أدينا عملنا الروتيني، وتأكدنا من أماكن جلوس الضيوف، وأخطرنا طاقم الحراسة بإغلاق بوابات الدخول، وقفت أمام المنصة مباشرة انتظارًا لوصول الموكب الرسمي، الذي دخل بالفعل أرض العرض من بوابة جانبية، لكن سيارة الرئيس توقفت فجأة، وهبط منها مع الحراسة الشخصية، أبلغوني عبر جهاز اللاسلكي برغبة السادات في تبديل العربة التي سيدخل بها للضيوف من أجل التصوير التلفزيوني.

ضُرب النفير عاليًا لحظة ظهور الرئيس السادات واقفًا في عربة مكشوفة، محييًا الضباط والجنود بعصا المارشال، بدا واثقًا مطمئنًا، يتوسط نائبه مبارك ووزير الدفاع أبو غزالة، هبط الرئيس برشاقة من العربة، وتقدمته بخطوات

وأنا أشير ناحية الطريق المؤدي لكرسيه، ثم وضعت غليونه وعلبة الثقاب فوق منضدة صغيرة أمامه، بعد دقيقة واحدة ناداني السادات طالبًا إبعاد الحراسة الخاصة الذين كانوا جالسين أمام المنصة، تحدثت مع قائد حرس الرئيس لكنه لم يكثر لكلامي، ربت كتفي ومضى دون رد كأنني طفل يهذي. بعد ربع الساعة التفت السادات حيث كنت أجلس وراءه إلى اليمين قليلًا وأشار بيده ناحية الحراسة، بدا غاضبًا لعدم تنفيذ أوامره، همس رئيس الديوان في أذني أن الرئيس لا يريد ظهور الحارس الخاص في الصورة وهو يحتفل مع القوات المسلحة، وطلب مني إبلاغ قائد الحرس الجمهوري بالملاحظة فورًا، نقلت أمر الرئيس لقائد الحرس، وأشارت ناحية المنصة لأشهد السادات نفسه أنني عملت كل ما في وسعي، لكن رجال الحراسة لا يتقبلون الأوامر بسهولة، كانوا أحيانًا يغيرون من خطوط السير ويرفضون نزول الرئيس لمصافحة الناس، وكانوا يعانون من السادات أشد المعاناة لاستخدامه السيارات المكشوفة في أغلب الاستقبالات الرسمية، أو لحرصه على قيادة سيارته الخاصة في بعض الأحيان بشوارع القاهرة وقت الفجر.

بعد جدل خفيف ابتعدت الحراسة على مضض، لكن ما إن بدأ العرض، إلا وتعطلت سيارة بالقرب من المنصة وتم جرها بصعوبة، حتى عاد الحارس الشخصي ووضع كرسيًا خشبيًا أمام سور المنصة وجلس فوقه، هذه المرة صاح السادات فيه غاضبًا مشيرًا إليه بالعصا كي يبتعد، فامتثل الرجل على الفور لما فهم من نبرة الرئيس أن العقاب مربوط في ذيل الكلام.

مرّت الأمور روتينية كما هو مُقدّر لها، وراحت الطائرات تُجري العرض الجوي المعتاد، الكل يصوب نظره للسماء، بعد برهة ضرب أمعائي ألم شديد، وبحكم صلاحيات منصبي غادرت المنصة متوجهًا إلى دورة المياه، رفاهية تتمتع بها الدائرة القريبة من الرئيس دون غيرها مهما غلّت المكانة، ما إن جلست بالمرحاض حتى سمعت أصواتًا أشبه برصاصات متتالية، لوهلة ظننت أنني

أتوهم ثم أقنعت نفسي أنها جزء من العرض العسكري، لكن مع تواليها انقبضت أمعائي واضطربت معدتي، هندمت ملابسي بسرعة وهرولت في اتجاه المنصة، في اللحظة ذاتها انفجرت قنابل دخان ملأت الساحة وحالت دون الرؤية، ثم سمعت صراخًا وسيلاً جديدًا من رصاص أسلحة آلية ينهمر كالمطر، لمحت أشباحًا مسلحة ببنادق رشاشة تتحرك قرب قوس المنصة، دماء تتناثر وآهات تخرج من الأفواه وأصوات متداخلة لا يفهم منها حرف، فجأة سقطت مستلقيًا على بطني بعدما دفعني أحد أفراد الحراسة وهو في طريقه للسادات، وسمعت بوضوح وزير الدفاع وهو يصرخ مرتين:

- الرئيس فين؟

رفعت رأسي بحذر فوجدت أمامي كومة من المقاعد، ربما أُلقيت فوق الرئيس لحمايته، زحفت مترين بينما المقاعد تُرفع تباغًا، رأيت السادات أمامي وتلاقت عينانا، نظرت بهدوء غريبة، تبدو آتية من عالم آخر، كفرعون تم تحنيطه من آلاف السنين، نظرة تحمل عتابًا وإدانة وشعورًا بالأذى والألم في آن، لم يستغرق الأمر ثانية أو ثانيتين وبعدها رفعوه إلى سيارة توقفت أمام المنصة، ومنها إلى طائرة هليكوبتر نقلته إلى مستشفى المعادي.

نهضت بصعوبة مع أنني لم أكن مصابًا، لكن أوجاعًا راحت تنهش جسدي بضراوة، وجدت بجواري جثة السفير البلجيكي، ومن بعده أحد موظفينا، وقد طارت نصف ذراعه ولا يزال ممسكًا بها، الكل يفر من المكان حتى شعرت أننا في بروفة ليوم الحشر، الوجوه غابرة، والملابس مُتربة مخلوطة بدماء لزجة، الأعصاب منفلة، لا أحد ينتظر أمرًا من قائده والكل يتصرف مدفوعًا بغريزة البقاء، ظننا في البداية أنها محاولة انقلاب كبرى، وأن وحدات من الجيش تمردت ونجحت، فأحاطت قوات الحرس الجمهوري بالمنصة حتى لا تتحول إلى مذبحة، تولوا حماية النائب مبارك وأخرجوه وحده من باب آخر خلفي، لكن الأمر انتهى بعد قليل بالقبض على اثنين وفرار اثنين، وكأنها كانت مشاجرة في منطقة

لفظ السادات أنفاسه الأخيرة في الطائرة الهليكوبتر التي نقلته إلى مستشفى المعادي، أخبرنا الطبيب أن طلقة دخلت أسفل رقبته وقطعت شرياناً رئيسياً فمات من النزيف بعد دقائق معدودات، وقفت تائهاً على باب غرفة العمليات التي نقل إليها السادات في محاولة يائسة لإعادته للحياة، لكن ليس كل من يذهب هناك يعود، انتهى دوري عند هذه الحدود، ولم يعد هناك مجال لمراسم أخرى بعدما حلّ الغروب.

خرجت إلى صالون الانتظار، بعد قليل وصل النائب مبارك، كنت جالساً صحبة بعض أفراد طاقم الحراسة المستبعدة كمتهمين في انتظار المحاكمة، نهضت وصافحت النائب وأدخلته غرفة العمليات، حيث لا يزال جثمان الرئيس بها، عدت للجلوس بين رجال الحراسة الشخصية، فلاحظت أن نظراتهم وعبارات كلامهم تحقّلني المسؤولية وحدي كأن قرار إبعادهم كان من بنات أفكارى، لا يدركون أنني لم أتخذ قراراً في حياتي، أنا أخاف الندم ولا أشعر بحاجة إلى تغيير أي شيء، أفضل دوماً موقع المتلقي، المستمع، المشاهد، الحفيد المدلل، الموظف، الصديق الذي يحبه الجميع ويسبق اسمه لقب عزيزي، وبعدها يقرر الآخرون مصيري، يحددون لي طريقي لأمشي فيه بقية عمري وحدي.

خرجت من المستشفى بعدما شعرت برغبة في الابتعاد عن الجميع حتى ينتهي هذا الكابوس، أشرت لأقرب تاكسي وألقيت بنفسى فيه، ظللت طوال الطريق أفكر في الموت الذي رفرف فوق رأسى، كدت أفقد حياتي بلا سبب، ومات الرئيس لأسباب كثيرة، بعدما عادت العرائس الخشبية التي صنعها إلى الحياة على خلاف ما توقع، لكنها هذه المرة خلقت من نار.

قبل دخول السيارة لميدان التحرير الخاوي كساعة إفطار في رمضان، علا نداء بائع الجرائد، اشتريت نسخة من جريدة المساء، طالعت الصفحة الأولى فقرأت

عناوين بارزة تقول «عرض عسكري ناجح»، «القوات المسلحة تتألق في أبهى صورة أمام القائد والزعيم»، وعلى يسار الصفحة، إلى أسفل قليلاً، وجدت مقالاً لرئيس التحرير عن تحديات أكتوبر الجديدة.

عند وصولي بيت جدتي ألقيت بالجريدة مفتوحة على المقال وصورة كبيرة لكاتبه في أقرب سلة قمامة، قرب باب جناحي الخاص التقيت زوجتي، عادت منذ ساعات من السفر ولا تزال حقائبها بالصالة، تبادلنا سلاماً فاتراً وقبلات باردة، أشبه بحالة التطبيع بين مصر وإسرائيل، ابتسمت وهي تخبرني بدهشتها من التزامي بالحضور قبل موعد العشاء على غير عادتي، قلت ببرود وأنا في طريقي للغرفة كأن الأمر يحدث كل يوم:

- الرئيس اتقتل في المنصة والبلد مقلوبة وهيعلنوا حظر التجول.

لم أنتظر منها ردًا، دخلت غرفتي وتمددت في سريري بملابسي، تناولت منومًا قويًا، وكان آخر ما سمعته قبل دخولي في سبات عميق صراخًا مكتومًا منها، وربما كانت تبكي. صباح اليوم التالي أيقظتني قرب الساعة السادسة، بدت في حالة مُزرية ويبدو أنها لم تنم، قبل أن أفتح عيني الثانية قالت:

- في طباط قاعدين في الصالون وعاوزينك فورًا.

خرجت بملابسي التي نمت بها، ما إن شاهدني أحدهم حتى قال بلهجة صارمة:

- كويس أنك لابس وجاهز.. اتفضل معانا.

- اتفضل فين يا فندم؟

- حضرتك مطلوب للتحقيق في قضية اغتيال سيادة الرئيس.

خرجت بصحبتهم مفزوغًا خائفًا، وقبل تجاوزنا باب الشقة، رأيت جدتي تستند على ذراع زوجتي غير مصدقة ما سمعته، السادات لديه مكانة خاصة في قلبها

والوحيد الذي ساعدها وقت مصادرة أرضها، وعند خروجي لمحتهما في مشهد
أخير تبكيان في صمت.

الظل الثالث

باريس / فندق ماريوت / فبراير / 2015

باريس مدينة متفردة لا تسأل أحدًا من أين جاء، فقط تحفظ الوجوه كأرشيف تعود له وقت اللزوم، تدلك على أسرارها بسهولة وترشدك إلى الطريق، ثم تترك لتعتمد على ذاكرتك بعدها، رآها تشبهه عندما وصل إليها كعازف لأول مرة منذ بضع سنين، رغم أنه زارها قبلها مرات ومرات ولم يصادفه الشعور ذاته.

سار في شوارعها يحمل كمانه كلاجئ قلق، لا يطمئن إلا للشوارع والبيادين المأهولة بالناس، يتنفس الحرية بعيدًا عن الغرف الخائقة التي عاش فيها سنينًا طويلة، هاربًا من الوجوه المطرقة والأصوات المختنقة بالدموع، المدبوعة بالندم حسبما ظن في كل الأحوال، ظل يعزف كل يوم لحنًا في مكان مختلف حتى صار العالم كله يسمعه.

منذ عامين بدأت شهرته تنمو حتى بلغ القمة منفردًا في نهاية العام الماضي، بفضل شيء لا يعرف كيف يصفه، النقاد قالوا «عزفه يَظْطَرُّ شَجْنًا لا نعرف مصدره»، وقال آخرون: «كل نغمة تخرج من مقطوعاته كأن عمرها ألف عام»، وقبل أن ينقضي عامه الثالث في باريس، كان الفرنسيون يتسابقون لحجز مقعد في حفلاته، لم يصعد سلم شهرة، لكن الدَّجَّج تمدد حتى صار بساطًا مهمدًا سار عليه بخطوات واسعة إلى أن بلغ منتهاه في وقت قصير.

- الليموزين جاهزة مسيو سامي.

- إتأكد إن مفيش حد من الجمهور عند الباب، كفاية اللي جرى لنا من شهرين مع البنت المغربية.

- كله تمام مسيو سامي والبوليس عامل كردون بمسافة كبيرة.

عاد إلى جناحه بالفندق متأخرًا، الكمان لا يزال في يده، لم يفك قوسه منه ولم يضعه في جراب كَأَن الموسيقى لم تغادره بعد، كان يفضل وقت حفلاته الإقامة في فنادق، قبلها بيومين وبعدها بليلة، على عتبة الباب وجد ظرفًا آخرَ لونه بني فاتح، أشبه بالأظرف الحكومية؛ ظرف بلا طابع، بغير عنوان كأنه يعرف هدفه وحده، مدوّن عليه بذات الخط الدقيق الحاد في الزاوية جملة طويلة.. «أظنك عرفتني الآن.. سأتركك مع ذكرياتك مؤقتًا وبعدها لنا لقاء».

تردّد لحظة قبل أن يفتحه، تلفت حوله فلم يجد أحدًا، أنصت فلم يسمع دبيبًا، داهمته ذات الرجفة، فتح الظرف بحذر كالمرّة السابقة، وجد بداخله صورة مطوية، حين فَرَدَهَا رأى ما لم يتوقعه، صورة قديمة، باهتة، مأخوذة ولا شك من كاميرا مراقبة وأعيد معالجتها وتلوينها، تعود لأكثر من عشرين عامًا، يظهر فيها بملامح غير واضحة، تعرّف على نفسه من سترته الجلدية وكوفيته الصفراء المميزة، كان واقفًا في نهاية الممر الإسمنتي البارد، ظله ينعكس على جدار مائل، ظل أعوج لا يُريح، وفي أقصى الصورة يجلس الشاب، الذي كان بالمرشح، على الأرض، النظرة نفسها، العناد ذاته، وهناك ظل لشخص ثالث بالكاد يظهر، ينظر من بعيد بعينين ذاهلتين، لم يتعرّف عليه، ولم يفهم سبب تواجده في هذا المكان.

قلّب الصورة بكف مرتعشة، فقرأ على ظهرها بخط يد «أحيانًا تظهر الحقيقة بعدما ينتهي التحقيق».

دخل غرفته بقدمين ثقيلتين، لم يستطع الحركة فجلس على الأرض، ظهره للباب، والكمان إلى جواره كسلاح مُفَرَّغ من الذخيرة، الخوف والارتباك يحاصرانه، والسؤال يتردد بالصوت والصدى في رأسه عن الرجل الثالث في الصورة، شخص جديد لا يتذكره، لا بد أن هناك أكثر من واحد يراقبه، وليس ذلك الشاب الغاضب وحده.

سمع نقرأ على نافذة غرفته، اقترب بخطوات قط متأهب للانقضاض، ثم تنبه إلى أن سماء باريس بدأت تمطر خفيفاً فتنهد، راح يقلب الصورة بين يديه محاولاً فك شفرتها، كلما أعاد النظر زادت الحيرة، لا يعرف صاحب الظل الثالث الذي يبدو كصبي صغير، هل هو ابنه؟ أم مجرد شاهد صامت آخر نجا من بين يديه؟

راح يعتصر ذاكرته حتى آخر لقطة، الغرفة دائماً باردة، المقاعد بدون ظهر أو مساند ككراسي عازفي البيانو، والنوافذ مُسقَرة وربما غير موجودة، الصوت فقط هو الذي يُبقي الشخص يقظاً، ذلك الصوت الذي لا يُناديك باسمك، لكن يُعيد عليك اسم أمك، اسم حبيبتك الأولى، يتلو ذكرياتك على مسامعك كمن يقرأ من صحيفة ماضيك، يخبرك باسم ولدك الذي قد تفكر في إنجابه لو تزوجت.

«أنت لست هنا لأنني أكرهك... بل لأنك اخترت أن تُخفي الحقيقة، وأنا لا أحب الأسرار».

كان يبدأ الاستجواب بهذه العبارة في كل مرة، لديه دفتر صغير، لا يكتب فيه بيده مباشرة، يسجل بعينه أولاً، حين يومض الجفن الأيسر للمتهم، يسجل، حين يبتلع ريقه قبل أن يجيب، يسجل، وحين يصمت المعتقل طويلاً ويبتلع ريقه مرات متتالية، يعرف أنه اقترب. في إحدى الليالي، جاءه رجل، لا يهتز، لا ترتجف يداه، ولا يناديه بالباشا كما اعتاد، خاطبه بهدوء وثقة قائلاً «لن تحصل على أي شيء مني، حتى لو جعلتني أسمع صوتك بالسؤال ألف مرة»، ذلك الرجل هو ذاته الذي تذكره هذه الليلة، لا من الملامح ولا من طريقة الجلوس، ولا حتى بسبب حركات الجسد، بل من الصمت.

قفز فجأة من مكانه كمن هبط عليه الحل من السماء، أخرج من الحقيبة دفتره الصغير الذي يحتفظ به كبطاقة هوية، الآن حان وقت العودة له من جديد. فتحه ببطء، الخط كما هو أنيق بالحبر الأسود، دقيق ومنظم، كل صفحة تحمل اسماً ورمزاً، ربما اختزالاً لمصير، وتحت بعض الأسماء دُون عبارة قصيرة كمحفز

لذاكرته «اعترف بعد خمس جلسات»، أمام آخر كُتِبَ «ظل يكذب حتى فضحته عيناه»، وحين وصل إلى الصفحة الثالثة والعشرين، وجد اسمه ثلاثيًا مكتوبًا بالحبر الأحمر دون غيره، وتحت الاسم بخط صغير ملاحظة أسفلها بضعة خطوط «رفض كل شيء، لم ينكسر. لديه طفل».

بدأ قلبه يخفق، عاد إلى الصورة، دقق في زاويتها مرة أخرى وفي الخلفية، ظهرت بين الظلال يد صغيرة تمسك بباب الزنزانة، نذت منه آهة دهشة، رأى أمامه طفلًا بلا ملامح واضحة، كيف وصل إلى هناك؟ لا يتذكر أنه رآه، المكان بطبيعته لا يدخله الأطفال، أغمض عينيه وراح يتذكر ففشل، ثم خيل له أن الظل الثالث يكبر حتى صار رجلًا يصرخ في وجهه بغضب، صوته أقرب لحقيقة يتردد صداها بقوة في أذنيه، تذكر في اللحظة ذاتها مقولة مدرس الموسيقى الذي اكتشف موهبته وعلمه العزف «كلما أصابك الضيق اعزف لحناً». أمسك بالكمان وأحكم وضعه على كتفه، لكن أصابعه لا تزال ترتعش والنغمة تُولد مخنوقة كروحه، حاول مرات ومرات حتى شعر أن كل نغمة يعزفها تعيده خطوة نحو صوتٍ لم يعد يخصه، صوتٌ يضحك ضحكات قصيرة متتالية، وبالرغم من خفوتها، فقد كانت قادرة على أن تخيفه في كل مرة.

دورة المياه

السويس / منطقة عسكرية / نوفمبر / 1981

ربما لم تذق طعم النوم منذ القبض على حفيدها سامي عرفان، ترتعش يداها كلما أمسكت فنجان قهوتها، تجلس على طرف الأريكة في مكانه المعتاد تنتظر حضوره، تملأ فراغ غيابه بجسدها حتى يأتي ليضع قبلة على جبينها ويعتذر عن هذا الاختفاء المريب كل هذه الأيام، تبتسم وتبكي في آن وهي تتخيل نفسها عند ظهوره ترفع عكازها في وجهه دون أن تضربه، فقط تشير إلى ما تبقى من سلطتها، تقول في صمتها بينها وبين نفسها «إنك وإن كنت الآن مسؤولاً عن المراسم مع الرئيس السادات فستظل في عيني صبيًا للأبد»، ثم تفقد سيطرتها على مشاعرها، فتنسب دموعها صامتة وتدعو له.

على مسافة تزيد عن المئة كيلو متر من بيت جدته، كان سامي يتنفس بعمق، سمع صوت حشرة بصدرة، كعجوز وحيد يسعل في الليل، احتجزوه في غرفة خائفة منذ وصوله إلى مكان لا يعرفه بمنطقة أشبه بصحراء، لم يُقدّم له كوب ماء ولم يُدعَ إلى تحقيق، ولا حتى تكلم معه أحد كلمتين كما أفهموه.

بعد مرور أربع وعشرين ساعة فُتح الباب، ظهر رجل جهم الملامح، أشار لسامي كي يتبعه، فسار وراءه كالحالمةين بواحة وسط الصحراء، في الرواق الضيق كان الهواء مكتومًا، ومن بعيد وقف عسكري فارح الطول يحدّق فيه بغرابة كمن ينظر في مرآة مشروخة، ثم فُتح باب آخر، دخل منه سامي، أجلسوه على مقعد بلا مساند أو ظهر، في حين جلس الضابط الذي يحقق معه على كرسي خشبي وراء مكتب حديدي، دُون بعض الملاحظات في ورقة دون أن ينظر إليه، ثم باغته فجأة بالسؤال:

- كنت فين وقت الضرب يا سيد سامي؟

- دورة المياه.

- والسبب؟

- تعب مفاجئ.

- مين أمرك بصرف الحراسة الشخصية لسيادة الرئيس؟

- سيادة الرئيس نفسه.

ثم تتم بنبرة يأس غمرته فجأة «الله يرحمه».

- مين شاهد على روايتك؟

- معرفش، لكن الرئيس هو اللي طلب في المرتين إبعاد الحراسة، يمكن سيادة النائب سمعه وهو بيطلب مني.

سكت الضابط، فشعر سامي أن المحقق لا يصدقه حسبما بدا من أسئلته، التي تصاعدت وتيرتها وتنوعت صيغتها، ربما لتضييق حلقة الاتهام حول رقبته، كأنه من حرّض على قتل الرئيس والإشارة هي دخوله دورة المياه.

بعد بضع ساعات تلفت أعصابه حتى أعاد روايته منقوصة أحياناً وبإسهاب غير محمود في أحيان أخرى، مما فتح باب أسئلة أخرى كان في غنى عنها، فاتسعت مساحة الشك في أقواله. ضغط الضابط زراً فوق مكتبه، فعاد سامي للغرفة ذاتها التي كان فيها، بعدما تحفظوا على نظارته الطبية وساعته وسلسلته الذهبية، مع مرور الوقت فقد الزمن معناه، افترش الأرض لكي ينام، وبعد دقائق غفا من التعب، لكن لم تمر ساعة حتى وجد يداً غليظة تمتد وتعاونيه على النهوض للمثول أمام محقق آخر، سمع نفس الأسئلة بصيغة مختلفة ومفردات جديدة، ظلت إجاباته ثابتة هذه المرة، لكن في الجلسة الثالثة بدت مترددة، مفككة،

متهاولة؁ ومع الإجهاد وعدم النوم بدأ يقول ما لا يعرف؁ غلب استنتاجه على ما رآه؁ فهوى فى حفرة عميقة من الشكوك.

فى اليوم الرابع لم يُقدّم له طعام؁ فقط كوب صغير به قليل من ماء مُحلى بالسكر؁ ثم رفعوا الغصابة عن عينيه وأشعل أحدهم سيجارة أمامه؁ نفث دخانها بالقرب من وجهه ثم أطفأها فى منفضة بعيدة؁ لم يتكلم معه هذه المرة؁ لم يُطرح عليه سؤال جديد؁ مجرد نظرات طويلة باردة؁ ومزيد من الصمت. فى اليوم الخامس أطعموه وجبة تكفى قظا صغيرًا؁ طلب سيجارة فلم يستجب أحد؁ أفلت منه الوقت حتى حار فى عدد الأيام التى قضاها بالفرقة؁ أربعة أم خمسة؟ لم يأتِه النوم إلا متقطعًا لساعة أو ساعتين على الأكثر؁ كانوا يوقظونه بسكب الماء على وجهه؁ لم يُسمح له بالاستلقاء طويلاً؁ فاضطر للنوم جالسًا؁ وكلما أغلق عينيه صفّق أحدهم قرب أذنيه؁ جلس على الأرض تعلو رأسه صورة للنائب حسنى مبارك بنظرة مفعمة بالحيوية والحماس؁ فأدرك أنه حلف اليمين وتولى منصبه رسميًا.

فى نهاية اليوم السادس بدأ يهلوس؁ حُيل له أن قطرات ماء تتساقط من السقف؁ فتح فمه لكن لا شيء دخله؁ الضوء فوق رأسه لا ينطفئ من مصباح أصفر خافت؁ بات لا يعرف ليلًا من نهار؁ تارة يبكي وتارة يضحك أو يهذى بكلمات غير مترابطة؁ ثم بدأ يتكلم مع جدته كأنها محبوسة معه؁ وبعدها راح يناجى دينا يعقوب.

تركوه بعدها ثلاثين يومًا بغير استجواب؁ وقبل التحام عقربي الساعة لإعلان انتصاف ليل جديد؁ دخل زنزانته رجل أشيب؁ ملامحه هادئة؁ يرتدى بدلة كحلية أنيقة؁ قال له بهدوء:

- معلى يا سامى بيه الإجراءات عندنا صعبة شوية؁ بس أنت أكيد مقدر الظرف اللى البلد فيه.

قبل أن يردّ، دقّ جرس هاتف في الغرفة، ولما رفع الرجل الأنيق السماعه اعتدل بوقفته كعسكري عتيد، وراح يردد بصوت عالٍ كلمتين لا ثالث لهما:
- تمام سيادتك.

وضع السماعه بعد ما تأكد بعناية من إغلاق المتحدث معه للخط، ثم ابتسم لسامي ابتسامة صفراء باهتة وصافحه بود كصديق قديم قائلاً:
- شرفتنا يا سامي بيه تقدر تتفضل، وآسفين على تعبك، التحقيق خلص خلاص.

- هو أنا متهم؟!

- إحنا تأكدنا من سلامة موقفك وتم حفظ التحقيق.

- تهمتي كانت إيه؟

- مع السلامة.

- عندي سؤال أخير يا فندم العساكر اللي ضربت سيادة الرئيس جابت إبر ضرب النار والذخيرة الحية منين؟
- شرفتنا يا سامي بيه.

خرج منها كمن كان يصارع ثورًا بغير رماح، كلاهما مهزوم، مات الثور منها كمن بينما نzf هو كبرياءه كله، رابطة عنقه مفكوكة وقميصه تحرر من بنطلونه بجزء لا يستهان به وتدلّى فوق فخذه، قدماه أثقل من رأسه وعقله متيبس كأطرافه. على باب المبنى وجد عربة مخصصة لنقله إلى أي مكان يُريد، ألقي بنفسه فيها وأغمض عينيه فنام حتى وصل إلى بيت جدته، ومن يومها فهم أن رنين الهاتف أعلى من صوت الحقيقة، وأن مكالمة قصيرة يمكنها إيقاف أي شيء مهما كان كبيرًا في مصر، وتحويل مساره في أي وقت إلى الجهة التي يُريدها المتحدث،

وكلما غَلَّتْ مكانته تجاوزت قدراته طموحات الخيال.

سفير موزمبيق بالقاهرة

القاهرة/ قصر الاتحادية/ مارس / 1987

ظل مبارك يردد عبارة «الكفن مالوش جيوب» طوال سنوات فترته الأولى كأسطوانة مسجلة، يذكرها في خطابه الرسمية، وفي تصريحاته للصحفيين وفي جلساته مع المقربين ، وأمامنا دون مناسبة، ربما قصد درء شبهة فساد عن نفسه، تاركاً غيره على وضعهم الذي ورثهم به، أعجبت الجملة جدتي وظلت ترددها بدورها من دون سبب مفهوم لي.

مع مرور السنة الثالثة تبخرت صورة البقرة التي تضحك كما كانوا يتندرون عليه، صُحَّت توقعاتي هذه المرة، الرجل لم يكن سهل المراس، ولا يمكن توقع رد فعله، يحتاج إلى كثير من الوقت قبل أن يتخذ قراراً، أو حتى يجيب على سؤال لا يرتاح لسأله، ومع ذلك ظل كل من حوله يتعاملون معه على أنه رئيس مؤقت لمرحلة انتقالية، بينما الرئيس الذي سوف يحكم مصر لسنوات قادمة لم يأت بعد، ربما اليوم أدركوا أنه باقٍ، لا لبضع سنوات قادمة بل ربما لعقود.

- السيد رئيس الجمهورية.

أطلقت الصيحة ثم أفسحت له الطريق ووضعت أمامه نص الكلمة التي سيقراً منها على الصحفيين والمراسلين الأجانب، نُحِث المصورين إلى أقصى اليمين ووقفنا على يسار الرئيس كما يفضل، كعادته قرأ بضع سطور ثم ارتجل، وعندما سأله صحفي سؤالاً سخيلاً من خارج النص عما إذا كان لديه عصا سحرية لإصلاح الوضع الاقتصادي، ابتسم مبارك بسخرية، وقال للصحفي:

- شوف لو علاقتنا فضلت مقطوعة مع العالم العربي ودول أوروبا كان يصعب أوي الإصلاح الاقتصادي، عشان كذا أنا بسافر وبروح ومش بنام، عشان

أعزز العلاقات معاهم، لكن طبعا مع احتفاظنا بكرامتنا ومبادئنا، وعشان كذا
بيساعدونا، وإلا بقى يقولك دا راجل معهوش فلوس وجاي يشحت، خلوه بقى
يرهن كذا ويبيع كذا، وأبقى مضطر أبيع حاجة كل ما اتزنق، لغاية ما نرجع ثاني
100 سنة لورا، ويمسكونا من رقبتنا زي أيام الخديوي إسماعيل. موش كذا ولا
إيه؟

علا التصفيق في القاعة وامتد لدقيقة تقريبا، فاكتمى الرئيس مبارك بهذا القدر،
كان يفضل تلك النهايات الدرامية السعيدة ليغادر بعدها مصحوبا بالدعاء.

قرب باب السيارة ابتسم لي وسألني إذا كنت جاهزا، فهمت أنه قرر لعب
الإسكواش فهزئت رأسي بالإيجاب وأنا أبتسم بالرغم من خسارتي المتوقعة. منذ
أعادني مبارك للعمل في المراسم وأنا في الصف الأول طوال الوقت، كنت قد
تهيأت للاستقالة بعد التحقيق معي عقب اغتيال السادات، إذ كسرني الاستجواب
وترك شرخا عميقا في روحي، أردت التفرغ للعزف على الكمان لكن مبارك رفض
بشدة، واصفا الموسيقى بكلام فارغ وشغل أراجوزات، وكالعادة لم أجادل وقبلت
العودة ولم أقل لا.

بعد مرور سنوات قليلة اكتشفت أن مبارك يتلذذ بمتابعة الحيرة وتقصي
الدهشة على وجوه المتعاملين معه في كل مرة، يحب مفاجأة الوزراء بمكالمة
هاتفية مباشرة في الصباح الباكر، يسأل عن أمر ما سمعه بالصدفة من ضيف
أو صديق خارج مؤسسة الرئاسة، أو ربما قرأه في صحيفة أو مجلة من التي
يحرص على متابعتها، وكلما تعثر الوزير في الإجابة أو أخطأ في الرد كان مبارك
يزداد شغفا باللعبة، ويحكيها على الملأ متعمدا إخراج الوزير في كل مرة يلتقيه
فيها.

لم أنم منذ يومين سوى ساعات متفرقات على أريكة مكتبي، منذ قليل

أنهى الرئيس حديثًا صحفيًا مع مندوب إذاعة الـ BBC حول تمرد قوات الأمن المركزي، تحدث بثقة عن سيطرة القوات المسلحة على الوضع في ساعات قليلة، ووصف ما حدث بأنه لم يكن تمردًا، وإنما هي حرب إشاعات تمارسها المعارضة، وأسهب في شرح قدرتها على تخريب الدول من خلال الأخبار الكاذبة، لكن الصحفي الإنجليزي باغته بسؤال غير مكتوب عن احتمالية تمرد القوات المسلحة عليه بعد إحساسها بالقدرة على الإمساك بزمام الأمور، وأن تأخر نزولها للشارع بعد تمرد قوات الأمن المركزي بدا أمرًا متعمدًا للإطاحة بوزير الداخلية.

انتاب مبارك تردد بسيط حاول التغلب عليه بنصف ابتسامة مستنكرة للسؤال وهو يقول:

- زمن الانقلابات العسكرية انتهى للأبد ومستحيل يحصل ثاني، نظرية المؤامرة ثبت فشلها، والنهارة عندنا تداول سلمي للسلطة في مصر، واللي ما يشوفش من الغربال يبقى أعمى.

أجاب بعصبية، ووضح من تغيير وضعية جلوسه زيادة رغبته في إنهاء الحوار، تدخلت على الفور منتهزًا ارتباك المترجم في شرح المثل الذي قاله مبارك بالعامية، ونظرت للصحفي رافعًا حاجبي الأيسر، فنهض وانتهى اللقاء بمصافحة باردة من الرئيس للصحفي البريطاني. في ذلك اليوم ارتبكت المواعيد بسبب تعيين وزير داخلية جديد، وبعد خروج اللواء زكي بدر، عقب حلف اليمين الدستورية، طلب الرئيس هلة ليستريح، فأجلت دخول رئيس تحرير الصحيفة القومية، يرغب مبارك أحيانًا بين موعدين في تدخين السيجار الذي اعتاده يوميًا، وفي الوقت ذاته كان يُحيط أمر التدخين بسرية مبالغ فيها كأنه من الأسرار العسكرية، ولأنني صرت قريبًا منه بعد مكالمة الإفراج عني من النيابة العسكرية، ثم ترقيتي لأمين ممتاز في مراسم الرئاسة، لم أجد حرجًا في إبداء ملاحظات كلما كان مزاجه رائقًا، فكان مما اقترحته عليه أن يدخن سيجاره أمام الصحفيين بعيدًا عن المصورين.

ضحك يومها وقال:

- إنت أصلك ابن ناس، الجماعة دول يموتوا في النميمة والحكايات، ولو الخبر إتعرف تلاقي كل الإنجازات اللي بنحاول نعملها محدش يجيب سيرتها ويمسكوا في سيجار الرئيس، يا راجل بلا خوتة.. كبر مخك.

طال لقاء الرئيس مع رئيس التحرير وتجاوز مواعده المقرر، كأن الصحفي أراد تعويض ما فاتته، دخلت مرتين منبهاً الرئيس بإشارة من عيني كما اعتدت، في المزة الأولى لم يعطيني أي انطباع، وظلت ملامحه بليدة، ففهمت أنه لا يريد إنهاء اللقاء، وفي الثانية ابتسم بلا معنى، وعندما استدرت خارجاً سألتني عن موعد وصول سفير دولة موزمبيق، فكادت الضحكة تفلت مني، لكنني أظهرت بعض الجدية وأجبتته:

- موجود في الاستراحة يا فندم.

ظل السفير الموزمبقي كلمة السريبيني وبين الرئيس مبارك كلما أراد إنهاء لقاء مع ضيف ثقيل دون التسبب في إحراج، وبعد عشرات المرات التي استخدمنا فيها هذا السفير الوهمي الذي لم يلتق بالرئيس أبداً، اقترحت عليه مازحاً تغييرها بسفير دولة أكبر وأثقل سياسياً حتى نعطي انطباعاً للضيف بأهمية الوقت، لكن الرئيس ربت كتفي وهو يقول:

- مش قلت لك إنت ابن ناس، أنا قاصد كدا علشان الضيف يعرف أن كلامه كله مجرد كلام فارغ، وأن حتى سفير موزمبيق أهم منه.

دق جرس هاتف مكتبي بالحاح، أبلغني الأمن أن السفير الفرنسي وصل قبل مواعده للقاء الرئيس بربع الساعة، لكنه يريد الدخول فوراً لأمر هام، تهيأت لاصطحابه وإدخاله مباشرة، فزيارتنا إلى باريس بعد أيام قليلة واللقاء يهم

مبارك أكثر من رئيس الحكومة الذي لا يزال بالداخل، ومع أنه لم يتجاوز الوقت المخصص له، إلا أنني دخلت وأبلغت الرئيس بقدوم السفير الفرنسي، فقام مصافحاً رئيس الوزراء وغادر المكتب إلى دورة المياه الملحقة به، وخرجت أنا لكي ألتقي المترجم وأنبه عليه بعدم مقاطعة مبارك مهما استرسل، مع ضرورة تدوين العبارات المترجمة لكي نعود لها إذا ما حدث لبس في فهم المعنى، ولزوم الأرضة في كل الأحوال.

عندما فتحت باب استراحة كبار الزوار، ووقف السفير الفرنسي ليصافحني، شعرت أن الأرض تميد بي وكدت أفقد توازني، وجدت أمامي آخر من أتوقع لقاءه مرة ثانية وهنا في قصر الرئاسة، كانت دينا يعقوب جالسة بجوار السفير تراجع أوراقاً.. ترتدي فستاناً بلون البحر الرائق، قصيراً يكشف بعضاً من ساقها، مساحة كافية لتأكيد أنها لا تزال تحتفظ برشاقتها وأنوئتها كابنة عشرين ربيعاً، ولم تؤثر في ملامحها ونضارة وجهها السنوات التي مضت.

تحركت بصورة آلية، أدخلت سفير فرنسا للقاء الرئيس بعد دقيقتين، من بعده دخلت دينا يعقوب مشدوهة تتلفت حولها، لم أشر لها إلى مكان جلوسها ولم أقل لها حرفاً، اكتفيت بمصافحة رسمية وتركت هي راحتها في يدي برهة، طالت حتى مَسَّت قلبي، تمنيت أن تغادر وتجلس معي بمكتبي، أو نخرج إلى حديقة القصر ونتحدث حتى مطلع الفجر.

انسحبت بعد تقديمي السفير، ناطقاً اسم دينا بفخر كأنها زوجتي، دون إشارة تفيد أنها المترجمة، ويبدو أن مبارك فهم وظيفتها من تلقاء نفسه فلم يعلق.

لأول مرة غادرت الحجرة بظهري وعياني لا تفارق عينيها، شعرت أنهما تقولان كلاماً كثيراً، ربما تعاتبني وتلومني، لكنه عتاب المحبين ولوم العاشقين، اللذين مهما أبعدهما القدر يعودان روحاً واحدة في جسد إذا ما التقيا مرة ثانية.

ذنوب نائمة

باريس / سان لازار / مارس / 2015

ألقي بجسده المنهك على الفراش، لكن النوم رفض زيارته، كلما أغمض عينيه يرى نفسه واقفاً خلف مكتب حديدي، يحذق في رجل معصوب العينين، يرتجف تحت ضوء أصفر باهت، فجأة سمع طرقات على بابه... ثلاث دقائق خافتة، مترددة، كأنها ظرقت بالخطأ، انتفض واقترب، نظر من العين السحرية، لمح ظلاً ينسحب بسرعة، فتح الباب ببطء، والسلسلة الحديدية تتأرجح كنبضه، وجد أمامه «كماناً» مكسور الرقبة، يتدلى منه شريط أحمر بلا رسالة هذه المرة، ف شعر أن المجهول يسخر منه ويستخف به.

بدأ الشك ينهش رأسه حتى فاضت منها الأسئلة بلا جواب، هل هو الذي يطارده؟ وكيف تعرّف عليه وهو الذي لم يره من قبل؟ ابتلع حبات منومة كمن يبلغ ذنوبه، ثم دفن وجهه تحت الوسادة، يختبئ خائفاً من اليقظة حتى جرفه النوم، لكن ما وجدته في منامه كان أسوأ، رأى نفسه يعزف فوق خشبة مسرح، والقوس في يده يقطر دمًا كلما لامس الأوتار، وعندما انحنى لتحية جمهوره رأى الصف الأول ممتلئاً برجال معصوبي العينين، لكن وجوههم مألوفة، يعرفهم ويعلم أنهم يعرفونه.

استفاق صارخاً، وجد جسده مبتلاً من العرق، وعلى صدره يرقد الكمان المكسور، كأنه زحف إليه في الفراش ككلبه المطيع، هرع إلى النافذة، فتحها ليتنفس، وهناك، في شرفة مقابلة رأى رجلاً يجلس في العتمة، لا يتحرك، شك في أنه يراقبه بعدما لمح منظراً مكبراً موضوعاً على طاولة قريبة منه لكنه لا يمسك به، لمح سيجارة تتوهج وتنطفئ بين شفتيه، تجفد في مكانه حتى نهض

الرجل واختفى بعدما أطفأ نور غرفته. رفع السماعة واتصل بمدير أعماله زاعقًا:

- احجز أول طائرة للندن من غير ما تتفق على حفلات هناك.

صوته كان حاسمًا لكن قلبه يشك بكل شيء، أغلق الخط، لم يقوَ على الحركة لكنه قاوم، ارتدى معطفًا ثقيلًا وغادر كفأريفر من مصيدة، قاداته خطواته بلا وعي إلى محطة مترو سان لازار، هناك سمع عزف كمان، مقطوعة موسيقية قديمة من أعماله، اقترب، وجد صبيًا لا يزيد عن الثالثة عشرة، يعزفها بدقة، بسهولة تعزف عليه الصبي وحيّاه، ثم طلب التقاط صورة معه، لكن سامي رفض وسأله بحدة: من علمك عزف هذه المقطوعة؟ أجابه الصبي ببراءة: رجل غريب، قال إنه يعرفك من زمن بعيد ثم مشى من هنا. أشار الصبي إلى زقاق ضيق، هرول سامي، ثم تحولت الهرولة إلى الركض، ثم إلى جري أعمى بلا هدف، قطع الزقاق جريًا مرتين فوجده خاليًا من المارة، والنوافذ كلها مُسمّرة كنوافذ المبنى الذي كان يعمل به، حتى لون الواجهات ومعمارها متطابق تمامًا، في نهاية الزقاق اكتشف أنه مسدود، جدار عالٍ مكتوب عليه بالفحم وبخط عريض بالفرنسية.. «لن تفلت مني مهما حاولت».

عاد أدراجه، فلم يجد الصبي، لكن العزف ما زال يتردد كصدى، كأن المدينة كلها تعزف، ضاقت باريس فجأة وتحولت إلى قفص، الشوارع تلتف كأفعى والناس في المقاهي تتهامس لرؤيته، والنوافذ تُغلق عند مروره، كل شيء داخله يرتجف وكل ما حوله يختلف، يداه، صوته، حتى النوتة التي اعتاد أن يجد فيها خلاصه، صارت في خياله كأوامر استدعاء للتحقيق كي يفتشوا في ماضيه، تداخلت الأمور وتشوّشت الصور، باتت كلها خيالات وأوهامًا في رأسه، هل ما يحدث خارجه أم في داخله؟ وفي ذروة التيه سمع صفير مكابح، ثم ارتطام، ساد ظلام بعض الوقت ثم أبصر، راح يتفحص جسده مذعورًا، لم يُدهَس، لم يُصَب، فقط كابوس آخر، لكنه كان واقعياً حدّ الفزع.

هدأ قليلاً بعدما تجرع بعض الماء ليستريح من كابوسه، ثم لمح رسالة مُرّرت من أسفل الباب، التقطها فوجدها من مدير أعماله، يُذكره بمقابلة مهمة مع التلفزيون الفرنسي لا تقبل التأجيل، المقابل مدفوع مقدّمًا، والشرط الجزائي مُوجع، عَض على شفّتيه غيظًا، ضرب الحائط بقبضة يده في ضيق، الرسالة لا تعني سوى تأخير سفره بضعة أيام أخرى وأعصابه لم تعد تتحمل المزيد. صبّ كأسًا من الويسكي وتجرعه بسرعة، ثم صبّ آخر وبدأ يرتشف باستمتاع، حدث نفسه بصوتٍ خفيض كأنه على وشك البدء في اعتراف بجريمة، وضع الكمان بين ركبتيه كما يضع المحكوم عليه بالإعدام رأسه على المقصلة، راودته فكرة الاعتراف من خلال كتابة مذكراته، أو الظهور في برنامج شهير، حلقات متتالية بعنوان «الآن أتكلم» وفي النهاية لا يقول إلا ما يريد قوله، فلا أحد يعرف وقائع ما جرى.

نهض مترنحًا بكأسه الرابعة، رمق المرأة بنظرة متحدية، ثم صاح بصوت غليظ «لن أعترف إلا أمام قاضٍ، لن أعطيك الفرصة أبدًا ولن تنال مني، وحتى لو اعترفت أمام الناس، كلهم سيدافعون عني ويلتمسون لي ألف عذر».

شعر براحة غريبة تسري ببدنه بعدما قالها، حاول أن يستدعي لحناً بذاكرته لكنه لم يسمع سوى أصداء الصمت، أخفى أذنيه بكفيه وظل يصرخ حدّ البكاء.

- التسجيل بكرة مسيو سامي، تحب يكون هنا والا عندهم في الاستديو؟

قالها مدير أعماله وهو ينتظر الرد، أشاح سامي بيسراه كمايسترو غاضب من نشاز عازف، طلب منه الاعتذار عن تسجيل الحلقة مع القناة الفرنسية الثانية متقبلًا دفع الشرط الجزائي الضخم، مع ذلك لم تحمله قدماه إلى المطار لركوب الطائرة والسفر بعيدًا عن باريس، ظل يرى في منامه كل ليلة وجوهًا بلا أعين، تنظر إليه من قريب، وحين ينهض يشعر أن أحدهم مرّ من هنا، كأن ظلًا عبر فوق عتبة روحه ثم تبخر.

استدعى مدير أعماله طبيبًا، شُخص الحالة بإجهاد وقرر أنه يحتاج إلى راحة، اقترح المدير رحلة لجزيرة بعيدة طقسها مُشمس وبها شاطئ خاص للاستجمام، هُز سامي رأسه في ضيق، لا يعرف كيف يشرح أن راحته ستأتي حين يقول كل شيء، لكن من يستمع له ومن يُصدّقه؟ وفي أي دور عبادة يمكن أن يُغفّر لمثله؟ هو لم يعذب الرجل الذي يطارده، بالرغم من أنه كان يستحق القتل ألف مرة.

لا يفهم مدير الأعمال تلك النظرة الصامتة بعيني سامي مع أنها تبوح بالسر، زاد قلق المدير، عاد معه إلى شقته بقلب باريس، وأقام معه فيها حتى لا يؤذي نفسه، تنفيذًا لتعليمات الطبيب، لكن في إحدى الليالي غافل سامي مدير أعماله وخرج إلى الشارع حافيًا، كان المطر خفيفًا والبرد يمزق أصابعه، وقف على حافة المترو بمحطة سان لازار التي تطارده في منامه كل ليلة، نظر طويلًا إلى القضبان، دارت في ذهنه فكرة بائسة كحاله، لا عن الانتحار فقط بل رغبة في التبخر من الدنيا، أن يُمحى من الذاكرة، تدهسه عجلات القطار تحتها وتحوله إلى أشلاء متناثرة، جثة مجهولة الهوية لا يتعرّف عليها أحد، وبعدها يتوقف الشبح عن تتبعه. اختمرت الفكرة في رأسه بسرعة فعبر نهر الطريق وتمدّد على ظهره بين القضبان وأغمض عينيه، بينما ظل جسده يرتجف كمن ينتظر حكمًا بالإعدام آتيًا لا محالة، ومن بعيد كان الرجل الصامت الذي يزوره بالمسرح يراقب حركته باهتمام، وربما كان ينتظر تلك اللحظة التي خطط لها، لكن أيضًا كان هناك آخرون يراقبون.

ترجمة فورية

القاهرة/ فندق هيلتون/ ديسمبر/ 1987

كلفت مساعدي بتولي ترتيبات استقبالات الرئيس المسائية، بعدما تبين لي عدم أهمية مناصب الزائرين، من حسن حظي أن مبارك تفرغ منذ قليل لممارسة رياضة الإسكواش، فخرجت معه كي أوصله إلى دار القوات الجوية، كنت أَلعب معه بانتظام بعدما ارتاح لطريقة لعبي وحفظها، كنت أترك النقاط تناسب لصالحه بسهولة، كأن مضرب الكرة الخاص بي صنبور معطوب، لكن منذ شهرين أصبت بتورم خفيف بالركبة، أصرّ مبارك على أن أباشر تمارين العلاج الطبيعي قبل عودتي للعب معه، ومن يومها أثّوا له بلاعب دولي معتزل ونبهوا عليه بعدم إرهاق الرئيس في أشواط طويلة، أو إرسال كرات صعبة أثناء اللعب، ارتبك اللاعب قليلاً، ولكي أحفظ ماء الوجه أخبرته، ونحن في طريقنا إلى الملعب لأول مرة، أن الرئيس يعاني من آلام خفيفة وتورم بسيط بركبته ويتلقى جلسات علاج طبيعي، فhez رأسه وابتسم.

عدت لمكتبي وأدرت أرقام التليفونات التي تركتها دينا بالرئاسة للرجوع إليها وقت الحاجة، فاجأني صوت خشن ذكّرني لوهلة بالمثل علي الشريف، أجايني ببرود أن «المدام» سافرت في إجازة ليومين، طوال الفترة الماضية كنت أتابع دينا عن بُعد لأتأكد أنها لم ترتبط بأحد غيري فلطمّنتني كلمة «المدام» حتى كدت أترنح، مع ذلك تماسكت محاولاً معرفة وجهة سفرها منه، تغيرت نبرته وتحول لمحقق شرس، ما اضطرني لإشهار سلاح وظيفتي حتى تراجع وصار أليقاً، أبلغته أن رئاسة الجمهورية تريدها فوزاً، ردد الكلمات ورائي بصوت عالٍ كمن يُسمع أحداً بجواره، ثم وجدت صوتها العذب يخترق أذني:

- أهلاً سامي.

ملأتني المفاجأة ضيقاً لم أستطع إخفاءه، فسألتها بعصبية:

- مين البغل اللي رد على التليفون؟

أفلتت منها ضحكة رائقة ثم أجابت بالفرنسية:

- بعدين أفهمك كل حاجة لأنه ممكن يسميني.. فاضي إمتى نتقابل؟

بالرغم من عدم ارتياحي لردّها، غلبني الشوق فقلت:

- أنا فاضي من دلوقتي لغاية آخر العمر.

اتفقنا على اللقاء في مكاننا المعتاد.. كافيتريا فندق النيل هيلتون، على الرغم من أنها صارت تكرهها بعد إقامة حفل زواجي بالفندق ذاته، ذهبت قبل الموعد بربع ساعة لأنتقي مكاناً بعيداً عن الآذان والأعين، هنا أمضينا أحلى أوقاتنا، هنا خرجت مشاعرنا على جناح كلمات الحب تظللها مودة لم تنقشع رغم كل التقلبات التي مرّت بنا. المكان لم يتغير مثل أماكن كثيرة بالقاهرة صارت ذكريات مؤخراً، الجرسون لا يزال بقفطانه الأبيض، يحيط بخصره الحزام الأحمر القاني وهو نفس لون الطربوش الذي يغطي رأسه، من بعيد لمحت كبائن حمام السباحة التي كنا نذهب إليها كل أربعاء بعيداً عن العيون، الأشجار لا تزال مورقة بخضرة ناضرة لم تظّلها يذ الانفتاح التي لطعت الإسمنت في كل مكان بالقاهرة، حتى السفرجي، عم آدم العجون، لا يزال موجوداً، هو أحد شهود العيان على قصة حبي لدينا يعقوب، انحنى ظهره لكن ابتسامته الودود لم تنكسر وهو يضع القهوة وعصير الليمون أمامنا، كأن الصورة ثبتت على الماضي الجميل، وصار المسرح مهيئاً لصعودنا عليه مرة ثانية للعب دور البطولة، لكن هذه المرة سنكتب نهاية سعيدة قبل أن ينسدل الستار.

اخترت طاولة متطرفة تحتضن النيل، وما إن جلست حتى هلت دينا من بعيد،

أول ما لمحتها عيناى تسمرت مكاني، اقتريت فلم أستطع منع نفسي، نهضت واحتضنتها غير عابئ بالعيون التي تعرّفت عليّ عند دخولي، أفرغت كل ما في قلبي وهي بين ذراعي وشعرت بدفئها فاطمأنت، ثم جلست أستمع لحكايتها الحزينة.. تزوجت من رجل أعمال، وعلى حسب تفسيرها الذي قبلته منها على مضض، أنها اضطرت للزواج كي تتجاوز فترة سوداء في حياتها لا تريد تذكرها بعدما تخلّيت عنها، اكتشفت بعد زواجها أنها لا تحب أحداً غيري، ووجدت أن هذا الثري الجديد لا يناسبها، كان لا يزال متزوجاً من أخرى قبلها ولم يطلقها كما طلبت منه، تجارته محصورة في السلع التافهة بعد الانفتاح حتى صار مليونيراً في أقل من عامين، بعدها صارت الملايين تلد بعضها البعض دون أدنى مجهود، تسر وراء أكاذيب تزيينها نقود بلا حساب حجبت عنها رؤية الحقيقة إلى حين، ربما لم تكن تريد رؤيتها فتظاهرت بالعمى المؤقت، وعندما كرهت العتمة التي تعيش فيها قررت كتابة كلمة النهاية، طلبت الطلاق فوافق.

أشعلت سيجارة وسألتها متشككاً:

- أومال كان بيعمل إيه في بيتك؟

- إحنا منفصلين من شهور وأصلاً مكنش قاعد معايا طول الوقت، لكن فاضل تسوية شوية أمور مالية.

أبديت عدم ارتياح لجوابها، فوضعت كفها فوق ظهر يدي وقالت مبتسمة:

- بلاش تفكر في حاجة فانت، أنا أصلاً مضايقة من نفسي إني عملت كدا، بس أنت عارف.

- عارف إيه؟

- عارف إني مجنونة وممكن أعمل أي حاجة لو أنت بعدت عني.

- تقومي تتجوزي يا دينا؟

علا صوتها بحدة وهي تقول:

- أنت عارف كام مرة بعدت فيها عني وأنا كل مرة برجع لك زي الكلبة؟ تحب أفكرك.. لما خطبت مراتك بعدت عني، ولما زهقت من الخطوبة رجعت لي، ولما اتجوزت مراتك بعدت عني ثاني، ولما خلص شهر العسل رجعت لي، ولما الهانم جدتك عرفت بعلاقتنا بعدت عني لتالت مرة من غير ما تتكلم معايا، ولما شفتني صدفة في السينما مع قريبي افكرت إنني عرفت عليك حد فرجعتلي، وفضلت تراقبني وتسال عني نادية الزيني صاحبتني، ولما تأكدت إن مفيش حد غيرك في حياتي بعدت عني لرايع مرة.

- دا كله مش مبرر أنك تتجوزي يا دينا.

- أنا حكيت لك حكايتي، وافكرت إنني عمري ما عاتبتك لما أنت بعدت عني فجأة في كل مرة وقررت تتجوز، لكن أنت سألت وأنا جاوبت، يمكن أكون غلطانة في حق نفسي، يمكن تسرعت لأنني مجنونة بيك، لكن في الآخر أنا معاك أهو لمرة ثانية أو خامسة، فأرجوك بلاش تضيعها.. أنا محتاجة لك حقيقي أكثر من أي وقت فات.

هدأث قليلاً وابتسمت لها، التمسست لها بعض العذر، أعرف أن عقلي صار معها مثل بندول يتأرجح بلا نهاية، يذهب في الاتجاهين بنفس القوة، لكنه لا يجرو على التوقف طويلاً في أيهما.

استعادت دينا حماسها القديم فجأة وصاحت كطفلة:

- إنت بقى عملت إيه يا أستاذ في حياتك؟ اتجوزت مين؟ أعرفها؟ طب خلفت؟ ولد ولا بنت؟ جدتك لسه عايشة؟ وياترى لسه بتكرهني؟ مبسوط مع مراتك والا زي أيام الخطوبة؟ وإزاي وصلت للشغلانة بتاعة الرياسة مع إنك بتاع مزيك وحاجات رومانسية بعيد عن التكتيفة الرسمي دي؟ طيب قولي بقى لسه بتعزف على الكمان؟ إوعى تقول لا، كل نغمة لسه بترن في ودني، أنا لما شوفتك

في التليفزيون جنب الرئيس مكنتش مصدقة، كنت بتنطط من الفرحة، وكنت طائرة بقى لما عرفت إنني ممكن أشوفك وقت مقابلة سفير فرنسا، والله كنت بدعي رينا طول السكة نتقابل، حتى السفير الفرنسي ضحك، افكرني بقول تعاويذ عشان حسني مبارك يوافق على قرض مشروع المترو.

ارتشفت دينا من عصير الليمون، ثم واصلت إطلاق الأسئلة في وجهي دون انتظار الجواب كعادتها:

- أنت مسافر باريس مع الرئيس؟ أصل أنا ممكن أكون هناك برضه في نفس الوقت.

قالتها وابتسمت حتى احمرت وجنتاها، في هذا اليوم كانت كل إجاباتي عن أسئلة دينا تؤدي إلى زواجنا بمجرد طلاقها رسميًا، عشت لأيام معها كأننا نعيد تشكيل الزمن على هوانا، لم تتوقف مكالماتنا حتى مطلع الفجر، وفي الصباح استدعيته للرئاسة بحجة مراجعة جوازات السفر وتفاصيل المهمة الخاصة بالترجمة الفورية، وضعتُ عراقيلَ أمام المترجم المعاون كي أُؤخر سفره، وطلبت مزيدًا من الموافقات الأمنية لكي يتعطل تمامًا، أعرف أن الجمل سيكون ثقيلًا على دينا، لكنني لم أرد أن تقع عيني على أحد سواها في باريس.

ثلاث ملكات من ورق

القاهرة/ نادي الجزيرة/ يناير/ 1988

كل ما في البيت يلمع كما لو كان يتهياً لزائر لا يأتي أبداً، جدران بلا ذاكرة حديثة، أرائك عتيقة ولوحات تغطي الحوائط كلها، وستائر ثقيلة تحجب النهار، كل شيء مرتب إلى حد مريب، فتصبح كل خطوة يخطوها سامي بحساب، كأنه يعيش داخل صالة عرض للأنتيكات.

تتحرك زوجته بين الغرف بخطوات مدروسة وجسد متخشب، مثل عارضة أزياء تحفظ خطواتها على منصة ضيقة، لا تترك الهاتف منذ دخولها البيت حتى نومها، تتحدث عن مواسم التخفيضات، عن صديقاتها في مقاهي الفنادق وأروقة النوادي، عن خطط السفر والوجهات الصيفية في أوروبا، عن حكايات نائمة تلوك سيرة صديقات يتبدلن كل حين كأوراق اللعب، أما هو فيجلس صامثاً أغلب الوقت القليل الذي يمضيه بالبيت، يترك الكلمات تمر من جواره مثل قطار لا يريد ركوبه، كل شيء تفعله زوجته يذكره بأن عائلة أبيها لم تصنع اسمها المدوي إلا من أصفار متراكمة بأرصدة البنوك ولا شيء آخر.

تلمح جدته شروده فتقترب منه، تضع يدها على كتفه وتكلمه بصوت يقطر حناناً، تعرف أن دينا عادت تدور برأسه، تراها كأنها تفحص قلبه تحت جهاز الأشعة، تضاعف المصروف الذي تمنحه له، وتغريه بسفيرة جديدة لأوروبا مع زوجته في الإجازة، تلمس رفضاً مكبوتاً منه، تفتح جرحه بكلمات عن الأطفال الذين لم يأتوا بعد، وعن البيوت التي لا تكتمل بهجتها إلا بأصواتهم، عن الوقت الذي يمضي كأنه عدو يطارده، تسأله عن تفاصيل تعرف أنها تثقل أنفاسه فلا يجد ردّاً غير الصمت، يشعر أن حبه لدينا يعقوب يشبه شرفة مطلة على مدينة غارقة

في الأضواء، بينما يعيش كل ليلة في غرفة لم تصل إليها الكهرباء بعد، وبين
رشفة قهوة وأخرى، يتسلل إليه يقين بارد بأنه مجرد ضيف عابر بين مقعدي
الزوجة والجدة.

في الليل حين ينام البيت كله يبقى وحده يعزف لمدة ساعة، ثم يضع الكمان
بجواره ويصغي لصوت عقارب الساعة الضخمة المعلقة على جدار الصالون،
يخشى أن تصبح حياته مثل عقرب ثوانٍ يدور بلا توقف، يقترب في كل دورة من
النهاية ليعيد الدوران من جديد كأنه لا يصل أبدًا.

مع بدء الشتاء، يتكرر المشهد بصورة شبه يومية، تمر السيارة من البوابة
الرئيسية، تتوقف أمام المبنى الاجتماعي، يلتف حولها العاملون كالذباب طامعين
في كرم السيدة العجوز، تعطي كل منهم عشرة جنيهاً، وإذا ما حاول أحدهم
الحصول منها مرتين على الصدقة تنهره، لا تزال ذاكرتها قوية كجسدها، ترفض
يد المساعدة الممدودة من أحد العاملين عند خروجها من السيارة وتمشي
وحدها، تستقل المصعد للطابق الأول، يُفتح لها باب الصالة وسط ترحيب أكبر
مما لاقته عند وصولها.

تلمع الطاولات الخضراء المستطيلة في صالة البريد بنادي الجزيرة تحت
ضوء الثريات الكريستالية الفدلاة من السقف العالي، توجهت إلى طاولة لا تغيّرها
منذ سنين كأنها كتبت باسمها، أشعلت سيجارة ثالثة بعدما خسرت دورة ثانية
من اللعب، بالرغم من أنها اقترحت من البداية على شركائها لعبة البوكر التي
يحالفها الحظ فيها أكثر من البريد.

كانت ترتدي ثوباً حريراً لونه أقرب لزهرة البنفسج، ينسدل على كتفها شال
هندي كشميري رقيق داكن، هدية من حفيدها سامي بعد زيارة مبارك لنمودلهي،
أصابعها البيضاء النحيلة، التي ورثها سامي عنها، يزدان اثنان منها بخاتمين

من الذهب الأبيض والياقوت، على الجدار أمامها لوحة زيتية لمضمار الخيل أيام الملك فؤاد فترتاح نفسها للمكان، أصوات الكؤوس تصطدم برفق من موائد قريبة لتصنع خلفية موسيقية تليق بغموض الصالة وهدوئها رغم صخب نفوس اللاعبين.

على طاولتها يجلس خصومها الثلاثة، سيدتان من طبقتها الأرستقراطية، وسفير سابق يقترب منهم اجتماعيًا إلى حد كبير، لكن الجدة لا تحبه لكون ميوله ناصرية، قبلت بوجوده كشريك فقط في الطاولة لأنه متمرس في لعب الورق، متقد الذهن، يراقب كل حركة في يد اللاعبين، ويقرأ ردود الفعل فوق قسّمات الوجه عندما تصافح العيون أوراق اللعب كل دور، يفعلها بعينين مدينتين على قراءة الإشارات الخفية، فكانت تستعين به في شراكة البريدج.

راحت الجدة تقلب الورق بخفة رغم شرودها، بجوارها السيدتان اللتان تعرفانها منذ نصف قرن، تبتسمان أكثر مما تلعبان كأن اللعبة ذريعة للحديث عن الآخرين، تأملت أوراقها، فلاحظت أن الولد ينقصها أيضًا، تأزمت جبهتها وتبدلت ملامحها، فظن الجميع أنها خاسرة، فجأة رفعت حاجبًا ورمقت السفير بنظرة أقرب لتهديد، بينما كفها تكشف بهدوء عن ثلاث ورقات لملكات الكوتشينة (البنت) ثم ابتسمت ابتسامة واسعة، لا تعني الفوز بقدر ما كانت إعلانًا عن سيطرتها على المشهد بالرغم من غياب الولد.

في استراحة قصيرة بين الجولات، جلست الجدة قرب النافذة العريضة بالطابق الثاني تراقب أعضاء النادي المتناثرين بحديقة الشاي من علي، انحنت إحداهن عليها وهمست في أذنيها بشيء عن تأخر حفيدها سامي في الإنجاب، شدّت الجدة شالها حول كتفيها وخاطبت السيدة بصوت خافت، لكن فيه من الحدة ما يكفي لإسكاتهما:

- كل شيء بوقته يا جليلة.

هزت جليلة رأسها غير راضية بالإجابة، وقالت بنبرة ودودة:

- أنا قلبي عليك، الناس كلامها كثير فقلت أنبهك.

- اللي رينا عاوزه هيكون. كل شيء وله أوان.

- بس هو كدا بيضيع سنين من عمره.

تنهدت الجدة، كمن يسحب نفسًا عميقًا من ماضٍ بعيد، ثم قالت بعصبية من نقد صبره:

- العيال مش ورقة في لعبة يا جليلة نرمىها عشان نحقق مكسب ... قلت لك كل شيء بوقته.

- هي صحيح عيانة بالقلب؟

رمقتها الجدة بنظرة قاسية وقالت بحدة:

- إيه الكلام الفارغ دا، ومن إمتى بنسمع كلام الناس أو نصدقها يا جليلة؟!

- باردون يا حبيبتي والله ما كلامي، دا كلام بيتقال لكن أنا مصدقتش وكدبتة، بس قلت أقولك الناس بتقول إيه، عمومًا رينا يكتب لهم الخير وتفرحي بولادهم.
- كل شيء بوقته.

أشعلت جليلة سيجارة ونفثت دخانها عاليًا، وبينما تتنهد بعدما أرهقتها نظرات جدة سامي وجدة كلماتها، نهضت السيدة العجوز من مكانها وعادت إلى الطاولة مستدعية شريكة لعب جديدة، حتى لا تزعجها جليلة بأسئلتها وتطفلها.

تعتبر الجدة لعب الورق تدريبًا يوميًا على المناورة والصبر، لا تختلف كثيرًا عن الحياة خارج أسوار النادي، لكن كلمات جليلة صديقتها هزتها هذه المرة، فبدت وهي توزع الكروت كأنها تُعيد ترتيب أوراق خاسرة في لعبة أكبر من البوكر.

مع نهاية الجولة الخامسة تجاوزت خسارتها القدر الذي حددته سلفاً، فلملمت علبة سجائرهما وولاعتها الذهبية في حقيبتها الجلدية، ونهضت بخفة تغالط سنّها في عشر سنوات على الأقل، في طريقها لسيارتها نادت سائقها الذي وقف ينتظرها قرب المدخل، أشارت له إشارة يفهمها، فناولها المفاتيح استجابة لرغبة تنتابها كلما غضبت، لكنه حاول إثناءها قدر استطاعته بعدما لمح رعشة واضحة في يدها اليمنى، رفعت عصاها التي تتعكز عليها ولكزته بها في صدره فتسمر مكانه وتراجع.

اتجهت بخطوات حاسمة ناحية سيارتها الكاديلاك الحمراء القديمة، جلست خلف المقود وأدارت المحرك، وضغطت بعنف على دواسة البنزين فأحدثت صوتاً عالياً يضاهي غضبها، نادى السائق وأمرته بفتح السقف القماشي، وانطلقت في شارع الجزيرة بينما الهواء البارد يصفع وجهها، وفي مرآة السيارة رأت نفسها تلوح من بعيد حتى اختفت، شردت في زواج سامي من فتاة لم يكن يحبها، لكنها ضغطت لإتمام الزيجة حتي ينجب ولداً يحمل اسم عائلتها العريقة، الآن الحمل تأخر لسنوات وغالباً لن يأتي، زادت من سرعة السيارة وهي لا تعرف إن كانت تهرب من خطأ قديم، أم تسابق شيئاً لم يُولد بعد.

ساعات مسروقة من الزمن

باريس / برج إيفيل / فبراير / 1988

عند وصولنا مطار أورلي وجدنا في استقبالنا جاك شيراك، صعد إلى الطائرة واصطحب «مبارك» حتى السيارة المخصصة له. البروتوكول يقتضي جلوس الضيف على اليسار بالأريكة الخلفية، لكن مبارك يكسر القاعدة من أول يوم بالرئاسة، وكلنا بالمراسم ننتبه لهذا الأمر، ربما بسبب ضعف السمع بأذنه اليمنى منذ حرب أكتوبر، حسبما فهمت من الإجابات المقتضبة التي تلقيتها، فكان يجلس دائمًا ناحية اليمين حتى لو حلّ ضيفًا على أي رئيس، ورغم إشارتي لمبارك بالتوجه ناحية الباب الأيمن واتفاقي مع مراسم الرئاسة الفرنسية قبلها من خلال برقيات سرية، لكن شيراك توجه ناحية الباب ذاته، ووصل مع مبارك في اللحظة ذاتها؛ وضع مندوب المراسم الفرنسية جسده بينهما ليحول دون ركوب مبارك أولًا، تكهرب الجو واضطر رجل الحراسة الشخصية للرئيس أن يحتك بمندوب المراسم الفرنسي، جذبه بعنف من ذراعه وأزاحه للوراء، ثم أعطى ظهره لشيراك وفتح مجالًا بالكاد لمبارك كي يدخل السيارة، وبالرغم من أن كل ما جرى استغرق بضع ثوانٍ فلم تسجله كاميرات المصورين، لكن شيراك تقبّل الأمر بسلاسة وانتقل برشاقة إلى الباب الأيسر وهو يبتسم، لكني سمعته يبرطم بالفرنسية أنه كان يفعلها مع شقيقه الأكبر وهما أطفال.

التقينا الرئيس الفرنسي، فرنسوا ميتران، في قصر الإليزيه لبضع ساعات، ومضت الأمور روتينية طوال اليوم، ثم عاد مبارك لمقر إقامته بقصر الضيافة المخصص له، ولأنه ينام مبكرًا، وجدتها فرصة للخروج مع دينا في نزهة نستعيد بها ذكرياتنا هنا، لكن النزهة الليلية تحولت بعد عشاء لطيف في مطعم صغير قرب ميدان الأوبرا إلى ليلة لا تُنسى أمضتها دينا في غرفتي، بين ذراعي، عادت

لموطنها الأصلي.. حضني، تحسست كل موضع من جسدها كمراهق التقى حبه الأول، استعدت ذكرياتي بلذة مع ملمسها ومذاقها، لا شيء راح من ذاكرتي، ولا شعوري تغير نحوها، ووجدتها من جديد فاتحة ذراعيها تنادي باسمي.. تبتسم وتضحك وتلقي بنفسها في حضني مرات ومرات لأرتوي منها، وكل مرة يزداد ظمئي..

أطفأت نور الغرفة تاركاً إضاءة برج إيفيل المنتصب بفخر تتسرب لفراشي، يلمع جسد دينا على ضيه فتأجج شهوتي لمرّة جديدة، ظللنا عاريين نمارس الحب ونتبادل القبلات ونشرب النبيذ حتى الفجر، ثم غبنا في نوم قصير. لا أتذكر اللحظة التي غفوت فيها، كانت دينا تعبت بخصلات شعري بينما رأسي تتوسد فخذها، ولما صحت ووجدتها في حضني ممسكة بخصري، وساقها فوق ساقي، أنفاسها تضرب صدري برفق، وزجاجتي نبيذ فارغتين قرب قدمينا. قبلت جبهتها ثم وجنتيها واقتربت من شفتيها، ففتحت عينيها نصف فتحة وابتسمت ابتسامة مُجهدّة هامسة:

- محتاجة لك العمر كله.

لم تُعد تقول أحبك وصارت تصمم على الاحتياج، تفضل الكلمة وترى أنها أقوى وأعمق وأشمل من الحب، اختلف معها ولا أخالفها، أعدّها أنني سأظل موجوداً ولن أرحل هذه المرة، غبنا في قبلة طويلة ثم فجأة لمحت ساعتني وأنا أطوق رقبتها بذراعي، انتفضت فأفزعتها، قبل أن تسألني صحت بصوت عالٍ:

- باقي ساعتين ونص على موعد الرئيس مع رجال الأعمال ومهندسين مشروع مترو الأنفاق... اتحركي.

في باريس أمضينا ساعات مسروقة من الزمن، سعادة مختلصة من واقع رتيب، رسمنا خريطة أيامنا الحلوة، وفي نهاية شارع الشانزليزيه الذي قطعناه مشياً مرتين في ليلتنا الثانية، وعلى مقهى صغير بشارع جانبي، اتفقنا على خطوتنا

القادمة، وعند أعلى نقطة في برج إيفيل تبادلنا قبلة طويلة، ثم حفرنا حروف اسمينا على إحدى جدرانها.

يومها أشرت لها إلى نقطة بعيدة لا تُرى:

- هناك هشتري بيت ونعيش فيه، إحنا بكرة فاضيين طول النهار ومفيش مراسم، هوديكي تشوفي المكان.

لمعت عيناها بفرحة أكبر من سعادتي، ومنحتني قبلة أطول من سابقتها.

بمجرد أن ارتفعت الطائرة الرئاسية وبينما برج إيفيل لا يزال تحتنا، استدعاني مبارك بعد وشاية من الحراسة الشخصية؛ بدت نبرته غاضبة وملامحه جبهة، نبهني إلى أن الأجهزة الأمنية ترقب وترصد دبيب النملة ومركزي بالرئاسة حساس، تظاهرت ببلاهة لوهلة، ثم تراجعته وقررت أن أصارحه برغبتني في الزواج من دينا، لم يمنحني الفرصة، وضرب لي مثلاً غريباً لم أفهمه، فأعاده باللغة الإنجليزية:

- الطبق اللي بناكل فيه يا سامي ما ينفعش نتف فيه.

ظللت صامتاً يتعرق جسدي كله، فضحك مبارك ضحكة خافتة وأردف:

- أنا عارف إنك ابن ناس ومش هتفهم المثل بتاعنا، عشان كذا قولته لك بالإنجليزي يا خواجه، أنا أحب أدي تحذير أولاً قبل ما أعمل أي حاجة، ركز في أكل عيشك يا سامي بدل ما تمشي وتسيبنا.

غادرت جناحه الخاص بالطائرة شاردًا، لم يشغلني معرفة أصل المثل، ولا اهتممت مؤقتًا بمواجهة الواشي، بقدر ما أخافني استعداد الرئيس للتخلي عني بسهولة كأنه لا يملك من أمره شيئاً، أعرف أن لديه هاجساً وحيداً هو أمنه الشخصي، يعمل له ألف حساب، يراجع خطط التأمين ومواكب السير مع قائد

الحرس بعناية بالغة، ربما بسبب رؤيته للموت عن قُرب وقت اغتيال السادات؛ بضعة سنتيمترات إذا ما انحرفت فيها رصاصة واحدة من الرصاصات المئة التي أطلقت على المنصة يومها، لكانت كفيلة بمنحه لقب مرحوم بدلاً من رئيس. وبالرغم من غضبي وقلقي من نبرة حديث مبارك، فقد صممت على قضاء رحلة العودة بصحبة دينا بكابينة الصحفيين، وعندما خرج لهم الرئيس من جناحه، سبقته بخطوات كي أشير إلى مكان جلوسه في مقعد وحيد عريض مُخصّص له في مواجهتهم، وأناوله قلماً وورقة إذا ما احتاج إليهما، بعدما اتفقت مع الصحفيين قبلها على ترتيب الأسئلة وعددها، لكن بالرغم من ذلك كان تركيزي مُشتتًا، لم أضع عيني في عين مبارك كالمعتاد، وأبحرت في عيني دينا الجالسة بالصف الأخير وهي لا تكف عن الابتسام، سبحت معها إلى نقاط بعيدة، جذبني تيار الغرام واعتصررتني دوامة الشوق ولم أعد أريد العودة، لا أرى الحياة الآن إلا بلون عينيها الزرقاوين، فجأة خرجت من جنتي الصغيرة عندما احتدّ مبارك على أحد الصحفيين، وكان نائباً لرئيس تحرير جريدة مستقلة مشاغبة أحيانًا:

- افهم يا بني آدم! إحنا بنعمل مشروعات للنقل والمواصلات مع فرنسا وعندنا مشروعات ثانية في البنية التحتية مع دول ثانية أصدقاء لنا، وأنا بروح لهم بنفسى باخد قرض معقول للمشروعات دي بالتحديد، إنما قروض من البنك الدولي عمال على بطلال... لا يا حبيبي بطلنا حكاية القروض، أنا لو سلمت رقبتي للبنك الدولي يجبرني ثاني يوم الصبح أرفع الأسعار، والمواطن بتاعنا ما يستحملش، ثم مين إن شاء الله اللي هيسدد الفاتورة بعد كدا؟ أولادي وأولادك؟ حاول نائب رئيس التحرير المقاطعة بتحويل المسار نحو زيادة الضرائب بعيدًا عن القروض، لكن مبارك استرسل بحدة:

- اسمعني كويس يا بني آدم، رغيف العيش عندي أهم من كل حاجة، مية وخمسين مليون رغيف كل يوم أجيبهم مين؟ لذلك أنا باخد ضرايب من الغني عشان الفقير ياكل، لغاية ما بطنه تتملي ويشبع فيقفل بقه، أنا فاهم المصريين

أكثر منك ومن البنك الدولي ومن رئيس التحرير بتاعك لا مؤاخذه.

قالها مبارك ونهض مُنهياً اللقاء وسط تصفيق من بقية الصحفيين، عاد إلى جناحه الخاص بالطائرة وطلب مني إحضار علبة السيجار الكوبي، بعدما لُخص انطباعه عن الحوار مع الصحفي المعارض بكلمتين فقط: «ناس لَبَط» .

بعد عودتي من باريس تغيّر شيء ما بداخلي، راح عقلي يترك قلبي يلهو ثم يكبح جماحه في الأمتار الأخيرة قبل بلوغ خط النهاية، دوّمًا أصل متأخرًا ولا أتذوق طعم الفوز أبدًا بالرغم من أنني أراه أمامي واضحًا، أكاد أقبض عليه بيدي لكن عقلي يصوره دائمًا كسراب، ثم يتركني ألعن تخاذلي كل مرة.

رتبت كل شيء قبل سفري، وفي تلك الليلة استخدمت سيارتي الخاصة، اصطحبت زوجتي لمطعم قريب من مبنى التلفزيون، ولقّا عرفوا وظيفتي، أدخلوا نصف المطعم وحجزوا لي طاولة في ركن منزوٍ به، ربما ظنوا أننا عاشقان، لا يعرفون أننا في طريقنا للانفصال بعد ساعات قليلة من الآن، بعد ست سنوات من اللازواج واللاطلاق.

صدحت الموسيقى بالأغنية الإيطالية الشهيرة «أنقذ حبك يا عزيزي» وبينما أحتويها بين ذراعي وندمايل متظاهرين بالانسجام وقت الرقص، همست في أذنها بضرورة مصارحتي بما تفكر فيه ويشغلها، أردت تقصير المسافة، فلا فائدة من قطع كيلومترات أخرى في طريق نهايته مسدودة، أدرك أن زواجنا فشل من قبل أن يبدأ، وأعرف أنها ستقبل الطلاق هذه المرة، وأن إصرارها على اللقاء خارج البيت سببه الوحيد أن أكون بعيدًا عن نفوذ جدتي فلا تؤثر على قراري، مع أنني مقتنع هذه المرة أن جدتي نفسها ستوافق مجبرة لعدم قدرة زوجتي على الإنجاب.

ما لا تعرفه زوجتي أنني مُهياً الآن لطلبها حتى الثمالة، بعدما التقيت دينا

يعقوب مرة ثانية، كأن القدر يصالحني ويَعْذُني بتعويض كل ما فاتني، نظرت لي بعين دامعة وأخرى معاتبة، لا أعرف كيف فعلتها لكنها أدهشتني، رغم قوة شخصيتها ولسانها السليط كسيف لا يرحم عنق من يتناول عليها أو يحاول ملاطفتها على غير هواها، لكنها في هذه اللحظة تبدلت، بدت ضعيفة لينة رقيقة، تكاد تذوب من فرط الرقة وتتلاشى كنسمة عابرة في ليلة صيف. ظلت تحملق في وجهي وتتأمل ملامحي بنظرات ودودة، كأنها تتطلع إلى لوحة جميلة وتقف ساكنة في محرابها احترامًا، أول مرة ألحظ اتساع عينيها لهذه الدرجة، لكنني لمحت فيهما مسحة من حزن مكبوت يرقد تحت غلالة دمع تكوّنت ولم تذرف بعد، اقتربت مني حتى التصقنا، شعرتُ بجسدها وسرت بي رجفة رغبة عابرة، اندهشتُ من شعوري وتأجج رغبتي، على الرغم من أنني لم أَعُدْ أَقْتَرِبْ من جسدها إلا فيما ندر، لا أتذكر حتى آخر مرة ضاجعتها فيها، تفرّستُ ملامحها على مهل، رأيتها جميلة كأنها المرة الأولى التي ألتقيها، ابتسمت وراودني شعور غريب، مزيج من رغبة جنسية ودفقة مشاعر تريدان الخروج من داخلي في آن.

بعد انتهاء الأغنية، دارت موسيقى خفيفة أشبه بتلك التي يتم تشغيلها في مصاعد الفنادق، وقبل أن نعود لطاولتنا باغتتني قائلة بنبرة خفيفة:

- أنا حامل .

صمتت برهة ثم همست بكلمات أخرى كأنها لا تريدني أسمعها بوضوح:

- محتاجة لك.

يا الله! نفس الجملة التي تستخدمها دينا يعقوب، ألصق الصمّ شفتي ببعضهما من بعد كلامها، غادرنا دون عشاء، تركنا أطباقنا كما هي، تناولنا فقط بضع لقيمات التقطناها كأننا نوّدي مشهدًا تمثيليًا نتظاهر فيه بتناول الطعام، وظللنا سحابة سخيفة من التيه لم تنقشع حتى عدنا لبيت جدتي. نامت زوجتي في حجرة أخرى وتركتني وحيدًا في ساحة قتال، صريغًا بضربة قاضية؛ دُكَّتْ

كل حصوني دفعة واحدة، خارت قواي، وانسحبت جيوشي بعشوائية، يا ترى هل
تسرعت عندما فكرت في الطلاق متذرعاً بحياة رتيبة أشبه بموت مؤجل، أم أنني
تسلحت بمشاعر لا تزال دينا تحملها لي وتأججت لما رأيتها بالرئاسة بعد غياب؟
ربما الأمران معاً.. لست أدري.

صرخات مكتومة

باريس / ضفاف نهر السين / مارس / 2015

في صباح غائم استيقظ سامي عرفان هادئاً على غير عادة، شرب الكثير من القهوة، ارتدى ملابس ثقيلة وجذب صندوقاً خشبياً رقيقاً من دولابه، وخرج رافضاً أن يصحبه مدير أعماله الذي تابعه من وراء النافذة، ولما تيقن من ابتعاد سيده عن البيت، أمسك بالهاتف وأجرى اتصالاً بالسفارة المصرية بباريس.

مشى سامي حتى وصل إلى نهر السين، لا يزال يذكر ذلك اليوم الذي أقدم فيه على الانتحار بمحطة مترو سان لازار، لولا أن لحقه رجل قوي البنية ربما أتى مبكراً للمحطة، عاونه على النهوض من فوق القضبان فاستسلم له حتى تركه على الرصيف، ثم تبخر قبل أن يرى ملامحه.

بدأ يسمع موسيقى تشبه موسيقاه لكنه لا يعرف مصدرها، خافته كأنها آتية من ماضٍ بعيد، وفي كل مرة يكون اللحن ناقضاً، نغمة تنكسر في المنتصف، شيء ما لا يكتمل، كاعتراف مكتوب ينفد من قلم كاتبه الحبر فجأة فلا يدون كاملاً.

مضى في طريقه تقوده قدماه لا عقله، كان الناس من حوله يتناثرون كأوراق شجر داهمتها رياح خريفية على حين غرة، نظر إلى نهر السين وتساءل مع نفسه: كم مرة غفرت اليابسة للنهر ما فعله بها؟

هز رأسه كأنه يجيب وعاد يمشي، ظل السؤال يتدلى من رأسه، يتخطى ظله ويفوقه ثقلاً.. «ألم يكن بوسعك ألا تفعل ما فعلت؟» هز رأسه ثانية، لكن هذه المرة بالنفي.

دخل شارعاً جانبياً، تذكر مقهى صغيراً يعرفه ويرتاح إليه، جلس قرب بابه

أقصى اليسار كعادته، ليراقب الداخل والخارج كاشفًا المكان كله، قفزت بذهنه صورة دينا يعقوب، جلسا هنا معًا، على الطاولة نفسها، كانت تنظر إليه بإعجاب غبي، كما تنظر الفراشة للنار، تذكر كلماتها يومها:

- أنت حنين أوي لما بتبقى ساكت، حتى نظرة عينك بتغير ملامحك.

زفر في ضيق، لا تدري دينا أن صمته تدريب داخلي على تحلّل صرخات مكتومة في صدره منذ صغره؛ صمت هادئ يُخفي شروذًا في مستقبل ضبابي لم يتحقق إلا وقد اقترب من الستين، ومهما حصد الآن من مال ونجاح وشهرة فالعمر لم يبقَ فيه ما يسمح بالمتعة.

وقعت عينه على وجهه في واجهة المقهى الزجاجية الجانبية، لم ير ملامحه؛ إنما ظل يشبهه. ظل معصوب العينين بقطعة قماش سوداء عريضة والرأس مُطرق في انكسار، اخترق سمعه صوت بكاء ممزوج بعزف كمان، ابتسم ليطمئن نفسه ثم ضحك حتى اختنق وسعل، رفع رأسه للسماء، رآها ملبدة بغيوم فرنسية تنذر بمطر شديد، فغادر تاركًا بضع عملات معدنية ألقاها بطريقة اعتادها لثحدث رنيًا محببًا لنفسه.

مشى فوق جسر صغير، وقف في منتصفه ينظر لمياه النهر المتقلبة في غضب، أخرج من جيبه الصندوق الخشبي الصغير الرفيع، بداخله أوتار كمان مقطوع منذ سنين لم يَعد يتذكر عددها، تحتها قصاصات ورقية، كل واحدة تحمل اسمًا.. أباه، أمه، جدته، زوجته، دينا يعقوب.. إخفاقاته كلها جمعها مع الأوتار التي قَطَّعها أبوه يومًا ما، بعدما حطم كمانه الأحمر الصغير الذي أهداه له مدرس الموسيقى، الرجل الذي رأى فيه عبقرية مبكرة لم يلتفت إليها أحدٌ وقتها، ألقي بالصندوق في النهر، تابعه للحظات حتى غاص بلا أثر في لمح البصر، فارتاح قلبه.

في طريق عودته لمح خيالًا خلفه، التفت بسرعة، وجد رجلًا عجوزًا وكلبًا ضخمًا مزمًا في هدوء، عند نهاية الشارع رفع رأسه صوب شرفة شقته، رأى

السيدة التي تتولى تنظيفها تطل منها وتدخن سيجارة، ابتسم ابتسامة غامضة المعنى، لكن بدا عليه هذه المرة أنه اتخذ قرارًا مصيريًا، ربما أشبه بقراره الجنوني منذ أيام بمحطة سان لازار.

التعثر في الخطوة الأخيرة

القاهرة/ جامعة الدول العربية/ أغسطس/ 1990

كعادتني، تخليت عن دينا مرة أخرى، ربما هذه المرة بطريقة أقسى مما فعلت في مرات سابقة، ظل قلبي يدمي وأنا أكتب لها رسالة، ترتعش حروف كلماتي وتميل لتسقط منتحرة من فوق السطور، على الرغم من أنني لم أشرح ولم أبرر، اكتفيت بعبارات عامة لا تريح، تركتها كما يُترك الميت في صحراء، بلا قبر ولا شاهد، تصورت أن الطفل الذي تحمله زوجتي بطنها سينسيني كل شيء، سيما بيتي البارد بصياحه ولعبه، وسأتعلم كيف أكون رجلاً صالحاً.. لكن الطفل لم يأت.

أجهضت زوجتي بعد أسابيع، فشعرت بزلزال داخلي يضرب مشاعري، حتى الطفل اختار ألا يأتي للعالم، هرب هو الآخر من حياتي، ظننت لوهلة أنني سأعود إلى دينا بسهولة لكنني لم أفعل، ربما خفت من نفسي، وربما أدركت هشاشتي، فجلست في مكاني أراقب الأيام تمضي رتيبة بليالي باردة، بينما صورة دينا لا تفارقني، بضحكتها التي لا تتكرر، بغضبها النقي، بعينيها اللتين كنت أظنهما خلقتا لكي تراني وحدي.

بعدما حدث الإجهاض لم تبك زوجتي، جلست صامتة تحديق في الفراغ، تضع يدها على بطنها المسطحة كأنها تفتش عن أثر قديم، تحاول أن تقنع نفسها أن كل ما جرى لم يكن وهماً، كنت أمر بقربها، أنظر إليها ولا أقول شيئاً، أريد أن أضمها، وأريد أن أقول آسف على شيء لم أقترفه بقصد ولم أكن أريده، لكنني لم أفعل، كأن عقلي يرفض تصديق ما حل بنا.

بعد شهور قليلة شعرت بحاجتي إلى دينا يعقوب، ربما أردت النجاة من واقعي، أردت مكاناً أضع فيه رأسي دون أن أشعر بالذنب، وجهها يزورني في أحلامي كل

ليلة، يظهر في الأوراق التي أمامي، ينساب بين نغمات الموسيقى التي أعزفها على الكمان، أراه حتى في عين زوجتي، تلك النظرة الغريبة حين تحاول أن تفهمني، أن تسألني عما لا يُقال، لكنني ظللت ساكنًا مكاني، عالقًا بين امرأتين، واحدة أرهقتها بحبي، وأخرى قتلتها بحيادي.

طرقت باب مكتب الرئيس مرتين ثم دخلت، لكن أثناء عرض البوسطة اليومية أفلتت مني ابتسامة رغما عني لما تأملت أسماء الرؤساء والملوك، لاحظ مبارك ابتسامتي العابرة، لكنه تغاضى عنها عندما قدّمت له مشروع البرقيات التي أعدتها لتهنئة الرئيس النيجيري بفترة رئاسية رابعة، ولرئيس أوغندا بالفترة الرئاسية السادسة، وملك السويد بمناسبة عيد مولده السبعين، وبرقية تأييد لقائد انقلاب الكونغو الثالث في آخر عامين، بعدما اعترفت به فرنسا وبعض الدول الأوروبية ومن قبلهم أمريكا، وأخيرًا برقية تعازي لرئيس موزمبيق في وفاة شقيق زوجته في حادث سير.

في ظهر اليوم التالي دعا مبارك لعقد قمة طارئة بجامعة الدول العربية، وبالرغم من أن القذافي عرض على الرئيس عدم المشاركة في إرسال قوات دولية لتحرير الكويت مقابل سداد نصف ديون مصر فوزًا، فإن مبارك أصرّ على موقفه رافضًا العرض الليبي، ففاجأنا العقيد القذافي يوم القمة برفضه دخول القاعة إلا بعد الرئيس مبارك، وأن يقف له كل الرؤساء والملوك ترحيبًا وتصفيقًا عند دخوله باعتباره ملك ملوك إفريقيا؛ ولأن بروتوكول المراسم لا يحتمل كل هذا القدر من الهزل فقد تم رفض طلباته بحسم، فما كان منه إلا أن أمر رجال مراسمه بنصب خيمة كبيرة في ساحة جامعة الدول العربية مقررًا الاعتصام بها حتى يسرق الأضواء من الجميع، وأولهم مبارك نفسه.

- موكب الرئيس اتحرك من المقر، شوف حل يا سامي مع ابن المجنونة دا.

صرخ في رئيس الديوان بعصبية، الكل هنا يعلم أن القذافي يعاملني بمودة زائدة لأنني أشبه ممثلًا أمريكيًا يفضلته، وكان مبارك يكلفني بمرافقته في زيارته غير الرسمية للقاهرة ومطروح لهذا السبب، لكننا الآن لا نملك رفاهية الوقت من أجل التفاوض والإقناع، ولا بد من النزول لاستقبال الرئيس مبارك وإدخاله القاعة التي اصطف فيها الرؤساء والملوك العرب قبله، فأتبعت أول فكرة ومضت في رأسي بغير تدبير، دخلت الخيمة وهمست في أذن العقيد بفكرتي، ظلت ملامحه جادة حتى ظننته لم يفهم، ثم ضحك ضحكة مجلجلة وهز رأسه بالموافقة، ولأنه غير مأمون الجانب، أكدت عليه الكلام بعفوية كأنني أخاطب صديقًا قديمًا:

- كلمة شرف يا قائد؟

وضع ساقًا فوق أخرى، وداعبني بالكلمة التي يكررها كلما التقاني:

- كلمة شرف يا تشريفاتي.

أعادت نشرة التاسعة مساءً وقائع القمة العربية وقرارها بالمشاركة في تحرير الكويت، تركت جدتي كل الأمور المهمة وسألتني عن سبب دخول مبارك القاعة متأبطًا ذراع القذافي رغم تحفظ ليبيا الواضح على القوات الدولية قبل انعقاد المؤتمر، شرحت لها فكرتي العابرة بطلبي من العقيد القذافي الدخول ومبارك يتأبط ذراعه، كأن مصر أم الدنيا تستند على ملك ملوك إفريقيا، فراقت له الفكرة ونفذها، ضحكت جدتي، وقبل أن أحكي لها ما وقع من القذافي بالجلسة، انطلق لسانها بعدما عادت بذاكرتها لأقصى الوراثة لتحكي عن أبي وكيف أنقذ الملك فاروق من مكائد كثيرة بسبب فطنته وذكائه، حتى إن اللواء محمد نجيب صمّم على الاحتفاظ به في منصبه بعد خلع فاروق، لكن أبي، عرفان باشا، رفض خيانة ربّ نعمته، وسافر معه إلى نابولي على متن المحروسة وودعه، ثم عاد لتسليم نفسه للأحرار، فسجنوه عامين وعندما تدخل السادات أفرجوا عنه، لكنه مات مع

أمي في حادث سير بعدما ولدت بشهور قليلة.

كنت أتناوب في وسط الحكاية المضطربة التي سمعتها بتنويعات مختلفة على مر السنين، حتى تنبهت إلى يد زوجتي وهي تهزني، وجدت جدتي سبقتني ونامت على الأريكة العريضة فلم نشأ إيقاظها، غطيث ساقها بملاء خفيفة واصطحبت زوجتي إلى جناحنا، وما إن دخلنا حتى سألتني بغير مواربة:

- هو أنت ممكن في يوم تطلقني وتتجوز غيري علشان مش بخلف؟

كادت جملة «نعم؛ وحتى لو جاء الولد» تفلت من بين شفتي، تلك هي الإجابة التي حبستها بعقلي سنوات، لكنني أفرجت بدلاً منها عن ابتسامة كاذبة تشي بتسفيه كلامها، ابتسامة تظهرني بمظهر الجنتلمان الذي لا يتخلى عن زوجته عندما تكون في حاجة إليه، اقتربث واحتضنتها، أغمضت عيني وطافت صورة دينا بمخيلتي، وأدركت في هذه اللحظة أنني لن أستمع بالرفرفة مهما حاولت التحليق عاليًا.

يا ليتني كنت حمارًا

القاهرة/ حلوان / مصنع نسيج / يناير/ 1992

سقيتها وعودي تباغًا مثلما يُسقى المريض دواءً ليؤجل وجعه، تتجدد علاقتنا ثم أتركها بغير مقدمات، أرجوها كي تعود، تستجيب فأطمئن، ثم أضعف فأتركها، في كل مرة تترنح ولا أفكر في مَدِّ يد المساعدة لها، لا أجرؤ على تقديم حيثيات هروبي كلما وعدتها بالزواج، حتى صرت أكره نفسي وألعنها كل صباح، أتعهد بإصلاح حالي، لكن كلما حاولت صاحبني الفشل الذي صار يركض خلفي ككلب صامت.

هذه المرة حدث أمر غريب، وضعت دينا سماعة الهاتف دون أن تودعني، ربما توقعت ردّ فعلي وأدركت ضعفي، وربما آثرت الابتعادَ جريحة حتى لا تقتلتها ببقية كلماتي لو التمست مني عفوًا، بعدما قررت وحدي إعدام مشاعرنا. صبرْتُ نفسي بافتراضات كثيرة وهونْتُ من الأمر واثقًا من عودتها ككل مرة، لكنها لم تعترض ولم تسأل ولم تطلب، سلّمت بأمر واقع دون مقاومة، انتهت المكالمة واختفت دينا من بعدها، شعرت بنذالتي أكثر من أي وقت مضى، ليتها قالت أي شيء، ليتها ترجتني، ليتها أعلنت أنها تكرهني، لكنها اختارت الصمت جوابًا فأوجعتني.

- السيد رئيس الجمهورية.

هتفت بها كالمعتاد عند خروج الرئيس من مقر الرئاسة بمصر الجديدة، ركب مبارك سيارته وهولت للركوب في سيارة المراسم الصغيرة التي تسبق الركب كله، اليوم أنهى مبارك خمسة أعوام من ولايته الثانية بقناعة تامة بأنه رئيس

ختمي لا بديل له، لا يحتاج إلى تأييد ولا يأبه لمعارضة، لا ينتظر عونًا من أي طرف بعدما عزز مواقعه داخليًا وخارجيًا، وبعد إعلان النتيجة توارت مقولة «رئيس الصدفة» وتبخرت فكرة «الرئيس المؤقت»، ولم تُعد نكتة «البقرة الضاحكة» تُضحك أحدًا بعدما أيقن الجميع أن مبارك سيضحك عليهم وحده في النهاية، وفي هذه الفترة تحديدًا اختار البعض جسر ابن الرئيس الذي بدأ يتمدد على استحياء ليعبروا إليه من فوقه، أو على أسوأ حال يكونون في الجانب الآمن من النهر.

وصلت قبل مبارك بعشر دقائق حسبما حذّر رجال الحراسة بعدما ألزموا السائقين بسرعة محددة، لكن عندما نظرت في ساعتني وجدت تأخيرًا لخمس دقائق عن الموعد المقرر، فأدركت أن الحراسة الشخصية تتعمد إحراجي مع الرئيس كالعادة.

لمحت موكب الرئيس يقترب من بوابة مصنع النسيج المملوك لأحد رجال الأعمال، زيارة غير تقليدية في مستهل فترة جديدة، ربما أراد مبارك إرسال رسالة تشجيع للقطاع الخاص، بعدما كفر بالقطاع العام الذي ورثه من سلفه.

بدأت المراسم فور نزوله من السيارة، هتفت الحشود بحياته ثم صافحه بحرارة العمال العشرة الذين اخترتهم بالأمس، كنت أبعد عن الرئيس بمسافة خمسة أمتار كالمعتاد متقدمًا عليه، وكل حين ألتفت ناحيته لأدله على مسارات الزيارة.

لدينا ثلاث محطات سيتوقف بها، واحدة أمام إحدى العاملات التي تنسج سجادة يدويًا، والثانية لتحية عمال منتقين بعناية قبلها بأسبوع سيهتفون في وقت واحد عندما يلمحونه، فيلوح لهم في محبة مع إبطاء خطواته لزوم التصوير، والثالثة لقاء أبوي مع عامل يرتدي الأوفرول ويظهر على شاشة التلفزيون معه بصورة عفوية، وفقًا لترتيبات وزارة الإعلام.

السيناريو الذي تسلمته قبلها بيومين يشرح أن العامل سيظل جادًا عابثًا حتى يقترب منه الرئيس فيتهلل وجهه بابتسامة عريضة، وفي اللحظة التي أتوقف فيها وأفرد ذراعي ناحية الرجل يفهم الرئيس أنه العامل المقصود، فيصافحه في ود ويدور حوار قصير بينهما، يشكو فيه العامل من غلاء أسعار بعض السلع الضرورية، فيلتفت الرئيس غاضبًا باحثًا عن وزير التموين، الذي سيتلقى بدوره توجيهات رئاسية على الهواء مباشرة بتوفير مزيد من السلع على البطاقة التموينية لينتهي الموقف بالهتاف بحياة الرئيس.

صباح يوم الزيارة، وقبل التحرك، وزعت السيناريو على رؤساء التحرير ليختاروا منه عناوينً للصحف القومية الصادرة في الغد، وبالأمر كلفت باختيار عشرة عمال من بين مئات كي يضافحوا الرئيس مبارك عند وصوله، بشرط أن «يليقوا على الكاميرا» كما تم إبلاغي من وزارة الإعلام، ولما طلبت إيضاحًا للمعنى المطلوب، أبلغوني بضرورة أن تبدو عليهم ملامح الوطنية وأن يكون من بينهم قبطيان لهما اسم مسيحي واضح.

أول مرشح قابلته كان شابًا في الثلاثين، نحيفًا مثل قضيب سكة حديد، شاحبًا كمن أتى لتوه من منطقة مجاعة، فانفجرت في صاحب المصنع غاضبًا:
- دا ينفع لجنابة مش لزيارة رئاسية.

ظهر العامل الثاني طويلًا، عريضًا، ذا شارب كثيف وعضلات مشدودة، يرتدي بدلة عمل زرقاء نظيفة (عفرية)، على الفور تهللت أساريري وهتفت:

- أهو دا المطلوب... شبه فريد شوقي في رصيف نمرة خمسة، إثبت على الهيئة دي على قد ما تقدر.

دوّنت اسمه في الدفتر وبدأت أفحص غيره، بعد ثلاث ساعات اكتمل التشكيل النهائي للقاء شاب أسمر يشبه عبد الحليم حافظ في حزنه وشجنه، وآخر لديه نظرة ناصرية حادة، ورابع قصير سمين لكنه ذو ملامح باشة، وشاب ذو لحية

خفيفة يمثل الشباب المؤمن، ثم قبطيان وديعان، عماد جرجس، ومجدي بولس، وعاملة أربعينية، وأخرى عشرينية ترتدي الحجاب.

بالأمس أيضًا سرت في نفس مسارات الرئيس كالمعتاد في عملي، حسبت توقيتات الزيارة، ثم التقيت بالعامل الذي سيتكلم مع مبارك في حوار أبوي، واستمعت لشكوى الآخر، حاولت إرباكه بمقاطعته لكنه كان مُلقَّنًا بشكل جيد، مع ذلك لاحظت أنه يتلجلج أحيانًا في الحديث وإن كان بصورة غير مؤثرة، فرفعت مذكرة عاجلة بملاحظتي حتى لا تُفسد لجلجلته الزيارة في الغد.

اليوم بدت لي مسارات الزيارة كمتاهة كأن شخصًا بذلها في غفلة مني متعمدًا إخراجي مع الرئيس، تجاوزت هواجسي ووضعت تركيزي كله مع مبارك، بعد أقل من مئة متر توقف الرئيس أمام عاملة بشوش تنسج سجادة يدويًا، استمع للشرح، ثم صافحها متمنيًا أن يزورها في العام المقبل وهي تعمل على ماكينة، ساد الوجوم وجوة الجميع وتلعثمت العاملة وهي تشكره، تداركت الأمر مسرعًا وبسّطت ذراعي ناحية اليسار لنكمل الزيارة، فاتبعني الرئيس وهو يختال كطاووس.

اجتزنا المحطة الثانية بسلام وغلّت هتافات العمال وحيّاهم الرئيس في سعادة بالغة، لكن في المحطة الثالثة تعثرت خطواتي والتبس علي الأمر عندما لم أجد العامل المتلجلج، ظننت أنهم أخذوا بمقترحي وبذلوه بأخر فصيح، قلت لنفسي ربما تولى رئيس الديوان المهمة بدلًا مني ونسى أن يخبرني، توقف الرئيس من تلقاء نفسه عند عامل آخر لم ألتق به بالأمس، فظننت أنها المحطة الثالثة، سأله مبارك بعفوية عن اسمه، فأجابه العامل باقتضاب شديد مكثفًا بترديد الاسم الأول، ابتسم مبارك مستفسرًا عن أحواله ومعيشته، لكن العامل هز رأسه وبدا مرتبكا، زاغت نظراته كأنه يبحث عن منقذ فلا يجده وسط الحشد الملتف حول الرئيس الذين بدا عليهم الارتباك مثله، مع ذلك ضحك مبارك بلا سبب وخاطب العامل بصوت عالٍ:

- أنت بتأخذ ماهية كام في الشهر هنا؟

تردد العامل في الإجابة، فحُثَّه الرئيس على الكلام مازحاً:

- قول ما تخافش، موش هنعسّدك يا سيدي.

خرجت الكلمات مغموسة في حرج شديد من فم العامل وبنبرة أقرب للهمس قال:

- أنا فرد أمن من الحراسة يا فندم لتأمين الزيارة.

ضربتنا عاصفة من الحرج إلا الرئيس، ابتسم واكتفى بكلمة واحدة «عال»، ومضى رافقاً يده بالتحية لعمال آخرين لا أعرف من أين أتوا بهم جماعات بهذه السرعة، علا هتافهم ودعاؤهم للرئيس فبددوا عاصفة الحرج، لكن بعد بضع خطوات رمقني مبارك بنظرة لا تخلو من عتاب، وربما حساب عسير وفق ما قرأتها في عينيه، أشرت له ناحية اليمين حيث باب الخروج وكنت أعلم أنه سيتبعني مُجبّراً، بعدما هداني غبائي في تلك اللحظة إلى إنهاء الزيارة عند هذا الحد كأني صاحب قرار، مع أنني من داخلي أهرب من مواجهة الرئيس مثلما هربت من دينا.

وبخني مدير المراسم عند عودتنا إلى مقر الرئاسة، ونقل لي غضب الرئيس وضمّنه تحذيراً بالنقل إذا ما تكرر الأمر، وبالرغم من أن مبارك لم يعاتبني، تأكّدت شكوكي في أن هناك من يريد إبعادي عن الصورة، ويعمل على زحزحتي منها في كل زيارة، فبدأت أنتبه.

مرّ الأمر عادياً حتى نشر صحفي يساري معارض مقالاً في جريدة الأهالي بعدها بأسبوع بعنوان لافت «فاصل للدهشة»، حكى فيه حكاية رمزية عن أسد يزور مزرعة حمير ويسأل كل حمار عن حصته من البرسيم، ثم وجد قرّداً واقفاً على مبعدة فوق شجرة، فتوجه ناحيته وسأله عن حصته، على الفور تقدّم أحد

الثعالب ناحية الأسد وأشار له بموزة من بعيد، ساد ارتباك بين صفوف القطيع بعدما كرر الأسد سؤاله عن البرسيم، فما كان من القرد إلا أن خلع القناع الذي كان يرتديه ليكتشفوا أنه حمار، صفق له الجميع، وعندما انتهت الزيارة وعاد الأسد إلى عرينه خلع القناع فتبين أنه حمار مثلهم.

طويت الصحيفة وقررت جمع متعلقاتي مؤقتًا من مكتبي، ربما كنت مجرد حمار آخر يحلم أن يكون قردًا، لكنني فشلت حتى في هذا الحلم البسيط.

موت مفاجئ

القاهرة/ جاردن سيتي/ مارس/ 1994

رغم هدوء البيت الظاهر، فقد كان يخفي ضجيجًا داخليًا لا يراه أحد غيري،
النهارات طويلة، والستائر مسدلة دائمًا إلا ما يُفتح منها بإذن جدتي، تجاوزت
الثمانين ولا تزال تجلس كقائد أسطول حربي في ركنها المفضل فوق الأريكة
الزهرية، عيناها لا تسهو عن شيء حتى وإن بدت ناعسة، وحين أعود من عملي
مُتعبًا تنادينني بصوتها الأمر الناعم في آن:

- تعالى يا سامي إحكي لي يومك كان عامل إزاي.

تلك العبارة نفسها التي كانت تقولها لي عند عودتي من المدرسة، أجلس وأروي
بتفاصيل تنتظرها بشغف، بينما زوجتي في جناحها تطالع مجلة فرنسية عن
أزياء الخريف أو تثرثر في الهاتف لساعات كالمعتاد، ولا ترفع رأسها من المجلة
حين أدخل غرفة نومنا ولا تقول أكثر من كلمة واحدة بصيغة سؤال «اتعشيت؟».
أجيبها أحيانًا بإيماءة، ثم أدخل سريري وأغطي جسدي حتى رأسي، لأبيت في
الكهف الذي يريحني مؤقتًا حتى صباح يوم جديد.

وبالرغم من حياتي الفاترة، فقد كان ذلك اليوم ثقبًا واسعًا في نسيج أيامي،
وصلت إلى المستشفى مبكرًا مع زوجتي لإجراء جراحة لإنقاذ قلبها، بعد ساعات
داخل غرفة العمليات وجدت نفسي مُحاطًا بوجوه تحمل ملامح محايدة،
ترتدي ملابس خضراء وزرقاء، يهمسون بكلمات مبهمة، تبينت بعضها بالكاد
«المضاعفات» و«الروماتيزم» و«القضاء والقدر»، ربما كانت تمهيدًا حتى يعلنوا
الخبر الأليم بعدها.. «المدام تعيش أنت، البقية في حياتك».

رحلت زوجتي فجأة، اختار لها القدر لحظة يُفترض أن تكون بداية، بعدما عُدَّت النِّية على البقاء معها عقب علمي بمرضها وفشلها في إنجاب طفل، علمتُ قبل موتها من الأطباء أنها مريضة بروماتيزم القلب ولديها ضيق شديد بالصمام المترالي، وأن الحمل كان يشكل خطرًا على قلبها، ويهدد حياتها، لكنها فيما يبدو اختارت المجازفة وحملت وسقطت، وكررتها حتى لا أتركها وأتزوج من أخرى، فرحلت هي.

عدت للبيت بعد يوم طويل قاتم، دخلت غرفتنا، وجدتها تاركة مجلات الموضة «Bourda»، مُتَرِّبة، متراصة فوق بعضها على المنضدة، ربما منذ أسابيع طويلة، ملابسها مكدسة في دولاها، كل شيء على حاله، كأنها زرعت السكون في البيت قبل رحيلها، جلست على حافة الفراش، عبير عطرها ما زال عالقًا بالوسادة، لا أصدق أنها رحلت فجأة وأخفت حقيقة مرضها المزمن كل هذه السنوات عني وعن جدتي، لم أعرف إلا قبل العملية الجراحية بشهر واحد فقط، لمحت على مقربة من فراشنا الأوراق الصفراء الصغيرة التي كانت تكتب فيها رسائلها لي، تذكرت أنها تركت رسالة قبل توجهنا للمستشفى، لمحتها ملصقة على جدار التلاجة كعادتها التي حافظت عليها حتى آخر يوم في عمرها، هرولت وجذبت الورقة الصفراء وقرأت، كتبت أنها لا تزال تحبني مع أنها تعلم أنني لم أحبها بالقدر نفسه، بدأت أقرأ كلماتها بصوت عالٍ رغماً عني ودموعي تسبق الحروف المناسبة من فمي..

«لا أريد أن أضيف همًا إلى قلبك حتى لا يتعب قلبي، كنت أتمنى إسعادك بطفل انتظرنا قدومه سنينًا وكنت أعلم أنه لن يأتي، لكنني حاولت فسامحني، ولا تذكرني أبدًا بسوء، ربما أخطأت عندما أحببتك في صمت كما أخفيت آلامي في صمت».

بكيت وشعرت بتأنيب هائل لضميري، ليتهأ قالت هذه الكلمات من الليلة الأولى، ليتني فهمتها، الآن رحلت تاركة بداخلي جرحًا ينزف كل يوم قطرات من

ندم، يومها قررت أن أنسى دينا يعقوب للأبد، وأمزق ما تبقي من أوراق مشاعري حتى لو كانت دينا قدرًا مؤجلًا كما تقول عن نفسها وهي تعود لي كل مرة.

- البقاء لله يا سامي بيه، سيادة الرئيس هيعزيك بنفسه.

ذهشت من المكالمة، فأنا مُستبعد من المراسم منذ واقعة المصنع، وتحديدًا من يوم نشر المقال، فقط أعمال إدارية مملة، وأداء واجب عزاء كل حين بجامع عمز مكرم مندوبًا عن الرئيس. توقعت أن مبارك نسي أمري مثلما نسي ملامحي، فهو لم يَعد يراني أمامه، الحقيقة تمنيت أن ينساني، خطت للاستقالة والتفرغ للعزف الذي كنت أمارسه بصورة يومية، ونويث اتخاذ أول قرار صحيح بمفردي في حياتي، لكن القدر فيما يبدو كان يختبئ في الظلام ويجهز لي مفاجآت أخرى.

بعد أذان الجمعة بدأ الكرنفال مبكرًا، احتلت جاردن سيتي عربات مصفحة، خرج منها رجال ببدايات داكنة وسماعات قصيرة في آذانهم، انتشر في الشارع لواءات من الداخلية تدلت كروشهم من فرط الجلوس بمكاتبهم، المخبرون أكثر من المواطنين، صلاة الجمعة هذه المرة استغرقت خمس دقائق فقط، ربما كانت الأقصر منذ فجر الإسلام! ضباط يحتلون أسطح العمارات المجاورة، وآخرون يفتشون بيتي كأنني مشبوه رغم معرفتهم الوثيقة بي، يطلبون بهدوء جاف رفع صور الملك فاروق، والخديوي إسماعيل، والسلطان حسين كامل، والملك فؤاد التي تعلقها جدتي على جدران الصالون، متحججين بأن ذلك لأسباب بروتوكولية.

بعد العصر أغلقوا الطرق كلها حتى انتهى أذان المغرب من المسجد القريب المغلق، ثم جاء الرئيس، وبخطوات مدروسة مسبقًا من المراسم دخل البيت متجهًا للصالون، يحفظ الطريق كأنه واحد من أهله، جلس على الكنب في مكان

جدتي التي استثنوها من الزيارة بلا سبب واضح، تحدث مبارك بكلمات مُعلّبة أشبه بعناوين مقالات رئيس تحرير جريدة الأهرام عن «التضحية» و«الصبر» و«القضاء والقدر»، ثم التفت لرئيس الديوان وقال بنبرة حاسمة:

- من الأسبوع الجاي عاوز أشوف سامي قدامي.

بعدها صافحني وانصرف. غادر حسني مبارك بموكبه وبقي الصمت يواسي الحزن ثم دخلت جدتي، جلست بجواري تربت على فخذي وتتمتم بدعاء لم أسمعه بوضوح، شردت في حالي، يتدلّى من عنقي حلمٌ بطفل لم يُولد، وبداخل عقلي ترقد امرأة كانت زوجتي، وتستقر بقلبي حبيبة لن تُصبح زوجتي، وضعت رأسي على حجر جدتي متوسداً فخذها، تخللت أناملها شعري كما كانت تفعل معي منذ أن كنت طفلاً، ومع الوقت شعرت بارتياح حتى غلبني النعاس.

انتبهت لدقات خفيفة على باب غرفتي، ثم وجدت السفيرجي يهرول نحوي بعينين قلقتين على الرغم من أنني لم أسمح له بالدخول، كان يحمل التليفون في سلة الخوص بعناية كباقة ورد، قدّم لي السماعة هامساً:

- رئاسة الجمهورية على الخط يا سامي باشا.

انتفضت من رقدتي، أمسكت السماعة مندهشاً، فزيارة العزاء مرّ عليها يومان فقط، ولا يمكن أن يكون مبارك قد تذكرني فجأة مرة ثانية.

- أفندم.

قلتها بضوت جهوري كأنني أرى الرئيس أمامي، لكن على الناحية الأخرى من الخط جاء صوت آخر من أتوقعه.. دينا يعقوب، انساب صوتها ناعماً بالرغم من أنها تعزيني في وفاة زوجتي، انتبهت لجدتي التي أتت على عجل لما أبلغها السفيرجي بالجهة المتصلة، رمقتني بنظرة قلقة على مستقبلي وكنت قد حكيت

لها ما جرى مني مع الرئيس مؤخرًا، لكن مع صوت دينا تاهت ملامح جدتي، غادرتُ حجرتي حاملًا سلة الخوص التي تحوي الهاتف، اخترت ركنا قصيًا بالشرفة وجلست ألهمت من فرط ارتباكِي.

ابتعدت دينا عني شهوً طويلاً واليوم تُخبرني برغبتها في الحديث معي كصديق، أول مرة تستخدم هذا الوصف لعلاقتنا، تاهت الكلمات من فوق لساني وضايقتني الكلمة، دخلتُ في دوامة حيرة بين مشاعري وعقلي، كلما ابتعدنا عن بعضنا وتعوّدتُ على مراسم الغروب تظهر كشمس تشرق من جديد. قرب باب الشقة نادتنِي جدتي مستفسرة بقلق:

- خير يا سامي؟

- خير يا نينة.. أظنه خيرًا.

غادرتُ قبل أن تستجوبني فتفضحني عيناِي، خاصة أنها منذ وفاة زوجتي لم تعد تتكلم تقريبًا مع أحد، توقفت عن لعب البريدج بالنادي وزهدت الحياة كلها فجأة بعدما تبخر أملها الأخير في طفل يحمل اسمي في حياتها.

خرجتُ وطوال الطريق لا تفارق أذني كلمات زوجتي في رسالتها الأخيرة، لكن هذه المرة كنت أسمعها بصوتها كأنها تتلصص على مشاعري من السماء.

مثلما تبدلت حياتي مؤخرًا، تغيّرت دينا مئة وثمانين درجة، عصف الثوّء بسفينة حياتها بعدما تركت عملها بالرئاسة كمترجمة، أعادوها إلى هيئة الاستعلامات في وظيفة إدارية بسيطة، فاستقالت لتعمل مترجمة حرة، ربما إكرامًا لخاطري لم يُنْكلوا بها، كان بإمكانهم رفتها ومنعها من العمل بأي جهة أخرى كعادتهم إذا ما غضبوا على أحد، وقتها يُحرّم من رؤية الشمس مرة ثانية، ويكون من المحظوظين لو ترك ينعّم بحرية التنقل داخل شقته ويطل على الدنيا من

- على فكرة أنا يمكن أتجوز، وقلت لازم أقولك لأن ما يصحش تعرف زي بقية الناس.

قالتها وهي تشعل سيجارتها ببرود غريب، بالكاد تماسكت ثم ارتفع صوتي رغماً عني سائلاً:

- تتجوزي إزاي ومين؟ أنا اللي هتجوزك يا دينا ومحدث غيري هيلمسك. خلاص الموضوع مش زي زمان.

مّطت شفتيها وهزّت رأسها بلا معنى، ثم حدّثتني عن صداقتها بيساري شهير لا يكف عن معارضة الرئيس، حتى ضاق به ومنع عنه الماء والهواء كما يقولون، فلم يعد يكتب في جريدة أو تظهر له صورة على شاشة أو يبث صوته عبر الأثير، أماتوه موثاً مدنياً حتى صار كأن لم يكن، قبل أن أقاطعها غاضباً غيرت الدفة بمهارة وسألتني عما إذا كنت أنقل لمبارك ما يقوله الناس، أخبرتها أن تلك الأمور لا تدخل في اختصاصي على الإطلاق، ثم عدت أسألها عن هذا المناضل الذي اختار جبهتي ليحارب عليها معركته الجديدة، ترددت دينا برهة، ثم أفصحت بحرص زائد عن أنها ربما تكون أحبته بعدما اقتربت منه مؤخراً، برّرت مشاعرها بانبهارها بعقله وأفكاره لفا وجدت مني غضباً مكبوئاً يكاد ينفجر بوجهها في أي لحظة، ولأنني شاهدت هذا المناضل على شاشة التلفزيون كثيراً قبل منعه، انتبهت إلى أنها تتكلم بنبرة صوته، وتقلد إيماءات جسده وحركات يديه ونظرة عينه كأنها صارت ظلّاً له، خارجة من بين ضلوعه، بعدما كانت تقلدني وحدي.

أشعلتُ سيجارة دون أن انتبه إلى أن في منفضتي واحدة لم تنته بعد، وقلت بغضب:

- أظن من حقي فرصة أخيرة أقنع فيها جدتي بجوازنا بعد وفاة مراتي.

- صدقني يا سامي المشكلة عمرها ما كانت في مراتك ولا حتى في جدتك ولا في الرياسة اللي كنت بـ «تتحجج بيها»، المشكلة في عينيك المتغمية طول الوقت.

- مش فاهم.

- مش هتفرق، أنا بس حببت أقولك وإفهم أنت على مهلك بعدين براحتك.

- يعني أنتي واخدة قرار وجاية تبلفيني به؟

- صدقني برضه الإجابة مش هتفرق سواء كانت أيوة أو لا، أنت عينيك متغمية زي ما قلت لك.

- يعني إيه؟

- يعني حببت أودعك للأبد لكن هنفضل أصدقاء أكيد لو احتجت لي، وإن كنت أشك في كذا كمان لأنني مش محتاجة لك.

أنهت دينا الحوار بهذه الكلمات وأشاحت بوجهها بعيدًا عني، ربما لم تستطع تحمل رؤية وجهي بعدما شبهتني بتمثال لرجل مات من الداخل ولم يُدفن بعد، أيقنت لحظتها أنها أتت لمحاكمتي دون أن تسمع دفاعي، حاولت للمرة الأخيرة فربما تكون مناورة نسائية، أمضيت ساعات معها محاولًا نزع هذه القشرة الخشنة عنها لأرى دينا الناعمة التي افتقدتها، لكنني في النهاية فشلت بعدما ألقت دينا بقنبلة في حجري، اتهمتني بالسلبية وضعف الشخصية، وأني حتى بعد رحيل زوجتي ما زلت أخاف من جدتي، وحتماً ستموت الجدة وتتركني وحدي ووقتها لن أجد من ينزع العصابة عن عيني، ارتدت كلماتها لوجهي كصفعات ربما لا يمحو الزمن أثرها، لم تكتفِ باتهامي بالعمى، بل تمادت بأنني اخترته وسعيت إليه، وكلما حاولت هي نزع العصابة عن عيني سارعت أنا بإحكام ربطها مرة ثانية، كدت أصرخ بأن العتمة لم تكن اختياري لكنها مجرد قشرة أحتمي بها

وعليها أن تساعدني لأنزعها عني، لكن الحروف علقت بحلقي كعقارب ساعة متوقفة، أدركت اليوم أن دينا أرادت الانتقام مني، ذبحي، وعلى الرغم من أنها أكدت رغبتها في إيقاظي من غفلي، فقد بدا لي أنه إيقاظ مؤلم، يشبه السقوط من عل بعدما دفعتني من الورااء، حتمًا سأموت لو استيقظت بطريقتك يا دينا، لكن اعلمي أنني لن أموت وحدي.

خطاب يصل متأخرًا

القاهرة/ جاردن سيتي / أكتوبر/ 1994

في بعض الأحيان يحترق الإنسان من داخله، يتحول صدره إلى موقد يُطهى فيه الندم والذكريات على مهل، كما تُطهى القرابين في المعابد القديمة التي نسيها الكهنة بعدما شيدوها وصلى الناس فيها.

وقف سامي أمام المرأة يتأمل قميصه الأزرق، لونه داكن، أشبه برداء المساجين المحكوم عليهم بسنوات طويلة وراء الأسوار، لون فُرض عليه طوال حياته، لكن في لحظة قرر أن يجزّب التمرد حتى لو كان بعد فوات الأوان، خلع قميصه دون أن يفك أزراره، اقترب من المدفأة وألقاه فيها بغير تردد، احترق القميص بسرعة مذهشة كما لو كان ينتظر هذه اللحظة منذ خياطته، اشتعل من الياقة ثم احترق الصدر وتآكلت الأكمام، انفجرت الأزرار واحدًا تلو الآخر كطلقات مكتومة الصوت، بدا القميص ككفن التهمته النار، بينما أصوات طقطقة خفيفة تنبعث منه كتنهدات أرواح معلقة.

ظل جالسًا في مكانه، محنيًا قليلًا، يراقب المشهد كهازف يستمع إلى ارتجال لم يكتبه أحد في نوتة لكنه يعرف متى ينتهي.

بعد أن خمدت النار نهض وفتح خزانة ملابسه، القميص الأصفر لا يزال هناك، مُعلقًا في الزاوية اليسرى، لم يلبسه يومًا في حياة جدته، ربما نسيه أو تظاهر بالنسيان، كان القميص أول هدية من دينا يعقوب في عيد ميلاده، وعندما رآته جدته وعرفت مصدره، قلبته في ضيق بان على ملامحها، ثم قالت وهي تتخلى عنه بقرف كشيء مقزز لزج:

- لونه بلدي أوي، ذوق يليق بواحد بيشتغل كوافير بالكثير.

وضع القميص بين يديه كمن يحمل وليده بعناية وفرحة، ملمس نسيج القماش بدا دافئاً كأن الغياب نفخ فيه روحاً أخرى، ارتداه على مهل ولم ينظر إلى المرأة، لم يكن بحاجة لأن يرى وجهه، يشعر بالانتصار كبطل إغريقي يغادر حكاية قديمة ليبدأ قصة جديدة، ولأول مرة منذ عقود شعر أنه حر، لا من قيود الجدة وأصفادها، بل من نفسه القديمة التي كانت تُصلي في معابدها حتى كفرت بكل شعائرها.

كلما عاد لبيته يشعر أنه يتفقد سجنًا قضى فيه كل شبابه، ينظر بشرود إلى المكان الذي كانت تجلس فيه جدته. مكان ثابت تركه على حاله كأنها لا تزال هنا، الكنبه الزهرية المطلقة على ميدان، براد الشاي الصغير على مقربة منه كنكة القهوة والسبرتاية، ثم الراديو المُعطّل الذي لا يلتقط غير الذكريات.

في شهورها الأخيرة كانت عيناها ميتتين، تتوهجان فقط عند رؤيته، وقتها لم يكن قادرًا على الابتسام بعدما فقد كل شيء، كانت تسأله أحيانًا إن كان قد أكل، إن نام جيدًا ليلة أمس، إن حدث شيء جديد في عمله، إلا الموسيقى والكمّان لا تقترب منهما أبدًا، وهو لا يجيب عن أسئلتها، ربما لم يَعد يلومها لكنه لا يسامحها، عاش يتمنى العودة إلى زمن كان فيه حُرًا بما يكفي ليحلق عاليًا، فيكتشف في كل محطة يمر بها أنه وُلد مُقيّدًا.

زفر في ضيق ثم حام شبح ابتسامة حول شفّتيه لما وقعت عيناها على لوحة جده الأكبر التي تعلقها جدته بالصالون، نظر لعيني الباشا في الصورة فأكملت ابتسامته، عينا الباشا مخزوقتان بعدما وضع فيهما قوس الكمان منذ أسبوع ليُشعر براحة كبيرة بعدها كلما صادفت عيناها الصورة.

في تلك الليلة ظل جالسًا لساعات بشرفة البيت الواسعة، بدا كنقطة سوداء في فراغ كبير، يراقب الأشجار التي تلوح له بغير ودّ، تعبت الريح بأغصانها كما

تعبت فكرة صغيرة بمصير رجل تائه، لا صوت في البيت إلا أنين آتٍ من أعماقه، لا يُسمع إلا عندما يُنصت لذاته، شيء ما بداخله ذُبل وجفٌ كما تموت الورود فوق المقابر. على المنضدة القريبة فنجان قهوة لم يُمس، وجريدة مفتوحة على صفحة الوفيات، ذكرى اليوم الأربعين لرحيل جدته تتصدر الصفحة بصورة قديمة لها، تبدو فيها وديعة طيبة متسامحة، بنظارتها الطبية الذهبية الرقيقة وشعرها الأحمر القصير، لم تكن الجدة سوى حجرٍ أخير يسدُ فوهة البئر، وكانت دينا والموسيقى هما الماء المُحرّم الذي لا يُشرب، حلمه كان بسيطًا ذات يوم، أن تستقرّ ابتسامتها في غرفة نومه، بين ذراعيه، أن تشرب قهوته باردة دون تذمر، أن تُصلح زُرًا سائتًا في قميصه، لكن الصورة تشوشت والابتسامة تبخرت، والقهوة باتت تُقدّم في منزل آخر، وحضنه صار خاويًا. كان يظن أن دينا تناور، تثيره بحكاية زواجها ليتقدّم لها، لم يكن في حساباته أن تُسقطه امرأة من عليائه كما تُسقط الريح ورقة مبلة من غصنٍ عالٍ، ولا أن يجيء رجل آخر فيمد قلبه إلى دينا فتأخذه بطمأنينة من يعرف طريقه، بينما يظل هو واقفًا على عتبة نفسه، يعصّ على كبريائه كما يتمسك الغريق بما يحسبه طوق نجاة.

أطارت الريح الورقة من فوق المنضدة فالتقطتها أصابعه، خطاب تعيين في وزارة الخارجية باسمه في وظيفة ملحق دبلوماسي ثالث، عثر عليه بخزينة جدته بعد رحيلها بيومين، مَرَّ بعينه على سطورهِ ثم أخرج ولاعته وأشعل النار في طرفه، ووضعه في المنفضة مستمتعًا بتقلصه وهو يحترق، ثم تداعت الذكريات كشلال من رأسه، عن رغبة قديمة في نهاية السبعينيات يستحيل تحقيقها اليوم، فأغمض عينيه وهو يركز على أسنانه في غضب مكتوم.

بعد تخرجه في كلية الشرطة بعام، قرر القيام بمناورة فردية جريئة، تسلل خلف خطوط دفاع جدته كجندي شجاع يريد أن يهزم الرقابة والانصياع للأوامر التي لا تروق له، حلمه القديم في الالتحاق بالسلك الدبلوماسي كان يضيء ليالي طويلة من الملل قضاها بتكنات كلية الشرطة طالها، حتى بات رغبة جارفة لا

سبيل لتحقيقها إلا بتلك الخطوة الواسعة، للهروب من محيطه دون ضجيج، لكي يمدّ رأسه من نافذة يطل منها على العالم، كمن يتنفس لأول مرة بدون قناع.

اجتاز الاختبار التحريري بسهولة، وتقدم للمقابلة الشفوية مطمئناً، كل شيء في صالحه، ضابط شرطة شاب، ملامحه أجنبية إلى حد كبير، طويل وعريض ويشبه الممثل الصاعد حسين فهمي كما تقول جدته، ينتمي إلى عائلة أرستقراطية لها جذور عميقة، ويجيد الفرنسية والإنجليزية كاللغة العربية، لابد أن وزير الخارجية لن يتردد لحظة في تعيينه.

يوم المقابلة ذهب متأنقاً ببذلة كحلية وربطة عنق من اللون ذاته، الذي تفضله ديناً عليه، في طريقه توقف بميدان التحرير، حرص على لمعة صارخة لحذائه عند أشهر جزمجي هناك، ثم عبر الميدان بتاكسي حتى لا تنال الرطوبة من أناقته وتصفيف شعره، دخل مبنى وزارة الخارجية العتيق فوجد مئتي شخص على الأقل ينتظرون دورهم مثله، حصل على رقم مكتوب بخط اليد على ورقة نتيجة مقطوعة تخص العام الماضي، ثم جلس على السلم ينتظر دوره مستعيناً بالصبر والتدخين.

الوقت يمر ببطء والوجوه العابسة لمن خرجوا من المقابلة لا تبشر بخير، كل منهم يخرج كأن روحه فُرمت بين شقي رحي، اقترب منه شاب ريفي اللهجة ناعم القسمات لزج الابتسامة، قدم له سامي سيجارة فأعاد الشاب يده معتذراً، معتزاً بأنه لا يدخن، ثم اقترح أن يذهبا معاً إلى جامع عمر مكرم لصلاة ركعتين لعل الله يكتب لهما القبول.

بدا التردد على ملامح سامي فهتف الشاب:

- لسه قدامنا مية وخمسين اسم على ما يندهوا علينا.

اقتنع وسار وراءه، انتهت الصلاة وبالع زميله في الدعاء بينما سامي يؤمن على كلامه الذي لا يفهم أغلبه، وعندما خرجا اكتشف سامي سرقة حذائه، أشار

زميله عليه بأن يرتدي قبقاب الجامع، مؤكداً أن أعضاء اللجنة لن يروا قدميه من خلف الطاولة أثناء المقابلة الشفوية، ثم جرى مسرعاً ليلحق بدوره، تركه حائزاً حافياً يتأمل نفسه في ذهول كأن حلمه هو الذي سرق منه، وما بين الحيرة في مصيره والسخرية من حاله هداه تفكيره إلى القفز في أقرب تاكسي متوجّهاً إلى بيته القريب في جاردن سيتي، هناك ارتدى حذاءً آخر بلا لمعان وعاد مسرعاً إلى الوزارة، ما إن دخن نصف سيجارة هذه المرة حتى نادى المنادي باسمه، دخل بثقة شاب يعرف أنه مناسب لكل المناصب، لكن فور دخوله تعثر في سجادة المكتب الفخم وانكفاً على وجهه من فرط انشغاله بالنظر لحذائه، سقط بامتياز أمام لجنة السفراء، مع ذلك نهض بسرعة وابتسم محاولاً محاصرة ارتباكهم، لكن السفير عمرو موسى عضو اللجنة انفجر ضاحكاً، فأصابت عدوى الضحك الباقين حتى طالت شفتي وزير الخارجية فانفجرتا، ووسط شلال من العرق، ظل سامي يجيب عن الأسئلة بصعوبة، مستدعيًا بالكاد ما تبقى في عقله من وعي.

عاد يومها إلى البيت دون أمل، خسر المعركة وانسحب قبل أن يطلق رصاصة واحدة، كتم السر أسابيع، ولما طال الوقت وتيقن أنه لن يُقبَل، جلس أمام جدته واعترف لها بما جرى بعدما اقتنع برسوبه، فاجأته بتهوين الأمر عليه وأنها تعرف العديد من زوجات السفراء وسوف تتابع الموضوع بنفسها. بعد أقل من أسبوع أبلغته الجدة أن لكل جواد كبوة وأن الخارجية هي الخاسرة لأنها لم تقبله، فسُرت الأمر بأنه لم يكن مقدراً له السفر، وأن الله اختاره ليبقى معها، وفي اليوم ذاته كتبت باسمه خمسين فداناً من أملاكها حتى ترضيه، واشترت له سيارة جديدة كعادتها معه كل عام، لكن هذه المرة بسقف مكشوف.

مرّت الأيام ومزّ الحلم معها. الآن بعد رحيلها يجد خطاب التعيين في خزانتها، ملفوفاً بعناية في قطعة قماش سوداء تُعلن الحداد الدائم على أحلامه، أدرك أنه لم يرسب في الاختبار، وأن الفرصة الحقيقية هي التي تعثرت في عقل جدته حين تسلّمت خطاب التعيين قبله وأخفته، ربما رأت في السفر مرضاً، وأن الحب

لا دواء له إلا بالإخفاء.

ضيف شرف

باريس / منطقة إيننا / يناير / 2015

تبدو السفارة المصرية بباريس من بعيد كمبنى أرشيقي عتيق يحفظ أسرار التاريخ، واجهته البيضاء وأعمدته العالية ونوافذه المستطيلة التي تلمع واجهاتها تحت مصابيح الشارع الحجرية، كلها تضيء عليه مزيدًا من الكلاسيكية وكثيرًا من الغموض.

أمام البوابة الخارجية السوداء وقفت سيارتا شرطة فرنسيتان. حضور صامت صار جزءًا من المشهد كلما كان ضيوف الحفل من الشخصيات العامة.

دخل سامي بخطوات محسوبة، يعرف أن كل جدار هنا له آذان، وأن رخام البهو انعكست عليه من قبل ظلال لرجال جاؤوا من القاهرة بحقائب أسرار بعد ثورة يناير، فقرر أن يبدو أحرص قدر الممكن، ويجيب على الأسئلة الشائكة بالابتسام، عبّر حديقة صغيرة تحرسها أشجار ليمون مصطفة كجنود استعراض، وفي الداخل توزعت الأرائك الجلدية على الجانبين، وفوق الطاولات أطباق فضية تلمع تحت الثريات الكريستالية تحوي مقبلات خفيفة، على الجدران لوحات زيتية إلى جوار صور الرؤساء من ناصر إلى مبارك، ثم علم مصر كأن أحدًا لم يأت بعده، وفي آخر البهو سلالم عريضة تلتف صاعدة إلى الطابق العلوي. لم يكن سامي عرفان في حاجة إلى إعلان اسمه باعتباره ضيف شرف حفل كوكتيل الليلة بالسفارة، الهمس يسبق خطواته بين المدعوين، والعيون تلتقطه من فوق كؤوس الشامبانيا، ظل يتنقل بين الطاولات بخفة وابتسامة واثقة، حنينه للقاهرة جعله يقبل الدعوة بغير تفكير، والحفاوة التي لقيها عند وصوله جعلته يحلق كفراشة، حتى ظهر دبلوماسي مهيب الظلة ببدلة رمادية

داكنة، وربطة عنق حبرية خضراء ذات عقدة ضيقة، ظن سامي من هيئته أنه السفير.

اقترب الرجل منه بخطوات محسوبة، كصياد يعرف أن طريدته صارت فرصها في الهرب محدودة، ولا يتبقى سوى الركض نحوها تمهيدًا للانقضاض عليها، تناول كأسه ورفعها قائلاً بنبرة ودودة وهو يقدم نفسه:

- العميد طارق زيدان، تقدر تعتبرني الليلة نائبًا عن معالي السفير، الليلة فقط.

لم يترك الرجل له وقتًا ليتأمل العبارة، بدأ يتحدث بنبرة ودودة تتخللها نقرات خفية تشي بتحقيق لا دردشة، يفتح دائرة صغيرة عن حياة سامي في القاهرة ثم يغلقها ليقفز إلى دائرة أخرى، خدمة المراسم، علاقته بالرئيس مبارك، تفاصيل صغيرة لا يلتفت لها إلا من تمرّس على قراءة ما بين السطور، دار بينهما حوار طويل، بدا منه الرجل القادم للخارجية من خلفية أمنية محاورًا فضوليًا عتيذًا، يمزج بين الود الدبلوماسي والتحري البوليسي، ظل يفتح دوائر الأسئلة ويغلقها بمهارة، ثم يعاود الحصار من زاوية جديدة لتظهر خبرته في اقتناص الثغرات واستغلال التفاصيل الصغيرة، يرمي إشاعة ممزوجة ببعض الحقيقة، يُبدي ملاحظة عابرة لكنها مربكة، يرد على أسئلة سامي بسؤال استفهامي ليتهرب من إجابة، وبعد ثلث الساعة فقط نجح في دفع سامي عرفان إلى حافة التوتر.

قال العميد وهو يحرك قطعة ثلج في كأسه ببطء:

- سمعت أنك كنت قريب جدًا من الرئيس مبارك، قريب بالقدر اللي يخلي تعليماته توصلك قبل غيرك، يا ترى كان عامل معاك إيه في الشغل؟

ابتسم سامي وقال بكلمات محسوبة:

- كنت موظف في المراسم، واللي يعرف شغل المراسم يعرف أنه دقيق أكثر ما هو قريب.

أمال طارق زيدان رأسه كمن يصغي إلى موسيقى غير مسموعة ثم تابع:

- غريبة، بعض الزملاء في القاهرة بيحكوا عنك صورة مختلفة، صورة لواحد كان له حضور في أماكن ما يدخلهاش موظف مراسم عادي.

شعر سامي بانقباض في صدره، لكنه تجرع من كأسه رشفة طويلة قبل أن يجيبه واضحًا ابتسامة صفراء:

- الناس بتحب تبالغ، خصوصًا بعد الثورات، أي حد خدم في مؤسسة سيادية بيتحول فجأة لشخصية أسطورية.

ضحك طارق زيدان ضحكة قصيرة وقال:

- صحيح... الأساطير دايماً بتغطي على الحقيقة، لكن المشكلة إنها ساعات بتتشابه مع الواقع.

ساد صمت قصير كأنه خيط شدّ بين الاثنين، في نهايته أدرك سامي أنه أمام رجل يعرف أكثر مما يقول وعليه الحذر. فجأة انحنى العميد زيدان قليلًا، اقترب حتى اختلطت أنفاسه بأنفاس سامي، وبصوت هادئ سأل:

- قول لي بقي بحكم خبرتك، لو ما قامتش ثورة في مصر كنت شايف سيناريو التوريث ماشي إزاي؟

أدرك سامي الفخ، السؤال ليس عن التوريث بل عن معلوماته الأمنية، عن موقعه وقتها، ابتسم كأنه لم يفهم العمق وقال:

- أنا كنت بعيد عن السياسة تمامًا، شغلي استقبالات ومراسم وزيارات رسمية. وبعدها عمل إداري مش أكثر.

رفع طارق حاجبيه كأنه يستنكر التبسيط، ثم همس:

- واللييلة دي... برضه هتكتفي بالحديث مع ضيوف السفارة عن المراسم

والزيارات والاستقبالات ولا ناوي تعزف لنا؟

تجمد سامي للحظة، ثم قرر أن يرد بهجوم مضاد وهو يبتسم بلزوجة:

- هو معاليك خدمت فين قبل كدا؟

ارتسمت على شفتي العميد طارق ابتسامة باردة، وقال:

- في مصر، ده أول منصب ليا في أوروبا، وعمومًا الوظائف بتتغير لكن طريقة التفكير عمرها ما بتتغير.

نظر له سامي باستغراب وقال بنبرة استنكار:

- هو مش معاليك بتقول إنك عميد؟ تبقى أكيد سمعت وعرفت أكثر مني في الجهة اللي حضرتك اشتغلت فيها.

- عميد بحري.. بعيد عن اللي بيحصل على الأرض يا سامي بيه.

- وسعادتك القنصل هنا والا وظيفة تانية؟

تجاهل العميد طارق زيدان سؤاله واسترسل قائلاً:

- بيقولوا الرئيس كان بياكل كيلو جمبري مسلوق كل يوم الضهر، صحيح الكلام دا؟

أجابه سامي بقرف هذه المرة:

- لا.. ده كلام فاضي، إشاعات من بتوع الإخوان.

ابتسم العميد ابتسامة مقتضبة، فأردف سامي بسخرية هذه المرة:

- تفتكر معاليك أن موضوع الجمبري المسلوق ممكن يبقى مؤشر على أي حاجة؟

هز العميد رأسه وقال:

- عندك حق.

أذاب مكعبات الثلج وهو يديرها بإصبعه في كأسه، ثم تحرك ببطء حول سامي كما لو كان يضيق دائرة استجواب غير معلنة:

- خدمت فين بعد ما سببت المراسم يا سامي باشا؟ أكيد مش في أي إدارة، أنت معروف بدقة شغلك.

في تلك اللحظة أدرك سامي أن لدى الرجل شكوكا دفعته للسؤال، أيضًا نبرته وهو ينطق حروف كلمة «باشا» لا تشي بغير ذلك، وعليه الآن أن ينسج كذبة تبدد ظنون الرجل وتسكت فضوله.

لم يكن سامي غريبًا عن ذلك الفن، أتقنه من قبل في مكاتب مغلقة لا يدخلها النور فلم تنكشف كذبه، ملأ كأسه مضاعفًا وتجرعه دفعة واحدة ثم بدأ يروي للرجل تفاصيل عن أعمال إدارية كلها تُجرى في الظل بالرئاسة، تحدّث عن مهام لوجستية لا يعرف عنها أحد شيئًا، بعضها ألفه عفو الخاطر وهو يتكلم، عن ملفات بروتوكولية لم تُعلن رسميًا، لكن الرئيس كان يكلفه بها مباشرة، تكلم بثقة كأنه يسرد حقائق كعاداته، بينما من داخله يعرف أنه يخفي سنواته الطويلة في الجهاز السيادي خلف ستار ضبابي لا ينبغي لأي نور أن يشقه. تجرع بعضًا من كأسه ودارت رأسه قليلًا، ثم قال مبتسمًا بثقة:

- تقدر تقول إن سيادة الرئيس كان بيثق في، فكنت أقرب لمبعوث شخصي، ومعاليك عارف طبقًا إن الشغل أسرار.

هزّ نائب السفير رأسه كمن يصدق، لكنه ظل يحدق في وجهه بعينين ضيقتين باحثًا عن ثغرة في كلامه، حتى شعر سامي أن المسافة بينهما صارت أقرب مما ينبغي، وأن رائحة عطر الرجل تخترق مسامه، تكاد تلتصق بقميصه كما تلتصق الشبهة بصاحبها. ابتسم العميد نصف ابتسامة وهو يقول بصوت تعفّد رفع نبرته

هذه المرة:

- غريبة...مع إن في ناس كثير في القاهرة لسه فاكرينك لكن بطريقة ثانية خالص، مش مدير مراسم ومبعوث شخصي زي ما سعادتك وضحت باستفاضة مع إن الشغل أسرار.

ترك العميد كلماته معلقة كعصاة ثقيلة فوق عيني سامي، ثم ربت على كتفه ورفع كأسه وهو يقول بخفة ظاهرية:

- في صحتك يا سامي بيه.

شعر سامي أن الأرض تميد تحت قدميه، ثم أحس أن الإضاءة بدأت تخفت، والهواء صار ثقيلًا رطبًا كما في غرفة استجواب يعرفها جيدًا، مذيده إلى كأسه وتجرع ما تبقى دفعة واحدة، ثم سأل الرجل بثقة مبعثرة:

- خير يا فندم بيقولوا إيه عني في القاهرة؟ ومين هممة اللي بيتكلموا عني؟ وإيه المناسبة؟

ضحك العميد بصوت خفيض بعدما اشتد خوف سامي، ربت على كتفه قائلاً:

- ما تشغلش بالك كله كلام فاضي، إشاعات من بتوع الإخوان على رأيك.

رفع الرجل كأسه، لكن قبل أن يبادل سامي النخب لمح امرأة من بعيد، شعر أنه يعرفها، لكن عقله فشل في تذكرها، كانت تقترب لتبدو ملامحها أكثر وضوحًا، يجاهد ذهنه في استدعاء اسمها أو ظروف معرفتها لكنه لا يفلح أيضًا، انتحى سامي جانبًا عندما وجد البعض من حوله يفسحون الطريق لها، امرأة خمسينية، ترتدي فستانًا أسود أنيقًا وشالًا حريريًا ملوّنًا، توقفت عنده وصافحته بحرارة، قدمها له نائب السفير باعتبارها زوجته، اقتربت السيدة منه أكثر قائلة بصوت خافت لكنه واضح:

- صدفة جميلة أشوفك هنا يا فنان يا عالمي.

تلعنمت حروفه بعدما شعر أنه سمع هذا الصوت من قبل وأيضًا الملامح ليست غريبة عنه:

- أهلا وسهلا مدام، تشرفنا.

قدمت نفسها قائلة:

- مدام إيه يا سامي؟ غريبة أنك مش فاكروني، مع أنك أنت اللي شكلك اتغير، نضارة سودة طول الوقت ودقن بيضا مغيرة ملامحك خالص، أنا نادية الزيني صاحبة دينا يعقوب من أيام المدرسة. ياترى فاكروها والا نسيتها هي كمان؟

انغrust كلماتها في صدره كخناجر، تجفدت ابتسامته، بينما العميد زيدان يراقب المشهد بعينين تتسعان كأنهما وجدتا ما تبحثان عنه وأذنين أقرب لرادار. أشعل سامي سيجارة مخالفاً قواعد بروتوكول المكان بمنع التدخين، ثم قال ببرود:

- أهلا نادية، طبعا فاكرك، معلش أصل الكلام أخدني مع طارق بيه، إزيك وإزاي دينا؟

ضربت ذراعه عفوياً برفق وقالت:

- أنا كويسة، لكن أنت أكيد سمعت عن اللي حصل لدينا قبل وبعد الثورة. ارتشف ما تبقى من كأسه وأشار للجرسون ليصب له أخرى، ثم قال دون أن ينظر لعيني نادية:

- الحقيقة معرفش أي تفاصيل خالص لا قبل ولا بعد، آخر مرة شوفت دينا كانت من سنين طويلة، بعد إذنك.

وضعت السيدة جسدها في مواجهته لتسد عليه طريق الهرب، وقالت بدهشة:

- معقول ما تعرفش اللي حصل؟ إزاي بقي؟ حتى بحكم شغلك يا سامي.

- لا شغلي بعيد خالص عن اللي حصلها.

- يعني عارف أهو اللي حصل.

ارتبك سامي ولم يعرف بماذا يجيب، لا يعرف إجابة الشق الثاني من كلام نادية عن الذي حدث لدينا يعقوب بعد الثورة، ولا يريد أن يتورط في سؤال آخر حتى لا يُجبر على تقديم إجابة عن الشق الأول الذي تسبب فيه بتسريعه لنفي التهمة عنه، تعثرت الكلمات في حلقه وضاحت أنفاسه، وقال بصعوبة:

- قصدي عارف جزء من الحكاية لأنها طلبت مساعدتي وقتها، لكن معرفتش أعمل حاجة ومن يومها مشوفتهاش.

- غريبة أنك تبقى في الرئاسة وقريب من مبارك وما تعرفش.

- بعد إذنك أنا محتاج أروح التواليت.

قالها بجدة مخالفاً بروتوكول الحديث هذه المرة ليجبرها على فتح طريق له، وعندما غادر دورة المياه خرج إلى الشرفة باحثاً عن هواء وخصوصية بعيداً عن العميد وزوجته، الكلمات عن دينا يعقوب ارتدت داخله كصدى، الحرارة تصعد إلى رأسه، والموسيقى من حوله تتحول إلى ضجيج لا يُحتفل، ووسط ذلك كله كان الفضول لمعرفة ما حدث لدينا بعد الثورة يلتهمه بنهم، أراد أن ينسحب من الحفل، لكن السفارة بدت له كحصن مغلق، أشعل سيجارة، لكن لم يكد ينفث أول خيط من دخانها حتى ظهر العميد طارق زيدان من خلفه بصحبة نادية كأنهما يطاردانه، وضع الرجل يده على ذراعه قائلاً بابتسامة صغيرة:

- معلىش بقى معالي السفير الليلة مشغول مع السفير الأمريكي ومش هيقدر ينضم لنا، وكلفني أرحب بيك وبيعتذر لك، تعالى بقى نعرّف ضيوف مصر بفنك يا نجم يا عالمي والا تحب أقدمك بلقب ثاني؟

- لا أنا معنديش أي ألقاب يا سيادة اللوا.

- لآ.. أنا عميد.. عميد بحري، عمومًا فال حلو منك يمكن أترقى لواء، مع إن في ناس كثير بتخرج من الخدمة وهي على رتبة عقيد رغم أنها خدمت البلد سنين طويلة في الضل.. تخيل؟

هز سامي رأسه بلا معنى ورفع كتفيه، ثم مضى وراءه كالبهيمة المساقة للمذبح حتى وصلا إلى الصالة الرئيسية، قذمه للحضور بأنه العازف العالمي سامي عرفان، صفقوا له طويلاً، ثم أضاف العميد طارق بنبرة خبيثة:

- هنستمع الليلة بموسيقى سلطان.....

قطم كلامه فجأة، وسكت لوهلة، خطف معها نظرة لملاح سامي، ثم أردف مبتسماً:

- سلطان الطرب والعزف على الكمان، سامي عرفان.

ارتفعت الأيدي بالتصفيق مرة ثانية بينما غلت أنفاس سامي حتى باتت مسموعة كأنها مفتتح لحن لن يعزفه، تحرك متوترًا في مكانه، العيون عليه، والكمان في يده كأداة اعتراف علنية تنتظر بدء البوح، رفع الآلة بيد مرتعشة، حاول أن يبدأ، اهتز القوس في كفه، خرجت النغمات متعثرة، مضطربة، ثغالت نظرات الدهشة من المدعوين وارتفعت همهماتهم، في حين جلس العميد طارق زيدان بالصف الأخير واضعًا ساقيًا فوق أخرى وهو يبتسم في ثقة.

هاجس أمني

القاهرة/ قصر الاتحادية/ مايو/ 1995

على مدار ثلاثة عشر عامًا ظل سامي عرفان مصاحبًا للرئيس مبارك في كل تحركاته، ظل مُدْرَبًا على الصمت والالتفات للوراء في اللحظة المناسبة، موظف مراسم لا يلاحظه أحد، لكنه موجود في كل وقت، يُكَلَّفُ بمرافقة الوفود الأجنبية من باب الطائرة إلى بهو القصر الجمهوري، يهمس بالإشارات لضباط الحراسة المتجهمين، يراقب نظرات السفراء وهم يتفحصون سجاد الاستقبال وأطقم الكريستال ورياش الصالونات الملكية القديمة ويتهايمسون فيما بينهم لينقل ملاحظاتهم للرئيس، يتلقى تعليمات لا تُسَجَّلُ ويحوّلها إلى حركة جسد لا تخطئ، يُدير ما يشبه مسرحًا خفيًا تتبدّل فيه الأدوار وتُدارى العثرات كأنها لم تكن، يقرأ الوجوه ليمنع أي مشهد عفوي من التسرّب إلى الكاميرات.

منذ يومين تعرض لاختبار صعب، انسحب وزير خارجية موزمبيق مع سفيرها بالقاهرة من جلسة مباحثات بقصر القبة لدول الاتحاد الإفريقي، حدث الأمر بصورة مفاجئة قبل دخول الرئيس مبارك للقاعة، بعد أن سُئِلَ السفير من مساعد وزير الخارجية المصري بسخرية غير مقصودة عن اسم قبيلته، ولما ذكّره السفير ظنّه مساعد الوزير فعلاً لا اسماً، فعلّت الضحكات على استحياء، ألقى سامي اللوم على المترجم الموزمبقي تجنّباً لأزمة دبلوماسية، ثم حاول أن يعيد ترتيب اللقاء بسرعة قبل وصول الرئيس مبارك. همس في أذن مساعده أن تُقدّم أطباق فاكهة فوراً قبل أن تتصاعد الهمهمات، ثم أملى على الجرسون تعليمات بتقديم المشروبات الساخنة ببطء مدروس حتى يكسب وقتاً إضافياً، نجح في أن يقتنص ربع الساعة كاستراحة كما لو كانت جزءاً من البروتوكول، ثم اصطحب وزير خارجية موزمبيق وسفيرها بالقاهرة ناحية الحديقة الخلفية، كان هناك

فنان نوبي يؤدي فقرة غنائية أمام السيدة سوزان مبارك وضيوفها من زوجات السفراء الأفارقة، أقنعهما سامي عرفان بأن الرئيس أراد مفاجأتهما بعرض غنائي تحية لهما، فهي المرة الأولى التي يزور فيها مسؤول موزمبيقي القاهرة، لذا كان السؤال من مساعد وزير الخارجية المصري عن القبيلة مصحوبًا بابتسامات مودة من الجانب المصري لمعرفتهم المسبقة بالمفاجأة.

نجحت الحيلة مؤقتًا، فطلب سامي من سكرتارية الرئيس تأخير دخوله لدقائق أخرى بسبب تواجد وزير الخارجية الموزمبيقي وسفير دولته مع السيدة الأولى بالحديقة، مُوقِنًا أنه عذر يصعب رفضه من جانب مبارك. بعد ربع الساعة همس سامي في أذن سفير موزمبيق بأن الرئيس سيلتقي بهما، عاد الوزير والسفير إلى القاعة مبتسمين أمام الكاميرات، صافحا الرئيس بحرارة عند دخوله القاعة وشكراه، يومها أفلتت من مبارك ضحكة خفيفة، بينما سامي يُقدِّم سفير موزمبيق بالقاهرة الذي يلتقيه مبارك لأول مرة منذ تقديم أوراق اعتماده، وظن السفير أنها حفاوة زائدة بدولته.

مرّت سحابة الأزمة ولم يفتن الصحفيون للحقيقة، ظلّ الحدث مُسجلاً في التقارير والأرشيف كمؤشر على «الدفع الشعبي» في العلاقات بين مصر وموزمبيق.

من بعدها ظلّ سامي يتقن لعبة التجميل اللحظي، وعلّت أسهمه فاتجعت الأنظار نحوه، كان أشبه بساحر، يخفي المترددين وراء ستار سميك ليتصدر المشهد وحده، يهمس بالأسماء التي نسيها الرئيس وهو يصافح أصحابها في طوابير الاستقبالات، يصحّح ترتيب المقاعد دون أن يراه أحد، حتى صار هو نفسه جزءًا من ديكور الدولة التي تهتم بمظهرها طوال الوقت، بالرغم من أنها دولة عجوز مستلقية غالبية الوقت على جنبها في هدوء، لا تحب المفاجآت ولا يشغلها مستقبل.

ربما لم يكن سامي يرى الانهيار، لأنه تعلم أن ينظر إلى ما يُعرض لا إلى ما يُخفى، لم يُكلّف بالسؤال عن المضمون، ولم يكن يفهم في السياسة ولا ينجذب لموضوعاتها، كل شيء عنده يُقاس بالبروتوكول، بربطة العنق الداكنة المحكمة، بالمنديل البارز طرفه على يسار الصدر، بالخطوة المئزنة التي تسبق الرئيس وئمهده له الطريق وتشرح المشهد، تعلم فقط كيف يُدير الصمت ثم يشقه بصيحة النداء التعريفية معلنا حضور السيد رئيس الجمهورية، يحفظ الإيماءات، يعرف متى يتقدم خطوات ومتى يتأخر خطوة واحدة فقط، لكن ظل حضوره طوال الوقت مثل ضيف شرف في فيلم سينمائي طويل، لا تحمل التترات اسمه، ومع ذلك ضاقت به الدائرة الأولى المحيطة بالرئيس وبدأت تخطط للخلاص منه.

على مدار النهار تمرح حشرات غريبة الأشكال والأحجام والألوان بعشوائية فوق زجاج النافذة الموصدة بإحكام، تنتهز أي فرصة للدخول إلى غرفة بالفندق وامتصاص دماء الضيف الأبيض الضخم الذي لا يغادرها تقريبا، لكنه يُغريها بحركته أمامها وهو شبه عاري.

أمضى سامي نهاره كله جالسا بغرفته في الفندق المطل على نهر «أواش» بالحبشة، يتأمل قمم الجبال البعيدة حتى ابتلعت قرص الشمس، تلك الليلة خلد للنوم مبكرا بعدما راجع أوراق كلمة ومسار الزيارة الرئاسية، منذ وصول مبارك حتى مقر المؤتمر بالفندق غرب العاصمة الإثيوبية، والذي يبعد عن المطار نحو نصف الساعة بالسيارة.

قبلها بيوم وصل سامي العاصمة أديس أبابا، لكن منذ أسبوع وقلبه منقبض من الزيارة، لا يعرف سببا محددا لهواجسه التي ظلت تكبر كبالون يوما من بعد يوم، وقبل سفره بليلتين، انتهز فرصة وجوده مع الرئيس بمفردهما بقصر الاتحادية خلال الدقائق القليلة التي تفصل بين مواعدين، وأفاض بمخاوفه كلها، ليزيحها

عن صدره، دون تردد استأذنه قائلاً:

- يقترح يا فندم ناخذ العربية المصفحة بتاعتنا بالسواق.

- ليه يعني؟ في تحذيرات أو تقدير موقف بالخطر؟

سأله مبارك بقلق، لكن سامي أجاب بنفس النبرة الهادئة الواثقة:

- مفيش سبب محدد يا فندم، مجرد هاجس أمني.

يعرف سامي جيداً وقع هذه العبارة على أذني الرئيس، لكنه هذه المرة كان صادقاً، استدعى مبارك فوراً رئيس الديوان ورئيس الحراسة الشخصية ورئيس المخابرات العامة، عرض عليهم الموضوع فأشاروا جميعاً بعدم وجود مانع، لكن بعضهم اتهم سامي بالمبالغة. أوضحوا أن إجراءات التأمين بأديس أبابا تسير على مايرام وفقاً لتقرير فرقة الاستطلاع وبرقيات وزارة الخارجية المشفرة، ولا يوجد ما يستدعي القلق لكن لا مانع من شحن السيارة، في نهاية الجلسة أبدى قائد حرس الرئيس تحفظه بسبب تدخل سامي في إجراءات التأمين، شنّ عليه هجوماً كلامياً حتى نظر مبارك إلى معاونيه الكبار في ضيق، كأنما يبحث عن اعتراض آخر في عيونهم، ولما لم يجد، التفت ناحية سامي قائلاً بعينيه «خلصنا بقى»، ثم أشار له بإصبعه كأنه يمنحه توقيفاً على بياض، ابتسم سامي تلك الابتسامة التي لا تُظهر أسنانه لكنها تنسحب على وجهه كوميض برقي وسط الغيوم، مدركاً أنه انتصر في جولة جديدة وعزز مكانته لدى الرئيس أكثر من أي وقت مضى.

محاولة اغتيال

إثيوبيا/ أديس أبابا/ يونيو/ 1995

في السادسة صباحاً عادت الحشرات لتفترش زجاج نافذة غرفة سامي، لكنه سبقها وغادر الفندق في موكب مشابه من أربع سيارات، إحداها سيارة الرئاسة المصفحة، يقودها السائق الخاص للرئيس مبارك، والتي وصلت بطائرة خاصة وأودعها سامي جراج السفارة المصرية لتأمينها. قبل هبوط طائرة مبارك بنحو ساعة بدت صالة استقبال كبار الزوار شبه فارغة، لاحظ سامي أن أمن الرئاسة الإثيوبي متراخ، رجاله يرتدون بدلاً غير متناسقة فلا تميزهم عن المواطنين العاديين، بينما أجهزة الإرسال اللاسلكي مُعْطَلة، والأجواء متوترة بلا سبب ظاهري، لم يجد سامي في انتظاره سوى مسؤول البروتوكول الإثيوبي، ثم ظهر وزير الخارجية الحبشي لحظة هبوط طائرة مبارك، بصحبته امرأة عجوز تمضغ اللبان، مغمضة عيناً وتاركة الأخرى منكسرة، ولما استفسر سامي عنها لتقديمها في طابور الشرف، أخبروه أنها مترجمة فورية، وعندما اختبر لغتها الإنجليزية وجدها كسيحة. هبطت طائرة الرئيس مبارك ودخل صالة الاستقبال ووقتها بدأت المضايقات على الفور، كبرت هواجس سامي الأمنية لقاها رآها تتحقق تباغاً أمامه، أصر الأمن الإثيوبي على مصادرة مؤقتة للطبنيات الخاصة بالحرس الشخصي للرئيس حتى وصولهم مقر المؤتمر، لكن كانت بحوزة سامي حقيبة أوراق شبه خالية فاقترح إخفاء أربعة مسدسات بها، نجحت الخطة وخرج الوفد المصري مُحملاً بالسلاح.

بعد استقرار مبارك في سيارته المصفحة، تسلم الحرس الشخصي الطبنيات من سامي، وتحركت سيارة الرئيس متأخرة عن موعدها عشر دقائق بلا مبرر، ومن ورائها سيارة الحراسة الشخصية، في حين قفز سامي ومساعدته ورئيس

الطريق للفندق مُزَيَّن بالأشجار الكثيفة على الجانبين، تتقدم الموكب دراجة بخارية يقودها ضابط شرطة إثيوبي، كان سامي مشغولاً مع رئيس الديوان بمراجعة مسار الزيارة للمرة الثالثة بعدما أبلغوه في المطار بتغييره دون سبب منطقي، فجأة سمعت طلقات نارية متتالية، ثم رأى سامي سيارة نقل زرقاء تقطع الطريق، وبعدها سقطت الدراجة البخارية التي يقودها الضابط الإثيوبي وراحت تزحف على الأسفلت متجاوزة جثته، توقفت سيارة الرئيس مبارك محدثة صوتاً عالياً، وترجل أحد رجال الحراسة من السيارة التي خلفه، بينما وقف اثنان على عتبة بابيها الخلفيين، وراحوا يتبادلون النيران مع آخرين غير مرئيين وسط حشائش كثيفة، هبط سامي ومرافقاه في دواصة السيارة، ثلّوا الشهادتين بصوت عالٍ في وقت واحد تقريباً، فجأة فتح السائق الإثيوبي الذي يقود سيارتهم بابها وهروا باتجاه غابة قريبة، واكتشفوا أنه احتفظ بمفتاح السيارة معه، رفع سامي رأسه بحذر فلمح سيارة الرئيس مبارك تدور وتسير عكس الاتجاه بسرعة هائلة في طريق العودة للمطار، وفي تلك اللحظة تبادل وموظفا الديوان نظرة لا تعني سوى أمر واحد.. العودة للمطار مشياً على الأقدام للحفاظ على حياتهم.

غادروا السيارة تباغاً زاحفين على بطونهم من الباب الخلفي الأيسر، قطرات الندى تبلل جباههم، وتراب الطريق يخالط العرق على جبينهم، يسمعون قلوبهم تدق بعنف، كطبول المراسم في احتفال مهيب، وكل شبر يقطعونه يضاعف الشعور بأن حياتهم مجرد مشهد ثانوي عابر، يمكن شطبه في لحظة من سيناريو الفيلم المرتبك الذي أجبروا على الظهور فيه.

مرّت الرصاصات فوقهم كأصوات غضب لا يعرفون من صاحبها، ظلوا يزحفون لمسافة مئتي متر حتى توقفت الأعيرة النارية عن الإطلاق، بعدها جلس سامي على ركبتيه وأبلغ رفيقيه بأن الطريق آمن، هروا في اتجاه المطار، المسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات، وسامي الوحيد الذي لا يزال يحتفظ بقوام رياضي

فلم يشعر بتعب كبير، لكن بعد أقل من كيلو متر سقط واحد منهم وهو يلهث بشدة ممسكا ب صدره، في حين التوت قدم الثاني.

حمل سامي مساعده واستند رئيس الديوان على كتفه طوال المسافة المتبقية التي قطعوها في ساعة؛ ما إن وصلوا صالة المطار حتى بادر طبيب الرئاسة بإسعافهم، بينما سيطرت حراسة مبارك على المطار بالكامل ومنعوا الأمن الإثيوبي من الاقتراب، كان مبارك جالسًا في قاعة كبار الزوار، بدا متماسكًا، ربما أخذ دواءً مهدئًا حسبما ظن سامي، وعندما دخلوا عليه ضحك ولم يعلق، صافحه الرئيس ورئت على كتفه، شعر سامي لحظتها كأنه طفل نال شهادة تقدير أمام زملائه في طابور المدرسة، لكن خلف الوهج السريع للفخر، ظل شيء ثقيل ينقر كتفه الآخر، همش داخلي يخبره أن مبارك لا يرئت إلا ليهدي، ولا يشكر إلا ليصرف، ظل واقفًا لا يتحرك، كأن قدميه غرستا في أرض قاعة كبار الزوار، يراقب ملامح الرئيس ويبحث عن أي علامة نفور، لم يجد، لكنه لم يشعر بالراحة أيضًا، كان يعرف أن كل ضوء يُسلط عليه الآن، سيحوط به بعد قليل إلى هدف واضح سهل اصطياده.

في الطائرة، وبعد الخروج من المجال الجوي الإثيوبي، غادر الرئيس مبارك كابينته وجلس معهم، أشاد بفطنة سامي وتعهد التأكيد على حدسه أمام قائد الحراسة كأنه يرد له اعتباره، ثم ظل يحكي لهم ما حدث بالسيارة منذ إطلاق أول رصاصة حتى هبطت بهم الطائرة بالقاهرة، وهناك عقد مؤتمرًا صحفيًا موشغًا حكى فيه القصة بهدوء وثقة ربما للمرة الثالثة، حتى ليحسب السامع أن الرئيس كان يعرف كل ما جرى مسبقًا، وعلى مقربة من مبارك وقف سامي كطاووس وسط رجال الحراسة الشخصية وكبار موظفي الدولة، منتشياً بإشادة الرئيس به أكثر من مرة أمام الجميع حتى أطرق خجلًا وتبخرت مخاوفه مؤقتًا، لأول مرة يشعر أنه في صميم الصورة لا على هامشها كما اعتاد، يبتسم في ثقة والعدسات تلتقط والصحافة تكتب ومن بعيد بعض العيون تنظر بحقد، وتستعد

فتح رئيس الديوان الملف الجلي الأضر بعناية، قرأ من الورق الذي بداخله أسماء وزتبا وتوصيات إدارة أمن رئاسة الجمهورية، قرارات بنقل كثيرين من الدائرة الأولى القريبة من الرئيس، لوظائف أخرى غالبيتها مرموقة، بحجة قوية، ظاهرها أنهم رأوا الموت مرة، وإذا ما تكررت قد لا يقومون بواجبهم على النحو المطلوب منهم، أما باطنها فكان التخلص ممن ارتفعت أسهمهم لدى الرئيس، وعلى رأسهم مدير المراسم سامي عرفان، تغلب الهاجس الأمني هذه المرة أيضًا وطعن به سامي، ليتترك منصبه في مراسم الرئاسة..

عرض رئيس الديوان الأسماء والمناصب كلها تباعًا، لم يكن مبارك يُصغي بأذنين كاملتين، أحيانًا يومي، وأحيانًا أخرى يقلب عينيه فوق سطور سابقة كمن يتحقق من توازن العطايا لا من استحقاقاتها، ثم يضع توقيعه، حتى وصل الصوت إلى شخص بعينه.. «سامي مراد عرفان»، انتبه الرئيس عند الاسم مثلما تتوقف العين على وشم في ذراع غريب، رفع حاجبيه ببطء، ثم مّد يده وأخذ ورقة القرار، قرأ سطره صامتًا، مرّت لحظة ثقيلة، ثم قال كمن يتذكر شيئًا:

- دا ابن ناس وله جميل في رقبتى.. لا لا، هيئة استعلامات إيه اللي تودوه فيها دي، هو جالنا الرئاسة منين؟

- من الداخلية يا ريس، كان نقيب شرطة في إدارة.....

قبل أن يذكر رئيس الديوان مُسقى إدارة فرق موسيقى الشرطة، قال مبارك باندفاع:

- يبقى يرجع أحسن مكان في الداخلية، أظن النشاط العربي في مباحث أمن الدولة حاجة أبهة وتناسبه، أنا فكرت أوديه سفارة من بتوعنا برة يرتاح ويستجم

ويعمل قرشين، لكن بما إنه ظابط بوليس تبقى الداخلية أولى به، عدل القرار
علشان أوقعه النهاردة.

غاب رئيس الديوان لدقائق وعاد بالقرار المعدل، ساد صمت جديد، ثم أمسك
مبارك بقلم حبر أسود وخط توقيعَه بيده المتينة، وقع ببطء فيه إصرار رجل
يعرف ما يريد، بعدما وضع خطوطًا عريضة تحت عبارة كتبها بنفسه «أمن الدولة
- النشاط العربي والسفارات»، ترك النقطة الأخيرة بعد العبارة ثقيلة كأنها ختم
لا رجعة فيه، أعاد الورقة إلى رئيس الديوان دون أن ينظر إليه، وقال بنبرة لا
تحتمل التأويل وهو يشعل سيجاره:

- كَلَمْ وزير الداخلية يخلي باله منه ويوصي عليه، الجماعة في أمن الدولة
مطأطأين وهو ابن ناس مش قدهم.

بكلمة من الرئيس عاد اسم سامي للنور، ليبدأ دورة جديدة في أروقة الدولة،
عاد كواحد له جميل محفوظ في ذاكرة رأس السلطة، لكن بطريقة تعيد إنتاجه
وفق آلياتها، لا وفق رغباته.

الوتر الرابع

القاهرة/ جاردن سيتي / سبتمبر/ 1995

في ركن معتم منزو بشرفة بيته في حي جاردن سيتي، جلس سامي يدخن بشراهة ويتابع المراكب التي تمر في النيل ببطء، أمامه زجاجة ويسكي مملوءة لأكثر من نصفها بكأسين، بعد مرور ثلاث ساعات أحضر ورقة بيضاء وكتب بمنتصفها سطرين.. «لا أحد ينتصر طويلًا في هذا البلد، من ينتصر بقوة يُخفى، ومن يُكزَّم بمبالغة يُهَفَّش، ومن يرى الموت لا يُكافأ بل يُدفن بعيدًا عن الأضواء».

طوى الورقة برفق ودسها في الإطار خلف صورة والده الذي مات وهو يحلم بأن يرى ابنه ضابطًا مثله.

قرب منتصف الليل لم يبق بزجاجة الويسكي سوى كأسين، حاول النهوض فلم تحمله ساقاه، رفع رأسه يناجي القمر، فرأى قسّمات دينا تظهر على سطحه، لم تكن مجرد امرأة أحبها، كانت الجدار الذي تميل عليه روحه حين يتعب، والوضوح في أيامه الضبابية، واللغة التي لم يتعلّمها أحد غيره ولا يتكلم بها سواه، والنداء الوحيد الذي كان يسمعه حين يضجّ العالم بالصخب.. لكنه تأخر، دائمًا يتأخر، لم يتخذ قرارًا أبدًا، إنما يدور حوله كل مرة، كما يدور طائرٌ خائف حول غصن لا يجروء على أن يحطّ عليه، خاف أن يتورط في حبٍ لا يملك له يقينًا، خاف من مجهول لا يعرفه لو غير طريقه، وربما خاف حتى من سعادته بعدما اعتاد الحزن.

أمسك بصورتها وقلّبها بين يديه متوتّرًا، هزّها بعصبية متخيلاً أن بعض شخصوها قد يسقطون منها، اليوم سقط دستوره وألغيت قوانينه بعدما انقلبت دينا يعقوب عليه بزواجها من آخر، ظن أنها لن تُعطي لغيره إلا يادنه، وأنه

سيحكم قلبها وعقلها باستفتاء دائم على مشاعرها نحوه مدى الحياة، طالما لا تقول سوى نعم، جاءه خبر زواجها كرصاصة لا تقتل فقط، إنما تشرح المرأة التي يتأمل فيها نفسه كل صباح، ليرى وجهًا آخر لأول مرة؛ وجه لا سلطان له ولا فتنة فيه، وجه رجل هُزم أمام امرأة اختارت أن تفضحه باختيار غيره، لا يصدق أنها تزوجت منذ شهور المناضل اليساري باهر سعيد، كما لو أنها تحبه من زمن بعيد، تأكد الآن أنها خائنه، وعاملته كراكب قطار تأخر عن مواعده فانطلقت وتركته وحيدًا على المحطة، هاتفها وعاتبها مرات ومرات لعلها تعود له وتترك باهر، فتعاملت معه ببرود كل مرة، صدته وعنفته، وفي المرة الأخيرة أغلقت السماعة في وجهه، ثم غيّرت رقم هاتف منزلها.

غادر الشرفة وأغلق النوافذ، ظل يترنح من الشكر حتى لاز بأقرب مقعد، انكمش في كرسيه كما ينكمش ثعبان في زاوية كهف، تلك الليلة لم ينم، راح يطارد التفاصيل الصغيرة التي تطوف برأسه، كيف وقفت دينا إلى جوار زوجها يوم زفافها؟ هل كانت ممسكة بيده؟ هل كانت سعيدة؟ هل نادته باسمه وهو في فراشها؟ ماذا عن مشاعرها؟ هل أعطته إياها كاملة مع جسدها، أم أبقت جزءًا منها في قلبها؟ في الأيام التالية كان الليل أطول من العادة، وفي كل مرة يغمض عينيه يرى دينا تمشي في ممر بيته عارية، تترك على الأرض آثارًا من ضوء، ثم تتبخر، صوتها يجيء من بعيد، لا كذكرى بل كعاصفة ترفض أن تهدأ.

أصبح يأكل قليلًا ويحدث نفسه كثيرًا، كل من ينظر لملامحه يرى شيئًا من حزنه، وكل نهار يجلس طويلًا أمام صورها القديمة، ينثرها على السجادة في المكان الذي كانت جدته تمد قدميها فيه، لا يلمسها، يفرد لها أمامه كمرآة يرى فيها كل ما فاتته؛ صور أشبه بزمن طويل شكّله بأصابعه ثم أفلت منه فجأة، يسترجع كل لحظة قضاها معها كأنها مشاهد من فيلم صامت، عندما تميل برأسها حين تضحك، وعندما تكتب اسمه بخط مائل، وعندما قالت له مرة «أنت لا تختار، أنت تنتظر أن تختارك الأشياء»، ربما لم يفهم قصدها وقتها حتى اختارت غيره.

التقط صورة قديمة تجمعهما معًا، كانت تضحك فيها وهو شارد الذهن، لقطة غريبة في لحظة نادرة، كأنها تعرف منذ البداية أن القصة لن تُكتب إلا من طرف واحد، مَرَّق الصورة نصفين، ثم جمعهما، ثم مَرَّقهما مرة أخرى. لم يكتف، بدأ يرسم صورة لزوج دينا في خياله، ظلت الصورة تكبر في مخيلته حتى ضاقت بها روحه، فراح يؤلف رواية جديدة تنتمي إلى الغضب، مكتوبة بحروف الغيرة، تخيل فيها أن دينا لم تُغد تضحك، وأن زوجها المحتمل لم يقوَ على لمسها، وفي كل مرة يحاول يفشل، فتعايره دينا بضعفه وتشيد بفحولة سامي وحده، في تلك الرواية المتخيلة برأسه وحده لم يكن هناك زفاف من الأصل، إنما كذبة صدقها الناس لَمَّا نُشِرت في الصحف، ونشر هو تكذيبًا لها مع صورة لهما معًا، وكلما زاد تشوُّه الرواية ازداد راحة، لم يكن يريد شيئًا واضحًا، لكنه يسعى لنوع خاص من التوازن فضَّله في عقله على مقاسه وحده، أن يعود الزمن إلى لحظة لم تُخلق قط، كان فيها هو المفضل دومًا وهي العشيقة للأبد، أما المناضل اليساري فمجرد اسم في خبر بجريدة لا يقرأها أحد.

الآن أدرك أنه صار مجرد سراب حين رأى دينا يعقوب بعد شهور قليلة من زواجها، لقاء عابر بالمصادفة في حفل موسيقى بالأوبرا، لم تبتسم ولم تغضب، نظر إلى عينيها كما ينظر الطفل إلى بيتٍ دُمر بقذيفة مباغتة، وعندما فتش في الأنقاض لم يجد بينها ألعابه القديمة، مرَّت بجواره كأنه ظل على جدار، عيناها تتفحصان وجهه كما تتفحص العين لوحة فنية مُعقدة لا تفهمها، شعر تلك الليلة أنه خسر حياته كلها بلعبة قمار واحدة، دينا كانت الوتر الرابع الذي يُبقي الكمان حيًا، فلما انقطع ظل الصندوق الخشبي جميلًا، مصقولًا، لكن بلا صوت.

الآن صار يمشي في حياته مُقنَّنًا، لا يرى شيئًا بسبب عينيهِ المعصوبتين، لا يلمس أحدًا ولا يترك أثرًا، حتى وجهه بدا غريبًا عليه، وحين نظر في المرأة لمرَّة أخيرة لم يجد تجاعيد أو علامات حزن، بل ملامح لرجل فاتة زمنه وابتعد عنه بسنوات.

انحناء جديدة

القاهرة/ جاردن سيتي / أكتوبر/ 1995

ولّى زمن الانحناء التي كان يؤديها أمام الملوك والرؤساء والوزراء والسفراء، تلك المحسوبة بالمليمتر، الموزونة بالهبة والاحترام التي تدرب عليها طيلة سنوات عديدة، الآن حلّ محلها أخرى ، أقسى وأشد برودة مما كان يفعلها أمام الرئيس، وأمام جمهور مسرح الجمهورية بعد العزف.

اليوم انحناء جديدة، يثني فيها جذعه وهو يُقَرَّب وجهه من شخص معصوب العينين، ليهمس له بكلمات يحفظها وغير مقتنع بها، ينحني، لكن لا يزال الأمر كله أكبر من قدرته على استيعابه وتصديقه، فانتقاله من مراسم القصر الجمهوري إلى دهايز وزارة الداخلية لم يكن مجرد تغيير في المسقى أو المكان بل في الروح.

في الأيام الأولى كان يدخل غرفة التحقيق كأنه يعبر صالون استقبال رسمي، يحاول أن يضبط نبرة صوته، يزن كلماته، يُسرّع من خطواته، يختار ردود أفعاله بعناية، كما لو أنه يرثب الزهور على منصة الخطاب الرئاسي، شيئاً فشيئاً ابتلعت طقوس المكان الجديد، بدأت الكلمات تفلت منه، والأوامر تصدر بحدة، شيء ما داخله لا يعرفه أخذ في النمو بسرعة تفوق مشاعره لتسير عكس اتجاه طبيعته، استجاب صاغراً كعادته، متغذياً على الخوف، متلحفاً بالرهبة، لم يفهم كيف حدث التحول بسرعة، يختل توازنه القديم تحت وطأة قلقه وثقل هواجسه، وتتشقق صورته التي يعرفها عن نفسه دون أن تُحدث صوتاً.

ظن أن الإنسان يُعاد تشكيله بالتدريج، مثلما تُنحت الحجارة عبر الزمن، لكن ما حدث كان أقرب لزلزال صامت.

كل شيء حدث فجأة دون عبور مرحلة انتقالية، في أسبوعه الأول طلب منه

مساعد رئيس الجهاز المناوب أن يُجري استجوابًا، ضحك سامي بتوتر، اعتبرها نكتة سمجة، لا يزال حديث العهد بكل شيء هنا حتى الغرفة، ظن أن مهام عمله مراسم زيارة تهنئة بالعيد الوطني في سفارة دولة أو تأدية واجب عزاء لشخصية عربية عامة، لكن في الأسبوع الثاني ناوله الضابط ملقًا وتركه مع شخص معصوب العينين لا يرغب في الكلام وفاقد الأمل، ومنذ ذلك الحين ضاع طريق العودة.

في البداية كان يكتفي بالسؤال، بتغيير نبرة صوته، بالمحاصرة بالأسئلة، محاولًا اصطياد الكذب من بين ثنايا الكلام، لكنه سرعان ما أدرك أن الصمت أبلغ وأقوى، وأن الذين يُصمتهم الخوف يصبحون مرايا له، صار يسأل نفسه «لماذا لا يتكلمون؟ هل يرون فيَّ شيئًا لا أراه؟ هل صرت أنا الخوف ذاته؟».

لم يَعد النوم يزوره لطيفًا كما في السابق، صار يقف أمام المرأة طويلًا، يتفحص وجهه كما لو صار شخصًا آخر لا يعرفه، وحين يغلق عينيه لم يَعد يرى أحذية السفراء والوزراء تلمع على السجاد الأحمر، بل أقدامًا حافية وعيونًا معصوبة وشفاهًا مشققة، علمته المراسم كيف يُخفي التعب، وكيف يبتسم بلباقة حتى وهو يسلم على قاتل أو ديكتاتور، أما الاستجوابات فقد علمته كيف يكتم رجفة الضمير وهو يسأل إنسانًا عن شيء يعرف أنه لن ينقذه، لكنه حتمًا سيكسره.

لم يَعد يطرق الأبواب برفق وينحني كما كان، صار يفتحها دفعة واحدة كمن لا ينتظر إذنًا، خطواته لا تحدث صوتًا لكنها تترك أثرًا، من بعيد يبدو كضابط صارم قاسي القلب، ومن قريب يبدو وديعًا كأنه فرغ تواء من عزف لحن مبهج، في البيت يفتح الراديو على موجات مشوشة يبحث عن نغمة مفقودة للحن لم يكتمل بعد في ذهنه، التليفزيون مغلق والستائر مسدلة غالبية الوقت، عقربا الساعة المُعلقة على الحائط متعانقان منذ رحيل جدته بعدما نفدت البطارية، وحين ينام وحيدًا في فراشه يظل متوترًا، فعقله لا يزال يرفض توقيع هدنة مع

لا أحد يفهم سبب صمته المطبق الذي حلّ به، كلماته صارت مثل البصمات، لا تُستخدم إلا عند الضرورة ولأغراض فنية فقط، لم يكن صعب المراس لكنه لا يمنح أحدًا راحة بسهولة، نظرتة وحدها كافية لتكسر دفاعات أي مخلوق مع أنه لا يؤذي أبدًا، ربما امتص كل القسوة التي تعرّض لها في التحقيقات التي جرت معه بعد اغتيال السادات وأعاد إنتاجها كتاريخ يُعيد نفسه، لا ينسى من مرّ أمامه، يختزن صورته في مكان لا يعرفه إلا هو، وعلى الرغم من أنه يبدو باردًا في الظاهر، فقد كان يحترق داخليًا بعد كل استجواب، يبكي أحيانًا ويضرب المكتب بقبضة يده حتى تؤلمه، يرى في كل متهم نفسه الحقيقية، سامي عرفان التائه الحائر الضعيف، عازف الكمان الذي ضل الطريق، فيصير أشد قسوة عليهم لعلمهم يعودون إلى طبيعتهم، ولا يدري أنهم ليسوا مثله، لن يقرأوا بهزيمتهم مثلما أقر بضعفه، فيضغط عليهم أكثر فأكثر، وبعدها يندم على تكراره الفعل ذاته كل مرة.

لم يكن مريضًا ولم يكن سويًا، صار أشبه برجل خرج من غرفة لا نوافذ فيها، لكنه بقي بداخلها حتى بعد أن خرج منها، لا يرى النور أبدًا.

فوق مكتبه ملفات مرصوفة بزاوية حادة، أقرب إلى صف جنود في طابور عقاب، ملفات لا يقرأها، يُقلّب الصفحات بسرعة، لا يبحث عن معلومة بل ثغرة ولا يجدها، في كل ملف يدوّن ملاحظة واحدة «تستمر المراقبة»، عبارة روتينية اعتاد عليها تقليدًا لغيره، ولأنه لم يراجع أحد فيها، ظنها عبارة صحيحة. في نهاية كل أسبوع يختلي بنفسه في الأرضيف، يتفقد الملفات القديمة، يبحث عن شيء محدد، يشتم رائحته ولا يراه بعد، غرق في تلال من الورق الأصفر، تنفس الغبار، أجهدت عينيه في قراءة ملاحظات مدوّنة بحبر بهتّ لونه، يغمره شعور قوي بأنه يقترب من فريسته كلما توغل في ملفات الحزب اليساري، يبعث هذا الشعور فيه راحة ويمنحه طاقة ليستمر. بعد شهور عثر على الخبيثة، الملف الذي طال البحث عنه، نظر له يومها بلهفة عاشق، ثم تقلبت ملامحه كزوج

ضبط زوجته مع عشيقها في فراشه، قرأ بصوت عالٍ اسم فريسته «باهر يوسف سعيد»، الاسم لا يرن فقط لكنه يلدغ، لا ينساه كوشم على جلده، وفي غرفة ضيقة بلا نوافذ على عمق طابقين تحت الأرض جلس أمام جهاز التسجيل، لا أوراق ولا أقلام ولا تقارير، فقط صوتٌ خافتٌ ينبعث من السماعة لكنه مسموع بوضوح، انكمش عالمه وضاق حتى بات محصورًا بين أذنه اليمنى والسلك الممدود من الجهاز، هذا الصوت هو كل ما تبقى له من دينا يعقوب.

ثلاثة وجوه للحيرة

فرنسا/ نيس/ يوليو/ 2013

على الرغم من النجاح الذي حققه، بقي الوجه الهادئ الذي يحمله إلى مسارح باريس أكثر وجوهه هشاشة، لا يزال يمشي بين الممرات الخلفية للمسرح كما كان يمشي في أروقة الجهاز، بخطى محسوبة، يده في جيبه، ظهره منتصب، لكن الداخل متشقق، مملوء بفراغات لم ترممها الموسيقى ولم يصلحها العزف على الكفان.

وجهه الأول لم يغب عنه يوماً، وجه ضابط الجهاز الذي يعرف ما لا يجب أن يعرفه أحد، الضابط الذي تمر على مكتبه الأوامر السرية وأسماء المعتقلين وتسجيلات الاعترافات.. كان ينام قليلاً ويستيقظ مفزوعاً، يقنع نفسه بأن الصوت الذي سمعه في منامه ويرجوه أن يُخلي سبيله ويعتقه كان مجرد أحلام، الآن يعرف أنه لم يكن كذلك، إنما تذكير يومي بأنه صار جزءاً مما كان يخشاه، ربما وجهه الثاني ليس أفضل حالاً من الأول، مرحلة المراسم الرئاسية حين غير بدلته العسكرية وارتدى بدلاً منها أخرى مدنية، حين صار يلتقي الضيوف باسم الدولة، وبات يصفق لمن لا يؤمن بهم، وابتسم أمام الكاميرات التي لا تلتقط حقيقته بل مظهره. في تلك الفترة تعلم كيف يتحوّل إلى ظل أنيق لا يزعج أحداً، يعلم أن كل مناسبة رسمية تمر تترك داخله شعوراً بالكذب؛ شعور بأنه يختنق داخل قاعة واسعة، مضطر لأن يبتسم في وجه من لا يحبهم أو يحترمهم، وعندما عاد لوزارة الداخلية مرة ثانية حاول إقناع نفسه أنه نجا من المهنة الأولى، لكنه يدرك من داخله أنه لم ينج، إنما فقط نقل هشاشته إلى مكان آخر، كلا الوجهين مشهد مختلف في مسرحية واحدة، لكن لا يغيّر من وضعه ككومبارس شيئاً.

ظن أن الوجه الثالث الذي اختاره بإرادته لأول مرة هو الأنسب والأفضل، لكنه بعد فترة وجيزة من وصوله إلى باريس اكتشف أنه لم يُولد من توبة حقيقية، بل من عجز مزمن، لا يستطيع العودة للقاهرة مرة ثانية بعد تسريحه من الخدمة، اسمه صار عبثًا في ملف ربما يفتح يومًا ما، راعه مشهد اقتحام مبنى الجهاز بمدينة نصر وتسريب وثائق وتسجيلات منه، ربما كانت إحداها تخصه بعدما تركها غير مؤمنة، سهلة المنال، لم يتمكن من أخذها معه بسبب أحداث الثورة وعدم قدرته على دخول مبنى الجهاز مرة ثانية، مرّت سنة على حكم جماعة الإخوان هادئة بالنسبة له، ربما لأنه لم يستجوبهم ولم يتابع نشاطهم السياسي فلم يعرفوه، لكن الثوار يعرفون باهر سعيد، ولا بد أنهم بحثوا عن أثر له، كمن ينقب في أرض معينة عن مومياء لملك قديم كل الدلائل تشير إلى أنه كان هناك.

زفر في ضيق لما ظهرت على شاشة هاتفه مقاطع من محاكمة الرئيس مبارك، عبث في أزراره بعصبية ليغير المشهد، ظهرت له صورته القديمة مع مبارك أيضًا، حين يراها الآن على الإنترنت يكتشف أنها لم تعد تشبهه، اسمه وصفته أيضًا تغيرا، حتى هيئته تبدلت إلى اللحية البيضاء الكثيفة والنظارة السوداء الكبيرة، مهنته في الجواز الجديد موسيقي حر، وفي المقالات التي تكتب عنه يصفونه بصوت من الشرق يشق صمت الغرب، وفي أرشيف الجهاز العقيد سلطان، ثلاثة وجوه كل منها يتنكر للآخر! لا أحد منها يدلّه من أين جاءت الحيرة البادية على ملامحه، ارتدى قناعًا سميكا لعازف عالمي؛ قناع يسمح له أن ينسحب أي وقت دون أن يُسأل، أن يعزف دون أن يُطارَد، أن يعيش بغير نظرات من يعرفون حقيقته أو يشكون فيه، لكن القناع لا يمنع الذاكرة من استدعاء الماضي، وحين يغلق عينيه كل ليلة كان يرى وجه دينا يعقوب التي لا تهرب من ماضيها مثله، بل ربما لا تزال تُصر على التنقيب فيه.

يمتد الشاطئ في مدينة نيس الفرنسية أمام عينيه مثل لوحة مرسومة بدقة؛ شاطئ من الرمال المطرزة بالحصى الملونة تتناثر بلمسة فنان، تصطك تحت الأقدام كأزوار صغيرة، تمنح للمكان نغمة خشنة تناقض نعومة البحر الممتد أمامها بلونه الأزرق العميق، على جانبي الشاطئ تصطف كراسي الاستلقاء الزرقاء كما في حفلات الاستقبال الرسمية، ومظلات مخططة بالأبيض والأزرق تحجب بعضاً من قرص الشمس، لكنها لا تمنع الضوء من التسرب عبر القماش.

على اليمين يظهر كورنيش «برومناد ديزانجليه»، ممتداً كبساط رخامي على حافة المتوسط، تجوبه طوال اليوم السيارات الفاخرة والدراجات البخارية، العداؤون بملابسهم الضيقة يركضون، والسائحون يلتقطون الصور كما لو أن «نيس» لا وجود لها إلا في لحظة التقاطها، على مقربة لمح قبة فندق «نجرسكو» بلونها الوردي الباهت، تشهد بصمت على قرن كامل من استقبال الزوار من الأرستقراطيين الروس مروّراً بنجوم السينما إلى لاعبي الجولف والتنس و كرة القدم، تنحدر الشمس ببطء ربما لثّطيل وداعها فوق صفحة البحر المتوسط، حتى بدت له الخيوط الذهبية التي غمرت المياه كما لو أنها تحاول إقناع البحر بأن يحمل ضوءها إلى الأعماق.

استلقى على أريكة شاطئ، توارى كعادته في تلك المنطقة الرمادية التي يجيد التوغل فيها، بين اسمه ووجهه، بين ما مضى وما يوشك أن يكتب عنه، يرتدي قميصاً أبيض خفيفاً مفتوح الأزرار حتى منتصف صدره، وسروالاً من الكتان الباهت، نظارته الشمسية تحجب عنه نصف العالم، والنصف الآخر يتكفل به جهاز الموسيقى الذي يضع سماعته في أذنيه، وإلى جواره كمانه في جرابه الجلدي، راقداً فوق الرمال مثل شاهد قبر.

بعد ساعتين شعر بملل، أخرج دفترًا صغيرًا من جيب سترته الملقاة على الرمل؛ دفتر أحمر بغلاف جلدي مقشر لا يفارقه، كتب فيه بخط دقيق «الفرنسيون يصفقون لي في كل ليلة كأنني اخترعت في باريس، الصحف

البلجيكية تقول إنني أعزف «جروحا موسيقية»، ولم تدرك أن الجرح الحقيقي ينزف بداخلي كل ليلة، وأن الصوت لم يكن يومًا للموسيقى لكنه لوجعي!

قبل أن يغلق دفتره، اقتربت منه طفلة فرنسية لا تتجاوز العاشرة، بشعر أشقر منفوش، وعينين تلمعان بفضول، أشارت إلى الكمان وسألته بخجل:

- جدتي تقول إنك من يعزف الكمان على المسرح الكبير.

أوما بابتسامة باهتة، مدت يدها بقطعة بسكويت ملفوفة بورق ذهبي رقيق، وقالت بعفوية:

- أيضًا جدتي تصفك بأنك ساحر، لكنني أراك رجلًا عجوزًا حزينًا.

ابتسم للمرة الأولى منذ شهور، طبعت الطفلة قبلة على جبينه، وركضت بعيدًا. ظل واقفًا يراقبها، لَوْح لها وهي تقف بجوار جدتها التي أتت بها مرة ثانية، والطفلة تتوارى خلفها كل حين خجلة بلا سبب، صافحته السيدة العجوز وطلبت التقاط صورة معه بالهاتف، وقبل أن تتركه قالت:

- حفيدتي أبلغتني بما قالت لك، إن كان صحيحًا فنصحتي لك «اصنع سلامًا مع حزنك وإلا سيلاحقك بقية عمرك».

تابعها بنظره حتى اختفت مع الطفلة، ملأ كفه بالرمل ثم تنهد تاركًا الحبيبات تنساب ببطء، هو الآن «سامي المصري»، عازف الكمان القادم من الشرق، الرجل الذي عزف منذ أسبوعين في أمسية بكنيسة قديمة فجعل الكهنة يغلقون أعينهم ويتمايلون ظريًا، كأنهم يلمسون حضورًا سماويًا في عزفه، لكن ما فائدة كل هذا النجاح بغير دينا يعقوب؟ لا بد أنها الآن في أحضان باهر سعيد بعدما خرج من المعتقل، ندم على توقيعه على قرار الإفراج عنه، ربما تسرع فيه، وربما لحظة ضعف كعادته، تلفت حوله في ضيق ورأسه تدور فيها الظنون كفتران محبوسة، ربما يكونان هنا على مقربة منه، يتمددان على الشاطئ، يستجمان في شهر عسل

نهض متوترًا وقرر التجول بحثًا عنهما، بعد نصف الساعة أعياه البحث بين الأجساد العارية المُمَدَّدة، اقترب من البار الضخم الذي يستحوذ على مساحة كبيرة من الشاطئ، همس للجرسون، وبعد دقيقتين وضع الرجل أمامه زجاجة نبيذ «بان دول روزيه» باردة، شرب نصفها، ثم عاد وطلب زجاجة أخرى من نوع آخر، لم يكن يشرب ليستمتع بل ليهرب، كما لو أن في الخمر ممحاة تطمس ملامح الضابط القديم من ذاكرة التاريخ. مع أول كأس من الزجاجة الثالثة تجاوز سامي حدود الفهم، عيناه صارتا حمراوين، نصف مغمضتين، بينما جسده متكئ بإهمال على ظهر مقعده، جال ببصره في الجالسين حوله وابتسم ببلاهة، ثم بدأ يردد كلمات بالعربية بصوت عالٍ، راح يسبهم جميعًا بأمهاتهم، ثم ضحك فجأة ضحكة جافة كأنها خرجت من بئر بلا ماء. اقترب منه الجرسون، ظن أنه يتحدث بلغة سلافية في البداية، ابتسم ثم انحنى بأدب وهو يسأله:

- Pardon, monsieur... ça va ?

تابع سامي السباب لباهر ودينا هذه المرة ولم يعره اهتمامًا، صمت المكان لوهلة، ثم بدأ البعض يلتفت نحوه، آخرون ابتسموا بعدم فهم، بعضهم اعتقده فنانًا مجنونًا ضاعت منه فكرة عمل جديد، عاد الجرسون يسأله بلطف إن كان يحتاج شيئًا، نظر له سامي وقد انفلتت يداه من السيطرة وراح يلوح بهما في الهواء قائلاً بنبرة أسي:

- Je suis rien

بعدها مالت رأسه إلى اليسار، ثم انهار بنصف جسده العلوي على الطاولة، بجواره كمانه لا يزال في غلافه الجلدي، شاهدًا على رجل يصرخ بلغة لا يفهمها أحد إلا ماضيه.

كونشرتو من ثلاثة أصوات

القاهرة/ وسط البلد/ مارس/ 1996

كأنما خلق الليل ليكون ستارًا تتخفى وراءه بعض القلوب الممزقة، هناك في تلك البقعة من العتمة، يذوب الصمت في أسلاك خفية، تنقل الهمس والأنين على نغم حزين من نبضات القلوب، يجلس سامي بين جدران مصمتة، يتلصص على حياة لم تُعد تخصه، وكلما نهش الحنين قلبه وداهم الشك عقله انغمس فيها بغير تفكير.

لم تكن التسجيلات بالنسبة له أدلة في ملف أمني، أو أصواتًا لأشخاص مشتبه بهم محفوظة على شريط، لكنها نافذة سرية يطل منها على ماضٍ لم يُغلق بعد، حب لم يَفُت وإن تبدل صاحبه، وجراح ثأبى أن تندمل مهما إلثّمت أنسجتها، يستمع إلى ضحكات باهر وارتباكات دينا كما لو كانت نوتة موسيقية مكتوبة له وحده، مقطوعة تعزف في صمت، تتناوب فيها النشوة والخيانة، السياسة والعاطفة، الحقيقة والوهم، ومع كل جملة تُقال يتلقى قلبه الطعنة مرتين، مرة بصفته ضابطًا يراقب ولا يجد دليلًا، ومرة بصفته عاشقًا منفيا من جنته القديمة يحاول التسلسل من باب خفي، ومن خلف الضوضاء والضجيج لم يتبق له سوى صوت امرأة يعرف أنه خسرها، لكنه يُصرُّ كل ليلة على أن يستعيدها.

ربما لم يكن ينوي التجسس حين سمع أول مكالمة مسجلة، أقنع نفسه بأنها مصادفة، مكالمة خاضعة للرقابة الروتينية لمناضل على يسار السلطة لا يرى سوى عيوبها، لكنه عاد للتنصت في اليوم التالي وفي اليوم الذي تلاه، وعلى مدار أسابيع حتى اكتملت شهوژًا، صار صوتهما طقسًا مسائيًا، ينصت إليه وحده في الغرفة المصمتة، يسترق السمع باستمتاع على ألحان نوتة موسيقية ربما لا

يعرف كيف يقرأها، لكنه يشعر أنها تعنيه وحده.

- هات لي شرايط تسجيلات باهر سعيد بتاعة أول إمبارح.

قالها لمساعدته ثم صرفه وجلس يستمع، يتحدث باهر سعيد دومًا بصوت ثابت، واثق، غير متعجل، ربما يعرف أنه مراقب لكنه لا يأبه، مع الوقت أدرك سامي وهو يستمع إلى الطرف الآخر أن باهر ليس متآمراً، فقط مُفرط في وضوحه كما في أحلامه بالتغيير، لا يُخفي كراهيته للنظام، لكنه لم يتورط يوماً فيما يمكن أن يُساق به إلى المحكمة متهمًا بجريمة، كان خطيبًا مفوهًا في التجمعات الطلابية، يهاجم بلا مواربة، لكن ما أدهش سامي أن دينا تصغي لكلامه وتناقشه كمن تبحث عن معنى لحياتها، لم تكن عاشقة لباهر كما كانت معه، صارت عاقلة تقيس عمق الكلمات قبل أن تتفوه بها، تختبر مدى تأثيرها، وعندما ينتهي كلام السياسة وتنساب عبارات الغرام كانت تحب بعقلٍ يتأرجح بين الواقع والحلم، لا يستقر على أرض ولا يحلق في أوهاام.

- لولا وجودك في حياتي لما تحملت البقاء في البلد يوم واحد.

- بلاش مبالغة.

قالتها دينا بدلال من تريد تأكيد المعنى الذي أعجبها، فأردف:

- صدقيني أنا أتنفس بوجودك.

جملة بسيطة عابرة قالها باهر سعيد، كلمات يمكن لأي رجل أن يقولها لحبيبته، لكن سامي توقف عندها كما يتوقف العازف عند نغمة نشاز في معزوفة معتادة، أعاد التسجيل ثلاث مرات، ثم دوّن العبارة في دفتره الصغير دون أن يعرف لماذا.

أغمض عينيه وانهاالت الأسئلة من رأسه، هل قالت له شيئًا مشابهاً؟ كيف تنفس بها؟ هل لها دلالة جنسية بينهما؟ يومها أدرك أنه لم يتجاوز دينا بعد، لم يكن حبًا

عاديًا ولم يكن فشلًا عاديًا أيضًا، لم يغادر النقطة التي انتهت عندها علاقتهما، ظل واقفًا على مسافة منها فقط، متخفّفًا من كبريائه، مُحَاظًا بملفاتٍ تُدار حولها شبّهات وتسجيلات عادية يمكن أن تمر دون محاسبة، لكنه لا يريد منها إلا كلماتها ومعانيها. على مدار أسابيع صار له شاغل وحيد هو تقريب صوت دينا يعقوب وتنقيته، أعاد ترتيب الفلاتر، أزاح الضوضاء من الخلفية، أضاف مؤثرات لتقوية النبذة حتى بات يعرف طبقة صوتها حين تكون حزينة، حين تكذب، حين تتألم ولا تبوح، وحين تحب وهو أشد ما يكرهه.

- يا ترى كنتي بتحبي اللي عرفتيهم قبلي أكثر مني؟ جاوبيني بصراحة.

سألها باهر سعيد وهو يضحك، لم يكن الموضوع يشغله لدرجة السؤال، لكنه أراد استفزاز مشاعرها ليسمع ما يسره، ففوجئ بلامح تتجههم بسرعة وجبهة مأزومة تنذر بهجوم وشيك، ثم خاطبته دينا بحدة باترة أي محاولة أخرى لاستفزاز مشاعرها:

- أرجوك يا باهر أنا مش بحب الكلام عن الماضي، وعلشان ترتاح كل اللي فات زفت، صفحات واتقفلت، أنا دلوقتي بشوف الدنيا بعيونك بس.

أوقف سامي التسجيل وخرج إلى الرواق، سار في الممر الطويل الذي تفوح منه رائحة الرطوبة وبعض العفن السياسي، دخل مكتبه وكتب تقريرًا بما استنتجه من المكالمات، محذّرًا من علاقة الرجل بدول أجنبية اختارها بنفس الترتيب الذي ورد في مكالمة بين باهر ودينا، عندما كانا يختاران المدن التي سيمضيان بها إجازة الصيف، في أول سفريّة لهما معًا، نسب كل ما ورد بمحضر تحرياته لمصادره السرية، وطلب تحويل باهر سعيد إلى ملف المتابعة الدائمة.

مضت الليالي، وكل مساء يُعزف كونشرتو من ثلاثة أصوات، امرأة تحب بلا انفعال، ورجل يؤمن بعالم بلا ظلم، وضابط يتنصت على شريط تسجيل بحثًا عن نغمة لم تُعرّف بعد، وبين هذه وتلك يعيش سامي في صمتٍ متصاعد، يسمع فيه

وقع حب منتبه يصدق كل ليلة بالأنين، كأنه لا يريد أن يموت أبدًا.

صوت وصورة

القاهرة/ وسط البلد/ إبريل/ 1996

كانت دينا يعقوب ذكية بما يكفي لتفهم أن بعض الكلمات التي تقولها عبر الهاتف تظهر لاحقًا في سياقات غريبة، على ألسنة أشخاص لا علاقة لهم بها، وفي مقاطع كاملة من مقال صحفي أو مفتتح لخبر. لم تكن ممن يستسلمون للارتياح، درست المنطق وآمنت بالتحليل، وحين سمعت عبارة قالها باهر في مكالمة خاصة بينهما ثم ردها بعد أسبوع رجل تعرفه بالكاد في ندوة مُصغرة داخل نقابة الصحفيين، أدركت أن المكالمات واللقاءات مسجلة، لكنها لا تعرف من الذي يتجسس على حياتها، دارت برأسها ظنون كثيرة متعلقة بنشاط باهر، لكن لم يخطر ببالها للحظة واحدة أنه هو.. سامي عرفان.

بعد أيام نُشر خبر كاذب عن باهر سعيد في جريدة قومية، خبر مُستوحى من عبارات قالها ساخرًا من الوضع في مصر إذا ما أرادوا تليفق تهمة له، ففُوجئت بنشر كلماته بحذافيرها كأنها انتزعت من لسانه، أضافت لها محررة الخبر الكثير من خيالها لتكمل الحبكة البوليسية، تجاهلت دينا الأمر، أقنعت نفسها بأن الذاكرة تخدع أحيانًا، لكن الأمر تكرر، عبارات أخرى وصياغات دقيقة خرجت من خصوصية لم تكن تُتاح إلا عبر التنصت.

في المساء راقبت وجه باهر وهو يتحدث، بحثت عن أثر لقلق بداخله، لشعور بالاختراق. يهدد سلامه النفسي، لكنه ظل هادئًا، يكتب ويقرأ، ينظم لقاءات صغيرة في شقته ويرفض أن يخاف كعادته. قررت أن تختبر ما تشك فيه وحدها، تحدثت في الهاتف مع صديقة لها، روت قصة عن لقاء وهمي لباهر سعيد مع دبلوماسي فرنسي في لبنان ثم انتظرت ثلاثة أيام، تسلس تلميح عنه

في نفس الجريدة القومية وفي مقال لذات المحررة الصحفية، كررت الأمر بعدها بأسبوع، فظهرت الكلمات في سياق مقال صحفي آخر عن خيانة اليسار المصري للوطن بعنوان «كؤوس الشامبانيا فوق جبل لبنان»، عندها تخلت دينا عن الشك، استقلت تاكسي من مقر عملها واتجهت إلى وسط البلد، انتظرت في استراحة صغيرة حتى سمحوا لها بالصعود، طرقت بابًا بغير لافتة، غرفة باردة في نهايتها مكتب كبير، تجلس وراءه امرأة بلامح شاحبة وجسد مترهل، كانت إلهام عبد المجيد، نائب رئيس تحرير الجريدة القومية التي تهاجم باهر سعيد كل أسبوع.

- خير يا مدام دينا قالوا لي عاوزه تقابليني علشان مسألة مهمة؟

- جاية أتعلم منك إزاي بتجيبني الأخبار من مصادرك، يا ترى بيعتوها لك على شرايط ولا متفرغة على ورق؟

تحدثت دينا دون ذكر أسماء، لكن إلهام فهمت، ومثل محامية مخضمة صاحبة خبرة طويلة تعرف أن القضية إذا كانت مليئة بالثغرات ومآلها البراءة، فلا مانع وقتها من الدردشة مع المحقق خارج الأوراق الرسمية بما يُريحه ويرضي غروره.

أشعلت إلهام سيجارة رفيعة وأعادت ظهرها للوراء وقالت ببرود:

- أوكى حبيبتي ولو إني موش مضطرة لكن هريحك، اللي أعرفه إنك كنتي تحت المراقبة، مش بس مكالماتك، كل حاجة حتى أوضة نومك، واضح إن في جهة مهتمة بيكي شخصيًا، وبعد فترة زهقوا منك.

قالتها ببساطة وهي تبتسم، احتفظت دينا بهدونها وسألتها ببرود:

- ومين بقى اللي مهتمين بحياتي لغاية أوضة نومي يا ترى؟

- جهة سيادية.

قالتها إلهام ببرود شديد، فسألتها دينا بعصبية:

- وليه الجهة السيادية تسجل لي؟

ضحكت إلهام حتى ندت منها شجرة خفيفة رغماً عنها قائلة:

- هو في حد في البلد دي بيسأل جهة سيادية أنتم بتسجلوا ليه؟! جرى إيه يا مدام دينا ما كنتي مترجمة في الرياسة وقريبة منهم، وفاهمة الدنيا بتمشي إزاي.

أشعلت دينا سيجارة لتقلل من عصبيتها وتحمل وقاحة إلهام، ثم عادت تسأل مرة ثانية بنبرة مستفزة:

- وأنتي بقى يا مدموازيل إلهام فتحتي فرع في الجورنال لتفريغ تسجيلات شرايط المراقبة ونشرها؟

تجاوزت إلهام التنمر على عنوستها وقالت:

- خليني أعلمك حاجة تنفعلك في دنيتك، في الحالات الحرجة اللي زي حالتك دي لما المراقبة بتخلص ومفيش قضية هتتعامل، بيعملوا إعادة تدوير للمادة الخام اللي عندهم، أكيد إنتي عارفة إن الحكايات دي بتلهي الناس عن حاجات ثانية، باختصار مفيش حاجة بتتسجل وتتمسح يا مدام، عموماً خديها نصيحة من واحدة ست أكثر منك خبرة بالحياة حتى من غير جواز، بلاش باهر سعيد، بدل ما سيرتك تتبعتر على كل لسان.

خرجت دينا من الجريدة بعد هذه الجملة وهي تجاهد لتبدو متماسكة بعد نبرة التهديد الواضحة، لكن بمجرد مغادرتها المبنى ووقوفها بشارع الجلاء بكت بحرقة كأنها دفنت عزيزاً لديها منذ لحظات، وفي الطابق السابع، بذات المكتب البارد، رفعت إلهام عبد المجيد سماعة الهاتف، أدارت القرص خمس مرات فقط، وعندما وصلها صوت العقيد سلطان قالت بنبرة رزينة:

- إلهام يا فندم، مدام دينا يعقوب لسه نازلة من عندي زي ما حضرتك توقعات،

وأكدت لها أنه بيتسجلها بالصورة كمان وصدقت، أنا بلغتها بالرسالة حرفيًا زي ما حضرتك أمرتني، أي تعليمات تانية يا فندم؟

وضع سامي السماعة دون تعليق، عاد لمراجعة ملف باهر سعيد بهدوء شديد، وعلى مقربة من مقر الجهاز كانت دينا تغادر التاكسي بعدما وصلت إلى بيت زوجها، وجدته يقرأ كعادته، لم تقل شيئًا، احتضنته كأنها تستبق الخسارة، طبعت قبلة على رأسه ثم أشارت له بإصبعها لكي يصمت، جلست أمامه وكتبت رسالة بخط يدها فقرأ مندهشًا «هناك من يراقبنا كظلنا، الحذر لا يعني الخوف، أحبك لأنك لا تختبئ وأريد للدنيا كلها أن ترانا معًا بصورة أوضح، وأكره أن تختصر سيرتنا في شريط».

ذهبت لشحضر قهوتها، بينما باهر ينظر لها ويبتسم، أخبرها أنه سيقضي ليلتين عند والدته لأنها مريضة، أمسك الورقة وكتب على ظهرها «عندما أصل إلى هناك سأتصل بك حتى يعرفوا أننا لا نخاف».

هذه المرة منحته قبلة طويلة أحدثت صوتًا في نهايتها، فانفجرا ضاحكين. في تلك الليلة ومن بيت والدته اتصل بها، أتاها صوته وهو يعيد قراءة كلماتها بصوت عالٍ من ورقتها، ضحكت ثم استعادت جدية تحتاجها، وقالت:

- أيًا كانت الجهة أو الشخص اللي سامعنا دلوقتي فهو شخص حقير، أنا بحبك يا باهر أكثر من أي وقت فات.

ربما لم يكن هناك أحد يراقب بعينه، لكن الصوت يُسجل، وسامي عرفان في غرفة بعيدة يُعيد تشغيله ويحترق مع كل كلمة.

صارع نفسه كثيرًا مثلما كان يفعل وهو صغير حتى غلبته كالعادة، بعد زواج دينا من باهر ببضعة شهور كتب تقريرًا دسمًا عن شخص لا يحبذ النظام وجوده

في النور، وضع توقيعه وفوقه ختم، ثم رثب زيارة رسمية قرب الفجر بعدما حصل على الموافقة، أخذ باهر من فراشه في ليل بلا شهود سوى أمه المريضة، لا لجريمة محددة، إنما لأن شيئًا صغيرًا في قلب الضابط سامي عرفان رفض أن يُغلق هذه الصفحة، وفي غرفة التحقيق جلس على الكرسي الجلدي المعتاد، الظهر مستقيم، القلم في يده اليمنى والملف في اليسرى، والمصباح الأصفر المتدلي فوق رأسه بدا كأنه ينتظر.

دُفع باب الغرفة برفق، دخل باهر سعيد، يبدو أصغر من سنه بنحو عشر سنوات على الأقل، نحيف، شاحب، ربما قلق، لكن في عينيه شيئًا صلبًا، يشبه النغمة الأولى في كونشيرتو مُعقد، لم ينظر إليه مباشرة، لم يبدأ التحقيق، لم يفتح الملف الذي أمامه، ترك الصمت يملأ المكان كما تملأ الموسيقى فراغ المسرح قبل العزف.

في لحظة ما، ودون وعي، راح سامي عرفان يتأمل يد باهر سعيد، أصابع يده الطويلة النحيلة تليق بعازف، بفنان يعرف كيف يُقنع الوتر بأن يحكي، فجأة نهض بغير صوت، سار على أطراف أصابعه حتى اقترب من رأس باهر، شمَّ عطرًا خفيًا، العطر نفسه الذي كانت تهديه له دينا يعقوب كلما سافرت، تلك التفاصيل الصغيرة لا تموت كأنها تُحفظ في الفراغ حتى تُستدعى.

عاد لمقعده وراء المكتب وفتح الملف، قلب الورق، توقف عند بطاقة زرقاء صغيرة مكتوب فيها «باهر يوسف سعيد حسن القشيري / أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة / مواليد مصر الجديدة في 21 سبتمبر 1956 / الحالة الاجتماعية متزوج من المترجمة دينا عبد العزيز يعقوب / لديه طفل من زيجة سابقة / زوجته الأولى متوفاة منذ ثلاثة أعوام».

أعاد الورقة إلى مكانها وأغلق الملف، لم يسأله سؤالًا واحدًا، لم ينظر حتى نحوه بالرغم من أنه معصوب العينين ولن يراه، بعد دقائق جذب ورقة بيضاء من

فوق مكتبه، ودون عليها «يُعاد لمحبسه لحين استجوابه بمعرفتنا».

وقّع ووضع الختم وأعاد الملف للدرج، عاد باهر سعيد لزنزانتة وصار الكرسي الذي أمام سامي فارغًا، أطفأ المصباح الأصفر وجلس في العتمة، رفع يده كما لو أنه يمسك بقوس كمان وهمي، وفي الصمت سمع نغمة تُطِرُ داخله وحده؛ نغمة ساكنة لا تُعرّف لكنها تُترك عالقة في الهواء كذنب لا يغتفر، نغمة جعلته يرتجف كما لو أن باهر سعيد هو الذي حبسه في مكتبه وخرج قويًا بعدما سلب منه كل شجاعته.

عازف كمان ليوم واحد

القاهرة/ مسرح الجمهورية/ سبتمبر/ 1996

الكمان لا يكذب حين يبوح، ولا يخون حين يصمت، ولا يغادر حين يخاف، لا يراقبه من خلف ستار ولا يبتز ضعفه ولا يسأله عن ماضيه ولا يعايره بوجهه الآخر، الكمان لا يحتاج إلى كلمات مديح ولا ينتظر اعتذارًا، الكمان أنثى خلقها الله من جذع شجرة لا تميل إلا لمن يضمها برفق، الكمان يحكي ما يعجز عنه اللسان، لا يملك قلبًا لكنه يجعل القلوب تخفق معه، الكمان لا يهديه إلى توبة ولن يُدينه عند السقوط، لا يفتش في ماضيه ولن يساومه على نجاته في أي وقت، لا يطلب ثمنًا ولا يمنح خلاصًا، فهو ليس بابًا للهروب ولا مرآة للمواجهة. الكمان هو الكائن الوحيد الذي لا يحتاج إلى أن يبرر له أفعاله، يكفي أن يمرر أصابعه الممسكة بالقوس فوق أوتاره الأربعة وهو يحتضنه، حتى يُنصت له كما لم يفعل أحد معه طوال حياته.

دقت الساعة معلنة الساعة مساءً حين غادر مكتبه بالجهاز مبكرًا كعادته كل ثلاثاء، صرف سائقه وقبل أن يقود سيارته تأكد من وجود الكمان بحقيبتها الخلفية، ما إن ابتعد عن مقر عمله بمسافة حتى ارتدى الباروكة الكثيفة المجددة، تتوارى ملامحه بسرعة عندما يستقر الشعر المستعار فوق رأسه، ثم يضع نظارة سوداء عريضة تخفي عينيه وتبتلع نصف وجهه إمعانًا في التمويه.

اختار شارعًا جانبيًا مطلقًا لترك سيارته، تأكد من وجود البطاقة المزيفة بجيبه، ثم هبط وأخذ كمانه في حضنه كمن يعبر بولده الطريق متجهًا لمسرح الجمهورية. في الكواليس جلس على مقعد خشبي آيل للسقوط في أي لحظة، فتح جراب الكمان برفق كما لو كان يجري جراحة دقيقة، أخرج آله وبدأ يعزف

لقطع الوقت قبل الحفل، انسابت موسيقى شوبان من الأوتار كتراتيل في صلوات راهب، تمتزج برائحة أروقة المسرح المختنقة بالغبار، وتصعد بخفة فوق جلبة القاهرة وضجيج الباعة القريبين منه.

«من أنا؟» سؤال بات يورقه حتى وهو يعزف، أهو ضابط قسم النشاط العربي بوزارة الداخلية، أم العازف المجهول ذو الشعر الكثيف المجعد والنظارة السوداء، الفنان الذي يصفق له الجمهور وحده كل مرة ولا يتعرفون على ملامحه بوضوح؟ أي وجه أصدق؟ وجه الضابط الذي يرى في الصمت وسيلة لتعذيب الروح، أم العازف الذي يسلب الروح مع كل نغمة؟ ربما كانت الستارة الحمراء القانية التي تفصل الكواليس عن الجمهور هي الحجاب الأخير بينه وبين حاضره، وربما مجرد مرآة شفافة يعبرها كل ليلة، ليصير العازف الهاوي «أنور سليم» كما زُيِّف بطاقته الشخصية دون أن يضطر لقتل سامي عرفان بداخله.

القاهرة مدينة كاشفة للمواهب، ترحب بالأسماء المستعارة ولا تبحث عن الشكليات، مع ذلك يشعر أن الشخص الذي يسمعه الجمهور كل ثلاثاء مجرد قناع أو حلم غير مكتمل.

ذات ليلة، انتظرتَه امرأة خمسينية أمام باب المسرح، استوقفتَه ونظرت إليه طويلاً حتى انتابه قلق من كونها تعرّفت عليه، ثم سألتَه بصوت متهدج:

- تعرف أن ألكانك قادرة تخليني أبكي وأفرح في وقت واحد.

شكرها وانصرف مسرعاً، لم تكن هذه السيدة تدري أن ما تسمعه في نغمات الكمان ليس حزناً بل اعترافاً، هو نفسه لا يعرف أيهما دخلت قلبه أولاً، القسوة أم الموسيقى؟ هل تعلم ضبط النفس في عمله من انضباط النوتة، أم تعلم الإحساس بالنغمة من دقة تفكيك النفس البشرية وانهيارها تباغاً مع الضغط العصبي والنفسي الذي يمارسه على المتهمين؟

عندما التحق بالجهاز شعر أن كل أوتاره الداخلية تآكلت، بات أكثر ما يخيفه

في الحياة هو الندم، صار أقرب إلى ثييه بعدما غلّفت قلبه حيرة لزجة، بدا مثل نغمة خاطئة في سيمفونية قديمة لم تُعزف كما ينبغي، فضلت تُطرب بأذنيه ليل نهار، يحاول أن يصححها كل ليلة فلا يعرف، يُعيد المحاولة كأنها صلاة مقدسة لا بد من أدائها، لكنه يفشل دائمًا.

- خلي بالك يا أستاذ وأنت بتعدي للناحية الثانية.

يتخيله الناس ضريبًا بسبب نظارته السوداء، يضحك في سره ويشكرهم بكلمات قليلة، لا يعرفون أن عينيه تحفظان خريطة أجسادهم، تفاصيل ملامحهم، طبقات أصواتهم، ميل الرأس وحك طرف الأنف عند الكذب، رعشة الأصابع حين يصل الحديث إلى موضع الألم، تلك النظرات التائهة التي تبحث عن صدق ضائع عند تفكك رواية الكذب.

ليلة بعد ليلة، صار يستشعر أنه كلما أتقن عزف مقطوعة اعتراف خسر جزءًا من ذاته، كأن الكمان يطالبه بثمن لا يُقدّر بمال، ثمن يُدفع من الروح بمقدار عظيم في كل مرة.

في مساء خريفي تتثائب فيه السماء كل حين فتطلق رياحا خفيفة، وعلى أطراف العاصمة، داخل مبنى قديم بغير لافتة تحدد هويته، جلس نائب رئيس الجهاز الأمني وراء مكتبه منهكا من قراءة التقارير ومتابعة نتائج التحريات والاستجوابات، ينفث دخان سيجار بعدما أُلقي عن تدخين السجائر. تقارير الضباط مفرودة أمامه كأوراق لعب مكشوفة ومع ذلك تبدو مبهمة. أدار عينيه في الصفحات، توقّف عند اسم بعينه، رفع حاجبيه دون أن يلتفت إلى مدير مكتبه الواقف بجواره، قال بصوت هادئ تحته غليان لا يخفى:

- العقيد سلطان عازف في مسرح الجمهورية كل يوم ثلاث ومسمي نفسه أنور سليم ببطاقة مزورة؟!

- تحب سعادتك نحوله للتحقيق ويسيب الجهاز بعدها في أول حركة تنقلات،
ممکن نرجعه موسيقى الشرطة أو ننقله إدارة الجوازات، أو لو تحب معاليك
يتقدم لمحاكمة عسكرية ويتفصل؟

- أنت اتجننت يا سيادة العميد؟ جرى لك إيه؟ لا طبقاً إوعى تاخذ أي إجراء
ضده ولا حتى لفت نظر.

أطفاً سيجاره بعصبية ثم علا صوته:

- فين ملف الأفندي سامي عرفان؟

تردد صدى الاسم بعد السؤال في الغرفة كنغمة نشاز في نشيد وطني، اقترب
مدير المكتب خطوة من نائب رئيس الجهاز، فتح ملفاً صغيراً كان قد احتفظ به
جانباً، قرأ بعينه فقرات ليتذكر بعض التفاصيل، ثم طواه قائلاً:

- تقاريره عادية وسلوكه مقبول، حدسه ضعيف وأغلب المعتقلين مش
بيتكلموا قدامه غير في أمور شخصية، لكن عنده قدرة غريبة على الصمت
معاهم لساعات طويلة وأحياناً يجيب نتيجة إيجابية، التقييم النفسي بيقول
إنه يميل للتأمل أكثر من التقضي، حساس زيادة عن اللزوم ومنطوي على نفسه
ومالوش علاقة بزملائه ومعندوش أصدقاء، لكن كان له علاقات نسائية عابرة من
فترة وتوقف، غاوي مزيكا وعزف على الكمان من صغره.

سكت مدير المكتب بعدما شعر أنه أطال في الحديث، لكن نائب رئيس الجهاز
أشار له بكفه ليستكمل، فاسترسل بحماس:

- تقاريره الشرطية والبحثية في الكلية كلها ضعيفة، فعينوه في الخيالة أول
ما تخرج، بعدها نقلوه لموسيقى الشرطة بناءً على طلبه، عيلته ميسورة جداً،
انتقل للمراسم في الرئاسة بقرار مباشر من الرئيس السادات، بعدها سيادة الرئيس
مبارك تمسك به لغاية ما شرف عندنا بقرار من معالي وزير الداخلية، لكن

غير معلوم سبب النقل في الحالتين، في المجمل هو قليل الكلام والاختلاط،
والتقييم النهائي ضعيف ويؤصى بنقله.

- بس كدا والا في حاجة تانية عن الأفندي دا؟

- في ملاحظة غريبة بالتقييم النفسي بتؤكد إن عنده ثقة جامدة في نفسه لما
بيتكلم في أي موضوع، حتى لو بيقول معلومات غلط، عنده قدرة كبيرة على
الثبات الانفعالي وهو بيقول أكاذيب.

أوما نائب رئيس الجهاز دون أن ينظر إليه كأنه يؤمن على كلامه، ثم نفت
دخان سيجاره، وقال:

- فنان بقى والجماعة الفنانين أغلبهم ولاد قحبة، عاملين فيها فلاسفة
وبيفتكروا إنهم فاهمين أكثر من غيرهم، لكن اللي مش مريحني في الظابط ده
إن كل محطات حياته فيها ضدف غريبة، ده أكيد شغل أجهزة مش صدفة أبدا
حكاية الثبات الانفعالي دي، عموما بلغ تعليمات مشددة للظباط محدش يتكلم
قدامه في أي موضوع، أنا عاوز...

قطم كلامه فجأة، ثم سحب ورقة من الملف، تلك المدون عليها التوصية
المكتوبة بخط يد رئيس الجمهورية، وأسفلها توقيع ثقيل من وزير الداخلية
بسرعة التنفيذ، مزر أصابعه عليها كمن يقرأ سطرًا كتبه القدر لا فكاك منه، ثم
خرجت منه الكلمات مظلة بالإحباط:

- واضح إن العقيد الفنان ده وراه حاجة أكبر من اللي ظاهر لنا، أكيد هو عين
لحد في الرئاسة علينا بتراقب شغلنا، وإلا مكش الرئيس حدفه علينا بالتوصية
الجامدة دي، ولا كان سيادة الوزير في الحركة ما يقريش منه، ولا كان ممكن هو
نفسه يبقي بالجرأة دي ويروح يلعب مزيكا وهو لابس لي باروكة ونضارة شمس
وشايل بطاقة مزورة.

صمت برهة طويلة، ثم أكمل كمن يرد على نفسه وهو يُعيد الورقة إلى مكانها:

- عموماً سيبوه يشتغل في ملفات صغيرة، المواضيع اللي مش هتروح النيابة ولا المحكمة، حالات اعتقال عادية، استجواب سهل من غير تعقيد، مجرد متابعة لنشاط سياسي بسيط، عاوزه يحس إنه شغال بجد لكن بعيد عن المطبات.

ثم نظر في عين مدير مكتبه وتغيّرت نبرته وهو يحذره قائلاً:

- للمرة الثانية نبّه على كل الضباط محدش يقول معلومة أمنية أو سياسية قدامه، وأنا هتكلم مع السيد رئيس الجهاز ومع معالي الوزير بخصوصه في أقرب فرصة، وأول ما نلاقي له باب للخروج من هنا نفتحه على وسعه ونكرشه.

هزّ مدير المكتب رأسه وأغلق الملف بهدوء كأنها صفحة وانطوت، لكن في قرارة نفسه يؤمن أن سامي عرفان سيظل يعمل بالجهاز حتى يجلس فوق كرسي رئيسه يوماً ما، ومع ذلك احتفظ برأيه في رأسه حتى لا يفقد كرسيه.

حنين لا يُطاق

القاهرة/ مقهى البستان / مارس / 1996

كل شيء أشبه بمتاهة، لم يعرف قلبها طريقًا واحدًا، بل دروبًا متشعبة تفرعت من تربة ضعيفة متقلبة، وحين جاءت لحظة القرار لم تكن دينا يعقوب قد حسبت من أمرها شيئًا، تركت سامي عرفان وهي لا تزال تحبه، تحبه بكراهية، بندم، تحبه كما يحتفظ الجسد بالذاكرة التي جزحت جلده وخلفت ندوبًا لا تُرى، لكنها تؤلم إذا ما تحسست مواضعها.

تركته ساحة عكس التيار، باتجاه باهر سعيد، اسم ثقيل كصوت الطبول في خضم معركة، دخل باهر حياتها كشخصية خارجة من كتاب تاريخ قديم شيق مليء بالحكايات والدروس، كان واضحًا صريحًا، كلماته كالطلقات النارية لا مجرد صوت، أفعاله تسير أمام أقواله لا خلفها، نظراته تقول الحقيقة قبل أن تنطقها شفتاه، قال لها ذات مساء في مقهى البستان إن الثورة لا تنتظر المترددين، وإن الرجال الذين لا يستطيعون الاختيار لا يصلحون إلا للندم، كانت تستمع إليه وتقول لنفسها هذا الرجل لا يشبهني لكنه يجذبني.

في هذه المرحلة من حياتها كانت تبحث عن رجل ينقذها من هشاشتها ولا يعمق جراحها، من يحبها بجنون لا من تتعلق به مرة من بعد مرة، ثم يتخلى عنها كمن يُلقى بعقب سيجارة في الطريق أثناء سيره، مع الأيام أصبحت تعتاده ثم أعجبها، أسبَرَتْها كلماته وأطربها صوته، حتى طريقة تعبيره عن غضبه راقته، انبهرت بمقالاته وأفكاره التي يطرحها بترتيب لا يخطئ، أعجبها أنه لا يخجل من معتقداته، يسقي الأشياء بأسمائها، صادق حتى في الألم وبسيط للغاية في الحياة.

حين أمسك باهر يدها لأول مرة لم يرتجف، وحين قبلها لم يطلب الإذن، بل فعلها بعفوية، كأن كل شيء في الكون لا يحتاج إلى إذن حين يكون صادقًا، مع باهر بدأت فصلًا جديدًا في رواية حياتها، كل نهار يستيقظ قبلها مهما سهر، يُعد القهوة ويفتح الراديو ويرتب إفطارًا خفيفًا، يستمع إلى نشرات الأخبار كأن الثورة ستعلن الآن من إذاعة لندن، ينظر إليها بحنو وهو يوقظها بكفه، يمررها فوق وجنتها ورأسها، يبتسم ابتسامة كصفحة بحر رائقة، كأنها الوطن الذي نجا من كل الولايات ويريد أن يعيش فيه ما تبقى من عمره في أمان.

كل شهر يرتب لها جولة سيرًا على الأقدام في شوارع القاهرة القديمة، بين أزقة الجمالية وباب زويلة ومسجد السلطان حسن، ورغم ماركسيته المفرطة كان يحكي بفخر عن محمد عبده وعن الأزهريين الثوار، يُوقفها أمام باب المتولي، يشير إلى النقوش ويقول بصوت عالٍ كزعيم يخطب في جماهيره «هنا مزر التاريخ على أطراف أصابعه»، يحكي ويسترسل وهي تنجذب وتقترب وتلتصق حتى تذوب، مع الأيام باتت تحفظ مقالاته ومقولاته، تعرف متى يغضب ومتى يسكت، تعرف أي الكتب يحب وأي المعارضين يحترم، وحين قررت أن تتزوجه لم يكن القرار عاطفيًا، كان من عقل امرأة نضجت وتعلمت من خيباتها السابقة، فقررت أن تختار النور حتى ولو كان خافتًا. لكن بعد الزواج شعرت بشيء غريب يغزو روحها، باهر يعاملها باحترام مفرط، كان وقورًا حتى في علاقته الحميمة بها، صادقًا حدّ الإحراج، وهي تتصرف كأميرة أندلسية خجلة، تغلق الستائر وتنتظر أن يُطلب منها اللمسة، وعلى عكس جنونها مع سامي كانت مع باهر كاملة الحياء، خفيضة الصوت.

يتحسس باهر جسدها كما يتعامل عالم آثار مع قطعة فخارية قديمة، لا يندفع، يلمس برفق، يسأل بعينيه، ثم يتوقف ليطمئن أن لا شيء قد كسر، وهي لا تزال امرأة حذرة، أنثى تعرف كيف تخفي الرغبة وراء طبقة من الخجل، حين التقى جسده بجسدها أول مرة ارتجفت كأنها تفاجأت بنفسها، أو أن جسدها لم يعرف

من قبل كيف يكون جريئًا. مع باهر شعرت أن الجسد وثيقة يجب التوقيع عليها من الطرفين، طقوس محددة واستئذان مهذب تغيب معه لذة الدهشة وقوة المفاجأة، كل مرة تتولد بداخلها رغبة بالصراخ، فالمتعة لا حاجة لها بكل هذا التأكيد، فقط تحتاج لصمت مليء بالرغبة، لتدليل مُفرط قبل الالتحام، واشتياق مُتقد بعده، لا أن يتركها ويدير وجهه للجدار عندما ينتهي منها، فالجسد ينبغي أن يظل جميلًا في عيون المحبين حتى بعد العناق.

باتت في كل مرة يلمسها فيها باهر تتذكر علاقتها بسامي، ضحكها معه، رقصهما معًا، عناقهما الطويل حتى يتخففا من كل قطعة من ملابسهما وهو يُقبّلها بلا توقف، ليالي الغرام في شقتها وفي كابينة المنتزه وشاليه العجمي وبيت جدته عند سفرها للمصيف، حتى في السيارة فوق هضبة المقطم، عندما غطاها بالكامل وقت عاصفة ترابية هائلة حجبت عنهما كل العيون، وظلت السيارة تهتز بهما ساعة كاملة كعاصفة أخرى موازية.

تتذكر وتبكي صامتة، كيف كانت تجلس أمام سامي عارية بلا خجل، تضحك وسط القبلات، تصرخ من فرط النشوة، كانت هي التي تبادر، تدفعه وتسحبه من يده، تتحسس بهشيق وتطفئ نارها على جسده، تقول «أحبك» ثم تعض شفثيه لتثبت أنها تعنيها، تتذكر كيف كانا يتحركان في الفراش كأنهما جسد واحد، لا يعرفان الخوف من حاضر ولا يهتمان بمستقبل، لا يتكلمان إلا عن شعورهما باللحظة الحاضرة، فالجسد وحده كان يكتب كل قصائد الحب وقتها.

تتذكر وتختنق ثم تكره ما تذكرته، فثلقي نفسها في حضن باهر سعيد، تحاول الاختباء من ذاكرتها، كأن المرأة التي صارت عليها هي التي أصبحت عدوًا لها، أحيانًا تشعر بالخيانة لأنها تذكرت، ومع الوقت أصبح الماضي قيدًا، وبات سامي ظلًا يمشي خلفها، تسير مع باهر في خان الخليلي وتشم رائحة القهوة فتري وجه سامي، تمشي بجوار باهر فوق كوبري قصر النيل فتشعر بيد سامي تلامس ذاكرتها، تحاول أن تنسى كي تظل وفيّة لقرارها ولمشاعرها، لكن الوفاء ليس

دائمًا نقيًا، غالبًا تشوبه شوائب من شجن، وومضات من ماضٍ موجعة مع كل ذكرى مشابهة.

جلسا في مقهى البستان، مكانه المفضل مع أصدقاء قدامى، ظل يقرأ لهم مقطعًا من رسالة غرامية كتبها جيفارا إلى حبيبته، وحين انتهى نظر في عيني دينا يعقوب، وبدون مقدمات سألها:

- بتحبيني؟

قالت: نعم، لكن صوتها ارتعش، شعرت أن الإجابة لم تكن خارجة منها، ربما بصوتها، لكنها تخص امرأة أخرى لا تزال تهرب من ظل رجل لا يشبه «باهر»، ولأول مرة منذ زواجها انسابت دموعها، بكت في ضمت من خيانة عقلها لقلبها، وخيانة قلبها لذاكرتها، وخيانة ذاكرتها لجسدها.

عندما عادا للبيت خلعت فستانها ثم ملابسه الداخلية كلها، ووقفت أمامه تطلب الغفران لخيانتها، دخلت الفراش والتصقت به كقطعة خائفة، وعندما احتواها بذراعيه وهَمَّ بها، أطفأت النور وأغمضت عينيها، حاولت أن تحب باهر وحده كأن سامي لم يكن، أن تعيش اللحظة وتنسى الماضي، لكنه لا يزال يسري في عروقها، تشعر به ينبض كلما اقترب باهر منها، ليلتها أثارتها كما كانت مع سامي، لكن حين بدأ الالتحام شعرت بغربة، جسدها حاضر لكن روحها تراقب من بعيد، ترى المشهد ولا تعيشه، وحين وصلا إلى ذروة اللذة خرج صوته خفيضا كأنه يعتذر عن المتعة، أما هي فبقيت ساكنة، تبتسم، كأنها أدت واجبًا وطنيًا.

ليلتها اقتنعت أن باهر سعيد حتى وإن كان يحبها أكثر مما تستحق، فإنها ستظل تشعر أن هذا الحب لن يكتمل ولن ترتوي منه مهما سقاها مشاعره خمرا، وإذا كان أجمل ما في باهر أنه لا يشبه «سامي»، فإن أقسى ما فيه أنه كان لا يشبهه على الإطلاق!

نقطة اختراق

باريس / سان ميشيل / فبراير / 2015

في مقهى صغير بمنطقة سان ميشيل لا يتردد عليه مصريون ولا عرب، جلس العميد طارق زيدان في انتظار مدير أعمال سامي عرفان، الذي وصل قبل مواعده بخمس دقائق فوجد طارق قد فرغ من فنجان قهوته.

دخل متوترًا يحمل نظرة متوجسة للعميد الذي أجبره على اللقاء بصيغة تهديد مغلفة بعناية شديدة، طلب له كأسًا من النبيذ الوردي الذي يفضل، فاندesh لمعرفته بتفاصيل صغيرة عنه، ثم قال بابتسامة دبلوماسية:

- أهلاً أستاذ فطين، آسف لو طلبت نتقابل فجأة ولخبطت لك مواعيدك، بس إحنا بنحب نكون دايماً على اطلاع.

بحذر شديد كأن الكلمات لها ثمن لا يقدر عليه، قال فطين:

- مفيش مشكلة يا فندم، لكن الحقيقة ما فهمتش طبيعة اللقاء أو سببه في التليفون لما معاليك كلمتني.

مال طارق بجذعه للأمام قليلاً، وبنبرة ودودة للغاية قال:

- أنت راجل شاطر، أكثر من عشر سنين في باريس كوّنت فيها نفسك واشتغلت في المزيكا واتجوزت وعملت اسم كوكيل أعمال فنانين، وعندك بيزنس تاني على جنب، ودلوقتي بقى معاك أشهر عازف في أوروبا كلها، فرخة بتبيض ذهب، مش كدا والا إيه؟

وضع فطين كأس النبيذ وتردد في الإجابة برهة، ثم قال ببطء كمن يفشي سرًا:

- أنا مدير أعماله في الظاهر لكن الحقيقة مجرد سكرتير شخصي، في ناس غيري مسؤولين عن شغله، ووكيله الفني شركة فرنساوي كبيرة، وأكد حضرتك عارف كدا.

استرسل العميد طارق زيدان:

- عارف طبعا، وعارف كمان أنك وطني مخلص لبلدك وبتزورها إجازة شهر كل سنة وبتجيب قرابيك هنا تشغلهم، وعارف كمان وعاوزك تعرف معايا أن وجود شخصية مصرية مهمة، زي الفنان سامي عرفان، في باريس مش مجرد حفلات وموسيقى، وجوده له قيمة ورأيه مهم، وممكن يبقى له كمان توابع.

ردّ فطين بسرعة هذه المرة:

- أستاذ سامي بلدياتي وهو فنان يا فندم، فنان وبس، يعني بعيد عن السياسة تمامًا والناس كلها بتحبه.

ضحك طارق باستخفاف ووضع ساقًا فوق أخرى وأشعل سيجارًا، وقال:

- وأنا كمان بحبه، بس أوقات الفنانين بيقلوا حاجات من غير ما يقصدوا، وبيدخلوا دواير إحنا لازم نرصدها. عمومًا مش هطول عليك، أنا بحب الخط المستقيم دايماً، شوف يا فطين إحنا عايزينك تساعدنا، تبقى عينينا اللي ماشية معاه، تبلغنا تحركاته، مقابلاته، مين بيكلمه من الصحفيين، مين بيقرّب منه.

تلقت فطين حوله عفويًا، ثم قال بنبرة خفيضة وهو يتعرق:

- يعني... أتجسس عليه؟ دا بلدياتي يا فندم، وشغلي معاه بقاله ثلاث سنين ومع ذلك خيرته مغرقني، إزاي أعمل كدا؟ لا يمكن يا فندم، وياريت تشوفوا حد غيري أو حتى تصرفوا نظر، لأن أستاذ سامي فنان مالوش في السياسة خالص.

نظر له العميد طارق نظرة طويلة جعلت «فطين» يتعرق أكثر ويعب من إناء

الماء كوبين متتاليين، ثم أخرج ظرفًا متوسطًا من حقيبته، وضعه على الطاولة أقرب لفطين، وبهدوء قال:

- بص في الورق دا يا فطين، هتلاقيه مُسلي، ولو معجبكش نشوف لك حاجة ثانية غيره.

فتح فطين الملف بينما يده ترتعش، وجد فيه صورًا له في لقاءات حميمة مع ساقطات، وفواتير ألعاب قمار، ورسائل بريد إلكتروني يستخدمه باسم مستعار للاتفاق على عمولات جانبية لشركته عن إعلانات حفلات سامي عرفان، ورصيد حساب سري في أحد البنوك باسم ابن شقيقته بأرقام تجاوزت المليون يورو في أقل من عامين، وبينما يقلب في أوراق الملف الذي كان بداخل الظرف، قال العميد دون أن ينظر إليه:

- على فكرة مش عاوزك تفهمني غلط، أنا هنا مش علشان أهديك أو أقول أنك بتسمسر وتخنصر لا سمح الله، لكن علشان أقولك الحقيقة، وأنبهك إن أي مخالفة قانونية ممكن تتقلب لقضية، وأي قضية بتجر وراها فضيحة، وكل فضيحة بتنتهي على قطع عيش، وكل دا كوم والسجن هنا كوم ثاني.

تغيرت ملامح فطين وحاول أن يكون شرشًا في محاولة يائسة أخيرة:

- دي حاجات قديمة يا طارق بيه ومش مهمة، سامي بيه عارف كل قرش بكسبه من وراه وعلى فكرة، دي ملايم بالنسبة للمجال بتاعنا وممكن تسأله، ولو عاوز الحق الوكيل بتاعه بيسرقه وهو اللي يستحق الفضيحة وقطع العيش، لكن أظن حضرتك مش هتستفيد حاجة أنك تفضحني قدام مراتي وولادي بالصور الخايبة دي وأنا ابن بلدك، زي ما قلت لمعاليك دي حاجات قديمة وراحت لحالها وأنا.....

قاطعه طارق لكن بهدوء قاتل وهو يرفع كفه ليسكته:

- ممكن تبقى ملاليم زي ما بتقول لكن سامي ما يعرفهاش، وجايز تكون قديمة زي ما بتقول برضه لكن حصلت من كام شهر كدا ... لكن الاكيد يا فطين أنها عنوان مثير في مجلة «لوموند» بكرة الصبح... مدير أعمال العازف الشهير سامي المصري يعزف من وراء ظهره، إيه رأيك في العنوان الصحفي دا؟

- أرجوك يا طارق بيه أنا مش حمل البهدلة. أنا يمكن غلطت لكن عمري ما أخون اللي بيأكلني عيش.

- ما انت خلاص عملتها مرة يا فطين وخنصرت وسمسرت من وراءه، مش هتفرق بقى لما تتعاون، بالعكس يمكن المرة دي معانا هي اللي تمسح ذنوبك اللي عملتها في المرة الأولى.

بتردد واضح قال فطين:

- وكمان سامي بيه ما بيختلطش بالناس وأغلب الوقت يا بيلعب مزيكا يا بيسجل صوته على شرايط في مكتبه وأنا حتى معرفش بيسجل إيه ولا حد يقدر يدخل عليه من غير إذن، يعني مش هقدر أساعدكم في إني...

اعتدل طارق زيدان في جلسته وارتسمت جدية على ملامحه وقاطعه قائلاً:

- خليني أقولك حاجة مهمة نسيته، لو تعاونت بإخلاص هتحصل على حماية، وهنا في باريس الحماية مهمة، ممكن تسهل لك أمور كثيرة كأنك في بلدك، وممكن برضه الحماية تتشال في أي وقت وتتعري كأنك في مصر برضه، يعني مش هتحس بغربة معانا، عموماً عندك ساعة تفكر فيها على مهلك، وعلى ما أرجع مكسبي تكون شاورت نفسك وتكلمني علشان أقولك هتعمل إيه بالضبط، صدقني الموضوع سهل فبلاش تصعبه على نفسك، ومبدئياً عشان ترتاح وتطمئن..
اتفضل.

أخرج طارق من حقيبته علبة صغيرة، قلبها فطين بين يديه ولم يفتحها، سأل

بعينيه فأجابه العميد كأن الأمر تم حسمه:

- دي علبة فيها كام ميكروفون وكام كاميرا، كل قطعة قد راس الدبوس، تحطهم الليلة في شقة سامي علشان تريحنا وتريح ضميرك من نقل الكلام، أما اللي بيحصل بره البيت فمطلوب منك يا بطل تقرير كل أسبوع بخط إيدك.

تنفس فطين بعمق وهو لا يزال مُمسكًا بالعلبة، وقال بصوت مخنوق:

- ولو رفضت؟

- يبقى رينا يستر عليك... لكن نصيحة أخيرة.. في شغلنا مفيش حد بيقدر يقول «لا» مرتين.

أجابه طارق زيدان ومضى حاملاً حقيبتة، مُودِّعًا إياه بابتسامة باردة.

جرعة دواء لمرض مزمن

القاهرة/ مبنى بمدينة نصر/ ديسمبر/ 1996

الليل في هذا المكان لا يُقاس بالساعات بل بعدد الأنفاس، أمام المكتب يجلس رجل نحيل منكسر، رأسه متدلٍ على صدره كمن ندم على خطيئة أبدية لا تُغتفر، يداه على ركبتيه بلا قيود، لم يتحرك منذ يومين كأن القيد في داخله، صوته مفقود من فرط الصمت على مدار أيام سابقة على استجوابه الأخير.

اعتدل سامي عرفان في مقعده وراء مكتبه، ثم قدّم نفسه مثلما يفعل كل مرة، قائلاً:

- أنا العقيد سلطان من مباحث أمن الدولة يا دكتور باهر وأنت دلوقتي في تحقيق رسمي.

أوماً باهر برأسه كأنه يعلن استعداداه لأي سؤال، دون صوت عالٍ، أو حتى نبهة وعيد، سأله سامي:

- اسمك؟

- باهر سعيد.

- مرة ثانية وثلاثي لو سمحت.

- باهر يوسف سعيد.

- حالتك الاجتماعية؟

- متزوج وعندي ولد من زوجتي الأولى، عمره خمس سنوات وعاش مع جدته بعد وفاة أمه.

مرّت ساعتان، مع الوقت تتكرّر الأسئلة، تُعاد بصيغة مختلفة كل بضع ساعات كجرعة دواء لمرض مزمن، سأله عن مكانه وقت وقوع عدة حوادث متفرقات لا رابط بينها، عن وظيفة خاله غير الحكومية بعد انتهاء مواعيد عمله بوزارة الري، عن طبيعة علاقته بطلّبات الجامعة، عن معنى كلمة وطن في ذهنه، بدا كل سؤال كخرزة مشبّحة تدور ولا تنتهي.

بعض الأدلة تثير شكوكًا بسيطة، وغالبيتها ترشح براءة مؤكدة، واجهه ببصمات غير مكتملة، وصورة مشوشة من كاميرا مهزوزة، ثم شهادة من جار أعمى سمع الصوت وقرر أنه يعرف النبرة، كل شيء يقول إنه مشتبه به، على الأقل على الورق، إلا شيئًا واحدًا يؤكد براءته؛ شيء خفي، لا يُكتب في محاضر رسمية، ولا يُقال في اجتماعات، شيء يسكن في عقل سامي عرفان وحده لكنه لن يُصرح به الآن، شيء يصرخ بأن هذا الرجل لا يكذب ولا يعرف كيف يكذب، لكن سامي يناور ويدور حول موضوع واحد بلا ملل، فالجالس أمامه عدو أكثر منه متهم.

- نعيد من البداية، دكتور باهر.. جاهز؟

لم يرد ثم تمت بصعوبة:

- أنا تعب.. مرهق.. ذهني مشوش.

- ما دورك في التخطيط للمؤامرة؟

أجاب باهر:

- مؤامرة إيه يا فندم؟ أنا لم أخطط لأي شيء في حياتي، حتى الحياة نفسها تقبلتها بعشوائيتها.

- جاوب بصورة أوضح ومن غير فلسفة فارغة.

- لم أفعل أي شيء يستدعي وجودي هنا.

- كنت فين ليلة 18 مارس؟

يصمت

- باهر؟

- كنت نايم في بيت أمي، قضيت الليلة عندها لأنها كانت مريضة ومراتي يومها أخذت ابني الصغير يبات معاها.

- لكن أمك لم تؤكد كلامك؟

- مؤكد خايقة.

- وأمك تخاف ليه؟

- لأنكم تستطيعون أن تخيفوها لو قالت الحقيقة.

يتجاوز سامي كلمات باهر ويقفز فوقها برشاقة سائلاً وهو يقترب منه ويميل بجذعه ناحية قلبه:

- هل تزوجت دينا يعقوب عن قصة حب؟

يصمت

- كم مرة بتنام مع مراتك كل أسبوع؟

يهز رأسه بانزعاج

- هي بتنبسط أكثر ولا أنت أكثر لما بتنام معاها؟ قول ما تتكسفش..

يبصق

- هي اللي بتربي ابنك من الجوازة الأولى؟

- لا هو عايش حالياً مع أمي.

- وياترى كنت ناوي تخلف منها والا معرفتش؟

يصمت

- بتفكر تطلقها بعد ما اتقبض عليك لأن ممكن تفضل في السجن سنين طويلة؟

لا يرد، لكن يرتج من داخله

- لو عاوز نصيحتي طلقها بدل البهدلة، أنا عارف مراتك كويس، وعلى رأي المثل إسأل مجرب ولا تسأل طبيب.

يبصق مرة ثانية

يهم سامي عرفان بصفعه ثم يتراجع، تظل كف يده منقبضة وهو يركز على أسنانه ثم يلقي بكارت آخر:

- طيب هل لها دور في التنظيم والا تحب نستدعيها ونعرف منها بطريقتنا؟

يصرخ باهر:

- لا دور لها ولا يوجد تنظيم ولا مؤامرة، أرجوك لا تستدعي أي حد وأنا مستعد أوقع لك على أي اعتراف.

اقترب سامي وربت على كتفه قائلاً بنبرة ودودة للغاية:

- لا.. لا، مفيش الكلام دا يا دكتور، الحاجات دي كانت زمان في الستينيات أيام عبد الناصر، إحنا في عصر جديد، أنا مش عاوز توقيعك على أي اعتراف يا عزيزي، عاوزك تفتح قلبك وتحكي لي كل حاجة بينك وبين مراتك، اعتبرني صاحبك وفضفض معايا، وبعدها نشوف لو ناوي تطلقها وتروح بيتك أو ترفض وساعتها نشوف هنكتب إيه في المحضر ويستاهل التوقيع ولا لا.

يصمت

تركه كتمثال آيل للسقوط، بعد ساعة اقترب باتجاه جهاز التسجيل، ضغط الزر الأحمر وقال بنبرة جادة:

- استجواب باهر يوسف سعيد، الجلسة الرابعة، الساعة الخامسة فجراً.

قالها بعدما استبدل بالشريط آخر وأعطى ظهره لباهر الذي كان مجبراً على غلق عينيه المعصوبتين، ومع ذلك يبكي.

أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة إلا خمس دقائق عصراً، الهواء ساكن بالغرفة كما كان، والرائحة فيها أشبه بذكرى أليمة لا تُنسى ولا تغيب. لا يزال باهر في مكانه كأنه لم يتحرك منذ أن لحق، فجأة شق بكارة الصمت صوت سامي عرفان سائلاً:

- باهر... مين كتب البيان اللي اتوزع في الجامعة وبتعلن فيه رفضك لترشيح الرئيس لفترة رئاسة جديدة؟

- ما عرفش.

- لكنه موقع باسمك؟

- أنا موقعتش أي بيانات ومش محتاج أكتب بيان، أنا أستاذ علوم سياسية وأقدر أقول رأيي علانية بحكم وظيفتي.

- خبير الخطوط أكد أنه خطك؟

- الخبير يكتب اللي أنتم عاوزينه، ولو الحال انقلب هيكتب إن المنشورات والبيان بخطك أنت.

اقترب سامي من أذن باهر وبنبرة متلهفة همس:

- أنا مستعد أغير تقرير الخبير بشرط تقول لي بصراحة.. مراتك بتحبك ولا هو

حب من طرف واحد؟

لا يجيب

- لو طلقتهما بشرفي هتخرج فوزًا وأقطع قرار الاعتقال.

يبصق

دار سامي حول باهر، يعرف أنه لا يراه لكنه يستمر في الدوران قائلاً:

- عارف يا دكتور إيه أسوأ حاجة في الكذب؟

لا ينتظر منه إجابة ويسترسل:

- الكذب دائماً مُرهق، لو بتقول الحقيقة مش محتاج تفكر، الكذب بقى محتاج أنك تألف الحكاية، وتعيد ترتيب الأحداث في كل مرة بنفس الطريقة، وأنت مجهد ومنهك جداً.. وأنا عاوز أساعدك، علشان كذا حطيت لك الحل في السنارة علشان تاكل الطعم، ووعدتك أنني مش هشد سنارتي وكمان هسيبك حر بعدها.

رفع باهر رأسه لأول مرة منذ أيام، عيناه لا تزالان تدمعان من وراء العصابة، نطق بنبرة تشبه الرجاء:

- أنا معملتش أي حاجة وأكيد أنت عارف، أنا معتقل بقالي شهور ومش عارف ليه.

ابتعد سامي عنه، وبالرغم من أنها كلمات بسيطة، مكررة، ربما قالها غالبية من جلس هنا على المقعد نفسه، لكنها مسّت قلبه، شعر بشيء يتزحزح داخله كتحرك الجليد قبل الانهيار، بات واقفاً على حافة قرار، على وشك أن يفعل شيئاً لا رجعة فيه، أن يُصدّق باهر ويخلي سبيله. كبح الشعور حتى وأده، لكن رجفة مسّت أصابعه أقلقته، فقبض بيمينه على أصابع يده اليسرى بقوة، كأنه يسكتها هي الأخرى.

فجأة قال باهر دون أن يسأله سامي:

- الحقيقة قلتها لك من أول يوم، لكن يظهر إنك مش جاي تسمع وعاوز تسجل كل كلمة، أنا بس مستغرب إنك بتغير الشريط كل شوية في جهاز التسجيل كأنك بتخبي حاجة وبتظهر حاجة ثانية.

بهت سامي عرفان من ملاحظة باهر الذي لا يرى، عاد لكرسيه وهو ينظر نحوه نظرة مريبة، تأكد من إحكام العصابة، ثم بذل الشريط ووضع شريطًا آخر، ضغط الزر الأحمر وقال بنبرة حاول فيها الحفاظ على توازنه:

- استجواب باهر سعيد يوسف، الجلسة الخامسة، الساعة الرابعة عصرًا.

- اتفضل قول الحقيقة يا دكتور باهر أنا سامعك.

- الحقيقة إن عندي شك أقرب لليقين إنكم اعتقلتوني لسبب شخصي، غالبًا يخص جوازي من دينا يعقوب، لكن مش قادر أربط الموضوعين ببعض في دماغي لغاية دلوقتي، وكمان عندي شك كبير إني موجود أصلًا في مباحث أمن الدولة، وإن حضرتك ظابط ومحقق، لأن أسئلتك سطحية ومباشرة زيادة عن اللزوم. أنا فين؟ وأنت مين؟

ارتعشت إضاءة المصباح فجأة، تبعها دوي مكتوم، ثم غاب الضوء، غمرت العتمة وجه سامي عرفان فارتفع صوته بالسباب، أغلق جهاز التسجيل، ووضع الشريط مع بقية الشرائط الخاصة في الخزانة، ترك التسجيلات الرسمية فوق مكتبه، وضغط زر الجرس زاعقًا في فرد الأمن ليعيد المعتقل لمحبسه، وفي تلك اللحظة أدرك باهر سعيد أن شيئًا ما قد سقط وتهشّم، ربما لم يُسمع له صوت، لكنه لن يصلح مرة ثانية مهما مرّ الزمن.

اختفاء قسري

القاهرة/ التلفزيون المصري/ يناير/ 1997

في زاوية مُعتمة بغرفة مُقبضة لا تُكُتب فيها الحقيقة كاملة، ولا تُروى الحكايات إلا ناقصة، اعتاد سامي عرفان في كل مرة يحقق فيها مع باهر سعيد أن يقسم التحقيق إلى نصفين، أحدهما رسمي والثاني مُرضي، الجلستان مُسجلتان، لكن الأولى فقط هي التي تظهر لرؤسائه، في النصف الأول يسأله عن أشياء لم يفعلها، أسئلة مستوحاة من ملفات فارغة وتحريات كُتبت على عجل، وأسماء ثلثت من الهاتف وتركب في سيناريوهات جديدة، أسئلة لا تحتاج إلى إجابات بل ربما إلى صمت طويل، ذلك الصمت الذي بدأه باهر مبكرًا، ثم تمسك به للنهاية كما لو كان أخرس.

في النصف الثاني من جلسة التحقيق يخفت الضوء قليلًا، يوقف سامي التسجيلات الرسمية، ويضع شريطًا خاصًا في الجهاز ليسأله عن دينا يعقوب، عن لون جسدها تحت ضوء غرفة النوم، عن ملمسه، عن كلماتها وهي في حضنه، عن تصرفها حين تغار، عن صوتها وهي تتأوه بعد الرغبة، لم يكن باهر يجيبه، فقط ينظر إليه من وراء العصاة السوداء ثم يبصق، كأنها محاولة لتقيؤ القبح في وجه من صنعه.

يحتاج سامي إلى إجابات لكنه يواجه بحالة من الصمت المربك الذي يملأ رأسه بخيالات لا تنتهي، وبعد أن يفرغ من التحقيق يجلس إلى مكتبه، يفتح الخزانة الحديدية، يضع الشريط الأصفر الصغير فيها كمن يُودع كنزًا، ثم يوقع قرار تمديد الاعتقال، ربما لا أحد بالجهاز يعلم أصلًا أن التحقيق يُعاد بهذه الصورة، ولا أن التسجيلات الودية موجودة، ولا أن ما يحدث احتجاز نفسي لشيء مكسور فيه

هو، وليس في باهر سعيد.

في إحدى المرات استمع سامي كعادته السرية إلى الشريط وحده، سمع صوته وهو يسأل، صمّ أذنيه سكوت باهر الطويل، كأنه لَخاد يقف على حافة قبره، يُوشك أن يغلق بابه عليه وهو لا يزال على قيد الحياة، ابتسم ثم ضحك، وبعدها بكى بلا صوت، ثم مسح وجهه وجدد قرار الاعتقال ثلاثين يومًا أخرى، كتب في تقريره أن الإفراج عن باهر سعيد خطر على الأمن العام، ثم جلس يستمع لموسيقاه تاركًا دموعه تنساب مع ألحانه، الحقيقة الوحيدة التي لم يكتبها هي أنه لا يحتمل رؤيته خارج الزنزانة، ففي كل مرة يراه جالسًا أمامه بكبرياء يشعر أنه يملك لحظة من ماضٍ سُرق منه، لحظة اسمها دينا يعقوب.

على مدار شهور ظهرت دينا على أكثر من شاشة مصرية وأجنبية، تسأل سؤالًا واحدًا عن مصير زوجها باهر سعيد الذي اختفى دون محاكمة، دون زيارة، دون إشارة حتى لمكانه، تُصر أنه حي والدولة تحتجزه بلا سبب، وعلى الضفة الأخرى يبذل سامي عرفان كل ما في وسعه كي لا يظهر باهر سعيد للنور، كان حريصًا على ألا يُقدّم الرجل إلى محاكمة، فالمحاكم تحوّل الضحية والجلاد إلى وثيقة، والوثائق تعيش أطول من القتلة وأحيانًا لا تموت.

في مكتبه جلس سامي أمام النافذة يراقب صورته المنعكسة على الزجاج، رأسه يُثقل كتفيه، وذاكرته مُحملة بحمولة زائدة، مَرّر أصابعه على سطح المكتب كمن يعزف دون أوتار، ثم فتح درجًا أخرج منه صورة لدينا التقطت لها في مؤتمر صحفي، كانت تبكي وفي عينيها شرارة مع إيمان لا ينطفئ، سأل نفسه لماذا لم يقتل باهر يوم اعتقاله بحجة أنه حاول الهرب أثناء عملية الضبط؟ هل كان يحتاج إلى أن يراه يموت ببطء؟ أم أن حبه لدينا كان أعقد من أن يحلّه موت بسيط لا يتعدى رصاصة في الرأس؟ زفر في ضيق لقا لم يجد إجابة، المشكلة

التي تواجهه الآن أن الصحافة بدأت تسأل وتنقب، والنشطاء بدأوا يضعون اسم باهر في منشوراتهم، والطلبة يرسمون صورته على الجدران، صورة بلامح مبتسمة كأنه نبي يُحرض على ثورة، كرة الثلج تكبر وتهدد السردية التي نسجها سامي وتفتح الباب على الماضي، والماضي في مصر لا يموت، بل يتنفس تحت الأرض ويزحف إلى الضوء حين يُذكر اسمه ويُنبش قبره، ورؤساؤه يدركون ذلك، ورقبته هي التي ستطير قبل أن يطل باهر سعيد من زنزانته.

- إبقى شوف لنا حكاية الجدع اللي اسمه باهر سعيد، وخليهم يطلعوا بيان.

قالها الرئيس مبارك لرئيس ديوانه على هامش لقاء مع قيادات الحزب الوطني، تحدث فيه مبارك عن أسس الديمقراطية والحريات التي أرسنها الثورة، هز رئيس الديوان رأسه لمبارك وطمأنه بسرعة التنفيذ. لم يكن سامي يدرك أن اسمه سيطرح على طاولة أعلى بكثير من مكتبه وكل قياداته، ففي الصباح التالي كان التقرير على مكتب الرئيس، بينما وزير الداخلية قبلها بساعتين يجلس في الاستراحة منتظرًا الإذن بالدخول، تصفح مبارك التقرير على عجلة، ثم توقف عند اسم الضابط سامي عرفان الذي حقله رئيس الجهاز المسؤولية كاملة واقتراح التوصية بنقله لوظيفة إدارية بوزارة الحكم المحلي، صحيح أشار التقرير إلى أن باهر سعيد معارض شرس للنظام وسبق له كتابة مقالات تحريضية ضده، وتم اعتقاله لبثه دعايات مثيرة وإشاعات كاذبة تكدر السلام الاجتماعي، لكن فترة الاعتقال شارفت على العام الآن، وباهر سعيد لم يظهر في أي جهة قضائية حتى بات ضرر ظهوره أكبر من نفعه، وصار إخفاؤه أفيد من إعلان اعتقاله، فلا تبرير يصلح لإخفاء قسري ممتد لعشرة شهور، لكن تلك العبارات لا تُذكر في التقارير، فقط تُقال شفاهة فلا تحفظها ذاكرة التاريخ.

- خلوا بالكم من سامي عرفان دا ابن ناس، مش جدع لَبط زي الجماعة بتوعك، بلاش تنقلوه الحكم المحلي وخلوه يشتغل في الحاجات الخفيفة لو مش قادر يواكب المسيرة، يحضر حفلات السفارات والحاجات الرايقة دي.

تفضّد عرق وزير الداخلية فجأة وتلعثم وهو يردد:

- تمام يا فندم.. أوامر معاليك.

- شدوا حيلكم ورينا معاكم.

ابتلع الوزير ريقه بصعوبة ثم أردف، بينما مبارك يطوي التقرير بلا مبالاة معلناً انتهاء اللقاء:

- بعد إذنك يا ريس، بالنسبة لاعتقال المدعو باهر سعيد عندنا اقتراح إن.....

- يا سيادة اللوا دي أمور تحلوها عندك في الداخلية، طلّعوا بيان للناس والغلطان ياخذ جزاؤه، المهم تطلع بيان النهاردة أو بكرة بالكثير تبان فيه الصورة كويسة، ولو محتاس روح نسق مع الجماعة بتوع الإعلام، همة بيّفهموا في الحاجات دي كويس، أنا موش عاوز مشاكل مع الأمريكان ولا صداع من الجماعة بتوع حقوق الإنسان، عاوزين نشوف شغلنا ومشاكلنا، كفاية علينا رغيف العيش المدعوم للمواطن بتاعنا اللي بندبره كل يوم.

- تمام يا فندم.

في الصباح التالي صدر بيان رسمي وإن كان بغير توقيع يدل على الجهة الصادر عنها، تداولته كل الوسائل الإعلامية كوثيقة حكومية مؤكدة، في حين اعتبره المواطنون صادراً عن وزارة الداخلية لقناعة قديمة راسخة لديهم أن اختفاء الناس يدخل ضمن اختصاصاتها غير المعلنة، أوضح البيان أن المواطن باهر يوسف سعيد ليس موجوداً بأي سجن من السجون، ولم يُتخذ أي إجراء قانوني ضده، وأن التحريات توصلت إلى تورطه في علاقة مع فنانة مغمورة، وكان يتردد على فندق صغير بوسط القاهرة حتى الخامس والعشرين من شهر مارس 1996 واختفى بعدها، وترجح المصادر أنه ربما يكون قد غادر البلاد مع هذه الفنانة بغير الطريق الرسمي. وأشار البيان إلى أن الشرطة وجدت آثار

دماء في غرفة مستأجرة ببطاقة مزورة تخص الفنانة المغمورة، لكن لم يثبت صلة للمواطن باهر سعيد بعينة الدم حتى الآن، ونؤه البيان في نهايته إلى أنه تم تقنين الإجراءات وإبلاغ الجهات القضائية المختصة، وتبين من المتابعة أن التحقيق حُفظ بقيد النيابة العامة للواقعة بدفتر الشكاوى الإدارية.

انتهى البيان وسقطت دينا في منزلها مغشياً عليها، وفي الجهاز مال ضابط على أذن سامي عرفان الذي كان يتابع إذاعة البيان من مكتبه، ولا يعرف من الذي تولى صياغته وأصدره، قال الضابط:

- خدها مني حكمة يا سلطان بيه، حاجتين يقتلوا التعاطف عند المصريين..
الإلحاد والنسوان.

نظر له سامي بذات النظرة المدهوشة التي تابع البيان بها كأنها التصقت بملامحه، فأردف الضابط وهو يرفع كتفيه:

- شعب متدين بطبعه.

خرج السؤال مشروحاً من حنجرة سامي:

- هو مين اللي كتب البيان ده يا باشا؟

مط الضابط شففيه قائلاً:

- علمي علمك. لكن في الحالات الحرجة دي عادة بتتشكل لجنة علشان الدم يتفرق بين القبائل زي ما بيقولوا.

في اليوم التالي خرجت دينا تبكي في بث مباشر، لكن الناس قبلها بليلة كانوا قد تشبعوا بالريبة، وبات من السهل عليهم تصديق الانحراف بدلاً من الاقتناع بالطهارة، فلم تجد دينا يعقوب من يسمعها، ومع الوقت خُفَّت الأمرُ كشمعة احترقت كلها في ليلة مُعتمة.

دخلت باكية غرفة مكتب زوجها، خفّضت الإضاءة كأنها توارى دموعها عن كتب باهر سعيد ومقالاته وتمثاله النصفى البرونزي، نظرت إلى الخريطة المعلقة على الحائط أمامها، تتلوى فيها خطوط نهر النيل بطولها، ولوهلة خُيل إليها أنها تشبه ثعبانًا مُمدّدًا بين مدن بلا ملامح؛ ثعبان أصفر يحرس مملكته في صمت، متسلخ بسم كثيف ينفثه في وجه كل من يتكلم، الآن أدركت أن القضية انتهت وأنها خسرت المعركة، لا بالقانون لكن بجريمة جديدة، بتشويه السمعة، بالفضيحة المعلنة، فما إن يُلصق العار على وجه رجل حتى لا يسأل عنه أحد ولو عاش ألف سنة بعدها.

قبل أن تنهمر دموعها للمرة الثانية، دخل عليها ابن باهر سعيد، يحمل ذات النظرة المتحدية التي ورثها عنه، ظل يرقبها متسمّرًا في مكانه على عتبة الباب، حتى لمحت دينا دموغًا تحجرت في مقلتيه، فأدركت أنه صدّق كل ما قيل عن أبيه.

يكفي أن نكون معًا

باريس / سان مانديه / يوليو / 2012

لم يكن الحلم يومًا مجرد بيت لكنه وعد بحياة مختلفة، في أرض رحبة تمتد على تخوم المدينة كجسر بين الجحيم والجنة، تحيط بها سهول خضراء تفصلها عن صخب باريس، ترتفع على تلال صغيرة تطل على حقول نضرة لم تعرف بعد طعم الإسمنت، أرض بكر لم يكتب فيها سامي عرفان سوى كلمة أحبك.

كان يتحدث عنها كما يتكلم الحالمون عن مملكة ساحرة، لكنها لا تزال قيد الإنشاء، يصف الغرف والنوافذ والممرات والشرفات التي تطل على أشجار وارفة، تنفض أوراقها في الخريف مثل رسائل حب قديمة لا تموت، يعتمد أن يكرر وعوده كلها، هنا سيبنى بيتًا ليعيشا فيه بعد التقاعد، يتغلغل في قلبها اليقين بوفائه وصدق مشاعره، فلا تقدر على التشكيك فيهما، تصفى لكلماته وعيناها تتبعان حركة يديه، وهو يشير في الهواء إلى مسارات لم تُشق بعد، إلى أفق لا يحده جدار، وخيال لا يحول واقع دون تحقيقه.

اقترب ولثم شفتيها بقبلة طويلة، ثم هبطا بجسديهما وافترشا العشب الأخضر الندي، تقلبا وهما يضحكان حتى استلقيا على ظهريهما متجاورين، أمسك بكفها ومال برأسه نحوها ثم أغمض عينيه، طلب منها أن تتخيل البيت، وراح صوته يعلو بالأحلام... «هنا سنربي كلبًا، وفي هذا الركن من الحديقة سنزرع وردًا، هنا سيلعب طفلانا، لا أريد اثنين فقط، ثلاثة أو أربعة».

تضحك وتقبض كفها على كفه لتستمد طمأنينة أكبر، رسم قلبًا على التراب يخترقه سهم يحمل على طرفيه الحرف الأول من اسميهما، غابا بعدها في قبلة طويلة حتى أخرجهما منها موظف فرنسي شاب نحيف، سألهما بخجل إن

كان في إمكانه مساعدتهما لتحديد مكان الوحدة السكنية على الخريطة، نهضا من رقدتهما بحماس، واصطحبهما الرجل لمكتبه، فرد أمامهما الخريطة، فوضعا إصبعيهما في وقت واحد على المكان نفسه ثم ضحكا، هناهما موظف المكتب النحيل على دقة الاختيار واصفاً المكان بجنة أبدية.

- ممكن أساعدك إزاي؟

سأله الموظف الفرنسي الكهل السمين وهو ينحني بأدب شديد على نافذته، ضرب سامي مقود سيارته بكلتا كفيه وهو يفتح عينيه وينظر في مرآة السيارة ليجد نفسه وحيداً، زفر في ضيق، تمتم أن حتى أحلامه تأمرت عليه، المشروع السكني مُحي من الخريطة بعدما قررت السلطات الفرنسية تحويل الأرض المخصصة له إلى مقبرة عامة تخدم البلدة العتيقة على أطراف باريس قرب Saint Mandé.

هبط من السيارة متجاهلاً الرجل الواقف بجوارها، وقف أمام المدخل الحديدي العريض والبوابات المزخرفة والصفوف المنتظمة من شواهد الرخام البارد، البيت الذي لم يُبنَ هُدم في خياله للأبد، والنوافذ التي لم تُفتح أغلقت، اليوم وبلا سبب واضح يعرفه لملم بقايا شجاعته وذهب ليرى المكان الذي كان سيجمعه بدينا يعقوب، كأنه يفتح جرحاً قديماً ليزداد ألماً، ليكتشف أن الجرافات مكّت كل أثر للخطوط التي رسمها بيده، وأطارت أحلامه في الهواء بعدما مكّت تصرفاته دينا من حياته، أصبحت الأرض أشبه بمحطات مسيرته، مُقسّمة إلى مربعات يحيط بكل واحد منها سياج معدني، داخل كل مربع هُوة عميقة تنتظر أن تُملأ بجسد محفوظ في صندوق، ومن حوله صمت كثيف يغطي كل شيء إلا صوت زمجرة عربات ودراجات بخارية من بعيد، يتسلل عبر الأشجار مثل نحيب أهل الموتى وهم يشيعون ذويهم لمثواهم الأخير.

وقف على دَرَج منخفض، ثم ابتسم بمرارة وهو يرى كيف صار المدخل

الرخامي بوابة حديدية سوداء تتدلى فوقها أكاليل ورود ذابلة، وكيف تحولت الشرفة إلى صف حجارة تحمل أسماء من رحلوا قبل أن يزوروا هذا المكان، وكيف صارت الممرات المزروعة بالريحان شواهد قبور، لم يَغد الأمر مجرد مشروع سكني أُلغي، ولا وعد أطلقه لدينا ولم يتحقق كالعادة، إنما داهمه شعور غريب أنه مثل جسم غريب لفظه البحر على الأرض لتتظهر مياهه منه.

عاد الموظف الفرنسي يكرر سؤاله على مسامع سامي:

- هل أستطيع مساعدتك يا سيدي؟

التفت إليه وتذكره بصعوبة، نالت منه السنون لكنه لا يزال يحتفظ بابتسامة لطيفة رغم قتامة المكان، أشعل سامي سيجارة ليمنح نفسه مهلة أكبر للتفكير، ثم قال بنبرة توشي بأن شخصًا خفيًا يُملي عليه ما يقوله:

- أريد شراء مقبرة.

دعاه الموظف إلى المكتب، عرض عليه خريطة بالمساحة والسعر، وضع سامي إصبعه على نقطة ظن أنها المكان ذاته الذي كان سيبنى فيه بيتًا يضمه ودينا يعقوب، هزّ الموظف رأسه وهنا سامي لتمييز القطعة المختارة بأنها في قلب المكان، ثم أخرج عقدًا من مكتبه وبدأ يملأ الخانات، رفع عينيه وخفض نظارته وطلب منه بعض البيانات، فسأله سامي:

- هل يمكن أن أكتب المقبرة باسمي مع ترك وصية لكي تُدفن صديقتي معي هنا بعد وفاتي؟

ابتسم الرجل، وقال بذات النبرة الهادئة الودود كأنه بائع ورود:

- الوصية ممكنة في كل الأحوال، لكن هل تضمن أنك ستموت أولاً؟

بنبرة مترددة ونظرة شاردة قال سامي:

- أظن ذلك.

هز الرجل رأسه بغير اقتناع وكتب شيئًا في الورق، ثم قال:

- وهل صديقتك توافق على دفنها هنا معك؟

هذه المرة أجاب سامي بثقة:

- نعم، يكفي أن نكون معًا لأول مرة في مكان واحد للأبد.

- فانتاستيك.

- سأترك لك بياناتها لتتواصل معها وتتأكد منها، لكن أرجوك راسلها بعد رحيلي.

قدّم له الرجل القلم، ملأ سامي الاستمارة ببطء ووقع العقد باسمه الثلاثي، فجأة انحدرت دموعه رغماً عنه، سألت فوق اسمه، غيَّب الحبر تفاصيل الحروف حتى أصبحت مبهمة، كأنها تشير لكائن من عالم آخر لا ينتمي للبشر.

وضع العقد في جيب سترته بعدما أعاد التوقيع، وسدّد نصف الثمن ببطاقته الائتمانية وغادر عائداً لباريس، كان الطريق رائقاً لكن رأسه مزدحم بأفكار غريبة، لأول مرة يشعر أنه خذل نفسه قبل أن يخذل ديناً، وأن أي مكان إن لم تسكنه المشاعر الحقيقية سيسكنه الموت، وأن بعض الوعود إذا لم تتحقق ستعود كأشباح تطارد صاحبها حتى يختار قبره بنفسه.

أدار محرك الراديو على إذاعة الموسيقى كي يشوشر على هواجسه، استمع لأغاني رتيبة على مدى ربع الساعة، فلم تنجح في إخراجه من شروده وهواجسه، قبل أن يدير المحطة انتبه لصوت المذيعة تقول: «اخترنا لكم هذا الأسبوع أغنية "Je suis malade" وهي كما تعرفون ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة المغني الفرنسي «سيرج لاما»، وتعتبر من أكثر الحكايات التي تعكس كيف يولد الفن من الألم، كان «سيرج لاما» يعيش علاقة عاطفية مليئة بالاضطراب والخذلان مع حبيبته، وفي لحظة انهيار كتب كلمات أغنيته الأشهر، وهي ليست

مجرد وصف للمرض الجسدي، بقدر ما قصد بها التعبير عن الوحدة، الفقد، حب غير متكافئ، والشعور بأن الروح نفسها تنطفئ. الأغنية غناها لما عام 1973 وحققت نجاحاً، لكن الجمهور الفرنسي اعتبرها ثقيلة في البداية حتى أعادت داليدا غناءها بصوتها العاطفي فصارت أيقونة، ومنذ ذلك الحين ارتبطت الأغنية بالحزن الفرنسي العميق، حتى إن النقاد يسمونها ترنيمة اليأس، نستمع الآن للأغنية بصوت الرائعة داليدا».

قبل أن ينطلق مطلع اللحن، امتدت أصابع سامي ناحية محرك المحطات وهي ترتعش، وأغلق الراديو مُفضلاً هواجسه.

السير داخل حقل الغام

القاهرة/ جاردن سيتي/ مايو/ 1997

في ظهيرة حارة رطبة الهواء، وصلت دينا يعقوب حي جاردن سيتي الخالي من المارة، ارتاحت للهدوء الذي يغلف المكان كمن سيرتكب جريمة لا شهود عليها، تركت سيارتها على مسافة من بيت سامي عرفان كأنها تمنح نفسها فرصة للتراجع، منذ يومين وبعد تردد طويل اتصلت به، قالت متلعثمة «محتاجة لك ضروري»، فاجأها رده السريع «أنا موجود جنبك دائماً»، وكأنه يتوقع هذا الاتصال منها.

صعدت درجات السلم ببطء وحذر، تبدو خائفة من سماع صوت خطواتها حتى لا تفضح خوفها، لا تدري ما الذي جعلها تختار السلام لا المصعد، ربما أرادت أن تشعر بجسدها وهي تصعد، وأن تؤكد لنفسها أنها لا تزال قادرة في هذه الدنيا المتوحشة أن تطفو ولا تفرق، كعب حذائها يطرق على الدَرَج مُحدِّثاً صوتاً رتيباً مثل دقات قلب مجروح يرفض الاستسلام للألم.

- أهلاً وسهلاً.. أخيراً رضيتني عني وافتكرتيني.

خرجت منه الكلمات كصديق قديم حميم التقى رفيقته بعد فراق، ظلت دينا متسمة في مكانها كمن يطرق باب الماضي بيد مرتعشة ويدعو ألا يستجيب أحد، تتظاهر بالثبات بينما ثققتها آيلة للسقوط، تقف أمامه كما كانت يوم ودعته ذات مساء بلا دموع، لكنها الآن عادت متوسلة، لا لقلبه بل لنفوده، متخيلة أنها تستنجد برجل يظله الود لا القسوة، لا تعرف بعد أن هذا الظل الذي أمامها هو السكين الذي ذبح باهر، جاءت تسأله المساعدة كمن يمد يده لحبل نجاة، بينما هو ممسك بطرفه الآخر ليخنقها، عيناه تُشْعِغان بعطف كاذب وابتسامة مُقْلَعَة، تراوده

الذكريات ويختلج صدره بأمل عودة بعدما تعبت الفريسة من الركض بعيدًا عن الحظيرة.

أفسح لها طريقًا بقدر ابتسامته الواسعة، خُطت أولى خطواتها بالشقة وهو لا يزال واقفًا أمامها، لا تدري بعد أنها أمام الجاني لا المُخلص، أمام الخديعة لا الرجاء، كل ما فيها يهتز من فرط القلق، كامرأة تمشي فوق أرض مليئة بحبيبات دقيقة من قطع زجاج لا ترى، ومحظور عليها أن تبوح بالألم.

- من هنا يا دينا، لحقتي تنسي البيت.

قالها وهو يشير ناحية صالون صغير، مضت بخطوة واثقة هذه المرة، بالرغم من أن كلماته عن المكان أعادتها لذكرى لقاء جمعها معه في بيت الجدة قبل زواجه، عندما أمضت معه ليلة في غرفة نومه أثناء سفر جدته للإسكندرية، ليلة ذابا فيها معًا حتى مطلع الفجر، ربما لا يزال قلبها معلقًا بخيط واهٍ من ثقة قديمة، تحاول أن تثبت فيه حياة لكنها تقاوم بضراوة، اشتمت العطر الذي يضعه فأثار فيها شجنًا صامتًا، لكن عندما جلس أمامها مبتسمًا شعرت أن الابتسامة لا تريحها، فانتفضت ذاكرتها قبل أن تستغرق في سبات طويل.

اعتدلت أكثر من مرة في جلستها، لكنها ظلت متوترة، تتنفس بصعوبة، وعندما تكلم سامي عارضًا المساعدة بلا شروط، بالرغم من أنها لم تخبره بطلبها بعد، ارتاحت قليلًا، تشجعت وتبخّر بعض الندم من رأسها. قالت بصوت مهزوم:

- آسفة بس معرفش أروح فين ثاني، أنا رحت الجهات كلها وسألت في كل مكان وفي الآخر ملقتش غيرك، عارفة إني ممكن أكون بجحة عشان بطلب مساعدتك، بس حقيقي يا سامي أنت آخر باب قدامي.

بوجه نصفه صخر، والنصف الآخر رماد قديم من نار غيرة، قال:

- أنا موجود يا دينا، مهما حصل موجود.

صمتت كأنها سمعت في كلامه شيئاً لم يقله، لكنه مَسَّ قلبها برجفة، نظرت إليه نظرة طويلة كأنها تفتش عن أطلال رجل كان يعرفها في زمن بعيد مضى؛ زمن كانت فيه النوافذ مفتوحة والموسيقى تعزف بلا توقف، والقهوة لها حلاوة لا يصنعها السكر مهما زادت جرعته.

هزّت رأسها لتطرد هواجسها وتنفض مشاعرها وقالت:

- باهر اختفى من سنة وشهرين ومحدث عارف هو فين، وأنا قلقانة أوي يكون جرى له حاجة وحشة.

تنبّهت دينا لنبرتها الحانية فأطرقت وسكتت، لكن سامي ردّ بصوت متزن مغلف بقلق أجاد صنعه:

- أنا سمعت باللي حصل وشفتك على التلفزيون لكن مش فاهم اختفى يعني إيه؟ احكي لي بالترتيب.

- كان بايت عند والدته ومسافر ثاني يوم إسكندرية مع ناس من الحزب لأن عندهم اجتماع، لكنه اتاخر عليهم وما ظهرش ثاني، أمه الله يرحمها قالت نزل بمزاجه مع ناس ما تعرفهمش قرب الفجر وبعدها رفضت تتكلم لغاية ما ماتت من شهرين، ومن يومها للنهاردة باهر مارجعش، والناس بتقول لي أكيد اتقبض عليه من المخابرات والا أمن الدولة بس معنديش معلومة مؤكدة، قابلت إلهام عبد المجيد الصحفية المعروفة قالت لي في جهة سيادية بتسجل لباهر وليا صوت وصورة ومش فاهمة ليه، وبعدها حصل اللي حصل، فقلت أسألك يمكن تعرف حد يساعدني أو توصل حتى لمعلومة عن مكانه، أنت أكيد لسه في الرئاسة وكنت في المراسم وعندك معارف.. صح؟

شعر أن كلماتها انفرست في حلقة مثل مسمار صديء، تنحنح ثم اعتدل في جلسته، وقال:

- آه صح، أنا لسه في الرياسة بس في عمل إداري حاليًا، أنتي عارفة سيادة الرئيس بيحب يغير كل شوية، هساعدك طبقًا وعندي معارف بس الموضوع شكله صعب، وللأسف البلد دلوقتي مش زي زمان، الأجهزة بتشتغل من دماغها، حتى الناس الكبار ما بقاش ليهم سطوة زي الأول، لكن خلينا نحاول.

ردّت بنبرة بها من العتاب أكثر من الرجاء:

- أنا مش طالبة واسطة ولا حاجة استثنائية، أنا عايزة أعرف باهر جوزي فين، لو إتقبض عليه يقولوا، بأي تهمة؟ ويضمنوني عليه أنه بخير، أنا من حقي أشوفه ومن حقه محامي يدافع عنه. أنا أظن أنه في مباحث أمن الدولة.

ارتبك سامي وتعرق، لكنه حافظ على هدوئه ببراعة وسألها وهو يشعل سيجارة ليداري رجفته:

- عرفتني منين إنه في أمن الدولة؟

- مجرد تخمين من جوز صاحبتني نادية الزيني لو فاكرها.

- فاكرها طبقًا، كويس إنها اتجوزت كانت دايمًا لزقة لينا زمان.

ابتسمت دينا وتوردت وجنتاها ولم ترد، فعاد يسأل بثقة وهو يضع ساقًا فوق أخرى:

- وجوز نادية بيشتغل إيه بقى علشان يخمن الناس محبوسة فين؟

- اللي فهمته منها أنه ظابط في المخابرات العامة بس معرفش بالتحديد بيعمل إيه.

توتر سامي أكثر فشغل نفسه بتقديم الشاي لدينا بعدما صرف خادمه. قال متفاديًا النظر لعينيها:

- حاضري دينا أنا هتصرف على قد ما أقدر. خير إن شاء الله.

رڈت بصوت حاصرته دموع مختنقة:

- أنا بستناه كل يوم ولغاية دلوقتي مش عارفة إذا كان بيتنفس ولا لا، عايش ولا.....

لم تستطع نطق الكلمة فأجهشت بالبكاء. سحب سامي نفسًا بطيئًا كمن يهين رثيه للكذب، وقال وهو يقترب منها:

- أنا هساعدك بس لازم تصبري شوية، هو فعلاً في أسماء كتير اتقبض عليها الفترة اللي فاتت، لكن في تشويش متعمد على الموضوع ومباحث أمن الدولة بعيد خالص عن القصة دي، وممكن الدكتور باهر يكون منهم، بس ممنوع يتقال عنه حاجة دلوقتي وأكيد جوز نادية صاحبك عارف بس مش عاوز يقول.

قالت بحدة:

- ممنوع يتقال عن جوزي حاجة ليه يعني؟ متهم بقتل السادات؟ أنا مراته يا سامي، أقرب واحدة له، أنا الوحيدة اللي عارفة مواعيد دواه ونوع أكله، يبقى إزاي مش من حقي أعرف هو فين وأشوفه؟

ذكرته كلماتها عن اغتيال السادات بما حدث له وقتها، فأغمض عينيه وكز على أسنانه ثم وضع يده على الطاولة بينهما، لم يلمس يدها بعد، لكنه لو اقترب شبرًا للمسها، اختار إرجاء الملامسة حتى تلين حصون المشاعر، أعاد ظهره للوراء كمسؤول مهم يتحدث لمذيعه على شاشة القناة الأولى، وقال:

- ساعات الموضوع بيكون أكبر مننا، فيه ناس بتتحرك في اتجاه غلط، وممكن يكون إتورط مع ناس أو جهة أجنبية من غير ما يحسبها صح. لازم نراجع وندقق ونشوف قبل ما ننتهم.

انتفضت دينا كمن دهس شظية، علا صوتها بعصبية قائلة:

- أنت بتلمح لإيه؟ باهر وطني قومي مخلص موش عميل، هو كمان ضد العنف

وعمره ما شال قصافة حتى.

ابتسم سامي ابتسامة لا تظهر الأسنان، ابتسامة ضابط يعرف أكثر مما يقول،
أجابها بهدوء:

- محدش قال إنه عميل، أنا بس بقولك إن فيه ناس حواليه مش أنصف حاجة،
واللي حواليكى ممكن يوقعوكى حتى لو كنت بريئة.

بدت دينا للحظة كمن تاه عن لغة الحوار، ثم قالت بنبرة هادئة فجأة:

- أنت اتغيرت قوي يا سامي، زمان كنت بتسمع أكثر ما تتكلم، دلوقتي كل كلمة
بتقولها محسوبة كأنك بتقرا من ورق.

قبل أن يرد، شكرته ونهضت بالرغم من رجائه لها بالبقاء، اختنقت من كلماته
فانطلقت كسهم استحال عودته لنطاقه، بينما ظل سامي مكانه لم يتحرك،
بعد برهة وقف يراقبها من وراء الستار عبر نافذة الشرفة حتى ركبت سيارتها
ومضت، فاستدار وذهب إلى حجرته، فتح درجا أخرج منه نسخة قديمة من
جريدة يحتفظ بها، فيها صورة لدينا ولباهر يوم زفافهما، مزقها ببطء، وألقى بها
في سلة المهملات، ثم أمسك بالكمان وانخرط في العزف وهو يبتسم.

الخروج عن النص

المنيا/ بني مزار/ يونيو/ 1997

لم يكن وافداً جديداً على دهاليز الدولة العميقة، فقبل أن يُنقل إلى الجهاز كان يعرف جيداً أن الصدفية في جدول الرئيس هي المصطلح الرسمي للخدعة، وكل لقاء عابر مع مواطن بسيط أو أي حوار عفوي مع عامل صغير، يُصاغ بعناية على مكاتب ثضاء طوال الليل، قبل أن تنقله الكاميرات للإخوة المواطنين كما يحب مبارك أن يخاطبهم.

- الزيارة المرة دي مختلفة، سيادة الرئيس عايز يطمئن على أحوال الناس، ويشرب شاي مع حد منهم ويدردش معاه، وبما إنك معرفة قديمة فأنا اخترتك للموضوع دا. عينك في وسط راسك يا سامي عاوزينها تعدي على خير، الزيارة اللي فاتت اتنين من عندنا طاروا بسبب غلطة من المراسم، لكن إحنا اللي شيلنا الشيلة.

هكذا قال له رئيسه في الجهاز وهو يسلمه مظروفاً يحوي خطة تأمين أولية، بدا له الأمر مسرحياً أكثر من اللازم، لكنه أدّى التحية العسكرية وانصرف، أدرك أن رئيسه يحفر له قبراً ليدفنه فيه ويتخلص منه، لكنه وافق وفي ذهنه أمر آخر، وعلى الأقل سيجد ما يشغله بدلاً من الجلوس كل صباح بالمكتب بلا عمل حتى الانصراف بعدما قل من استجواب باهر سعيد.

وصل إلى الموقع قبل الزيارة بليلة حتى يتسنى له المعاينة قبل وصول المراسم الرئاسية كما كان يفعل، أضمر في نفسه شيئاً أججته غريزة الانتقام التي نمت بذورها داخله منذ تكليفه بالمأمورية، خرج من مقر عمله ولا شيء في ذهنه سوى مسؤول المراسم الذي حل محله بعد الاستغناء عنه.

قبل الغروب بدقيقة كانت الشمس تموت خلف التلال البعيدة، والناموس يتراقص في حماس فوق بركة مياه راكدة، بدت المزرعة للوهلة الأولى من بعيد فقيرة، قديمة، تئن تحت ثقل الزمن، لكن لما اقترب ورأى ابتسم، الأشجار في الجهة الشرقية مُقلمة بعنف حتى لا يتخذها مجهول سائرًا، الممرات نظيفة للغاية، رائحة ياسمين تفوح فلا تخطئها أنف، حظيرة البهائم تخلو من الروث والمكان أنظف من اللازم، كتب الملاحظة في دفتره الصغير بعدما طافت بذاكرته بهائم الرئيس السادات.

اقترب من المنزل الطيني المكوّن من طابق واحد، عند بداية الحوش استقبله رجل ستيني بدين، يرتدي جلابية جديدة ناصعة البياض وينتعل حذاءً لامعًا بلا ذرة تراب، ملابس لم تُصنع للغيطان ولا تصلح إلا للأفراح القروية الكبيرة بالمركز، قابله الرجل بعبارات ترحيب عادية، ابتسم له سامي ابتسامة واسعة يدرك توابعها هو يقدم نفسه بنبرة واثقة:

- أنا العقيد سلطان من أمن الدولة يا حاج.

اعتدل الرجل في وقفته وطارت ابتسامته ومد يده مصافحًا بحرارة وهو ينحني كرقم ثمانية، قائلاً:

- خدامك جودة، موظف على المعاش يا فندم، ومستنيين تشريف سيادة الرئيس مبارك.

انطلقت زغرودة من داخل الدار بعدما انتهى جودة من ذكر اسم الرئيس، أوماً سامي ببرود ودارت عيونه في المكان بعدها، لاحظ رجلين يقفان إلى جوار الزريبة، لا تشبه ملامحهما أهل الصعيد، ولا ملبسهما مثل ملابس الفلاحين، لمح أحدهما يدس جهاز لاسلكي صغيرًا في جيبه، بينما الآخر يراقبه كأنما يقيس عدد خطواته.

- اسمك جودة إيه؟

سأله سامي فجأة وهو يحدق في وجهه، انتصب الرجل كعسكري سابق وهتف:

- جودة الديب يا فندم.

- أنا شفتك فين قبل كدا يا ديب، وشك مش غريب عني أبدًا.

تلجلج الرجل ثم قال بنبرة خافتة:

- أنا كنت موظف في التلفزيون يا فندم، بس ظهرت كثير في آخر سنتين.

- ظهرت في إيه بقى يا بطل؟

- مسلسلات دينية سعادتك، وعملت مشهدين في مسلسل ذئاب الجبل يا فندم.

نذت ابتسامة من بين شفتي سامي وهو يشعل سيجارته، ويقول:

- يعني مش فلاح يا ديب، أنت فنان بقى.

بنبرة رجاء، بعدما استشعر أن الدور يبتعد عنه هتف جودة:

- يا باشا أنا أبويا الله يرحمه كان فلاح وأخويا فلاح وعنده فدانيين.

- جايز همة فلاحين.. لكن أنت مش فلاح يا ديب.

صمت الرجل لحظة، ثم قال بصوت منخفض كمن يردد نصًا محفوظًا:

- يا فندم سيادة الرئيس عايز يشوف فلاح بسيط، يحس بيه، ويضمن إنه

لسه فيه ناس بتحبه، والدور دا يعتبره أكبر أدوارى والله العظيم، وجاهز له من

أسبوع، ولعلم معاليك أي حد غيري ممكن يتلجلج قدام الكاميرا، لكن أنا عندي

خبرة وعملتها كثير، أبوس إيدك بلاش تكتب لهم إني ما نفعش.

- هو مدير المراسم اتفق معك على إيه في الكلام مع سيادة الرئيس؟

أطرق جودة ثم تلفت حوله بحذر، وقال بصوت خفيض:

- إشادة بالإنجازات ودعوات بالصحة والعمر الطويل، وأقوله يا أبو علاء وهو يشرب الشاي، وفي الآخر أطلب من سيادته يطلعني أعمل عمرة.

- وواخذ كام بقي في الدور دا يا ديب؟

- والله العظيم ولا مليم يا باشا، أنا فعلاً بحب سيادة الرئيس.

- لأموش كفاية، دا حب من طرف واحد كدا، شوف يا ديب.. الرئيس بيحب يسمع الحقيقة وما يعرفش أنك ممثل، لكن الناس لازم تحس إنك فلاح وواحد منهم وبتمثلهم، لازم تكلمه عن الأسعار وعن السلع اللي مش موجودة زي السكر وعن رغيف العيش اللي لونه أسود، وفي الآخر أطلب منه تطلع الحج السنة دي مع وزارة الداخلية، أنت ومراتك كمان، لأن حج القرعة فيه واسطة. وبلاش حكاية أبو علاء دي علشان سيادته مابيحهاش. خليها أبو جمال بيرتاح ليها أكثر.

- رينا يعمر بيتك يا باشا ويخليك فوق راسنا كمان وكمان.

- هيخليك لعيالك لو سمعت الكلام ونفذته بالحرف مهما قال لك أي مخلوق كلام ثاني غيره.. مفهوم؟

- مفهوم يا باشا.

رسم سامي ابتسامة باردة زادت جودة الديب قلقاً رغم العرض المغري الذي قدمه ليفسد سيناريو مدير المراسم، لعل الرئيس يعفيه من منصبه مثلما حدث معه يوم زيارة المصنع، ثم تابع سيره دون أن يلتفت ناحية الفلاح مرة ثانية.

دخل الدار وتفقّد الغرف، كل شيء مصمم بعناية لتصوير لحظات عفوية؛ أريكة كبيرة، طاولة خشبية وسط مندرّة تطل على غيطان فسيحة، إبريق شاي نحاسي لامع، أكواب جديدة، رائحة خبيز صابح، وصفحة جبهة قديمة تنافسها بضراوة.

في الجهة الخلفية من المزرعة، لاحظ وقوف سيارة نقل محملة بكراتين تحمل شعار شركة استيراد أدوات كهربائية شهيرة، اقترب بهدوء وفئس واحدة، وجد أجهزة تكييف من التي تستخدم في المناطق المفتوحة، أدرك أن كل شيء محسوب حتى حرارة الطقس، على مقربة لمح رجلًا أصلع أنيقًا للغاية، يتحدث بنبرة الأمر، وتلف معصمه ساعة ذهبية من ماركة شهيرة غالية.

- يطلع مين البيه العايق ده؟

سأل سامي أحد الضباط التابعين للجهاز، همس له الضابط باسمه ثم استرسل بصوت خافت:

- صاحب الأرض الفعلي، لكن رسميًا مسجلة باسم أخته، كان وزير سابق، وانتقال عنه كلام كثير في الجرايد فخرج في أول تعديل وزاري بعدها، اتحول للكسب غير المشروع بس الموضوع اتلم.

- قصدك اتفضح في الجرايد وأخذ شلوت وسابوله القرشين اللي جمعهم، وأنت عارف طبقًا إن اللي بيخرج ما بيرجعش مهما حصل، وراها إيه بقى فشخرة النهاردة دي؟

- عنده أمل يرجع في منصب ثاني بعد ما حد كبير في الحزب وعده بالوزارة بعد نجاح الزيارة دي.

اقترب الضابط وهمس في أذن سامي باسم المسؤول الكبير بالحزب الوطني، صوّب سامي بصره نحو الرجل وحقق فيه، لاحظ في عينيه تلك اللمعة التي بات يعرفها مؤخرًا جيدًا، لمعة النشوة بقرب العودة للمناصب وغريزة اصطياذ الفرصة.

كلف سامي ضباطه باستكمال العمل، ثم تحدث مع ضابط الأمن القومي المشرف على الزيارة بكلمات قليلة وهو يتابع الوزير السابق ببصره، هُز الضابط

رأسه مؤمناً على كلام سامي وانشغل في الحديث بجهاز اللاسلكي، اختار سامي مكاناً منزوياً بالقرب من عتبة البيت وجلس ثم أشعل سيجارة جديدة، انشغل بمراقبة الكاميرات التي تُنصّب، والميكروفونات التي تعلق.

اقترب منه أحد ضباطه سائلاً:

- باشا، عايزين يركبوا جهاز البث فوق السطح، تعليمات معاليك؟

هزّ رأسه بفتور، ثم نهض متوجّهاً نحو الغيط، الهواء رطب والطيور لا تغرد، التفت خلفه، بدت المزرعة من بعيد كأنها استوديو تصوير سينمائي، ظلال أنوار المصابيح تصنع من أكوام القش قلاعاً، والرجال يتحركون كالنمل لإعداد الموقع، الكل يعرف دوره، حتى الكلاب البلدية تم ربطها وتكميم أفواهها كي لا تقاطع السيد الرئيس.

في تلك اللحظة قرر أن يفعل شيئاً لم يجرؤ على فعله صغيراً عندما كانت جدته تصطحبه معها للعزبة بأسويوط، في حين كان يرى الفلاحين يفعلونها بأريحية، أعطى ظهره للجميع ثم فتح سحاب بنطاله وقضى حاجته وهو يصفر بلحن خفيف، وبعدها شعر بارتياح غريب.

قرب الفجر وصل فوج المقدمة من الحرس الجمهوري وانتشر في خطوط شبه عسكرية، وفي الثامنة صباحاً وصل مدير المراسم، صافح سامي ببرود، ثم توجه للقاء جودة الديب وانتحى به جانباً، اتسعت ابتسامة سامي وهو يتخيل حوار التلقين الذي يدور بينهما كمساعد مخرج وممثل مخضرم، لكنه كان واثقاً من إخافته لجودة الديب حد الالتزام بكل كلمة لقنها له.

قبل وصول موكب الرئيس برقع الساعة، اقترب ضابط الأمن القومي من سامي وهمس:

- بالتنسيق مع صفوت بيه جات التعليمات إننا مانصورش غير سيادة الرئيس

وعم جودة الديب الفلاح، والكل يفضل في الخلفية زي ما أنت اقترحت، وحتى لو الرئيس وجه تعليمات لأي مسؤول فالكاميرا تفضل مع سيادته طول الوقت والمسؤول يبقى مجرد صوت بس.

ضحك سامي ضحكة قصيرة وهو ينظر للوزير السابق المتأنق والواقف على مبعده، بعدما أعاده ضابط الأمن القومي إلى صف ثان أو ثالث لجموع مستقبلين لن يصفحهم الرئيس، وربما لن يدري بوجودهم.

وضع سامي السماعة في أذنه وتراجع للصف الأخير بعد ما لاحت سيارات الرئاسة من بعيد، تستقبلها هتافات أهل القرية الواقفين على البر الثاني من النيل بالتهليل، برغم أنها زيارة مفاجئة.

في اليوم التالي استدعاه رئيس الجهاز وكلفه بكتابة تقرير بالتحري عن واقعة زيارة السيد الرئيس، ومدى تقصير المراسم بسبب استرسال المصدر في الكلام خروجاً عن النص. جلس سامي بغرفة مكتبه يكتب تقريره، وضع اسم مدير المراسم الذي حلّ محله بالسطر الأول من التحريات، وسرد تحته ثلاث صفحات مثقلة بالملاحظات السلبية، وبعدها أمسك بالكمان وعزف مقطوعة جديدة سقاها «تمرد الظل».

كش ملك

القاهرة/ فندق هيلتون/ يناير/ 1998

مثل ظلال على نافذة مغلقة كانت تنتظر على استحياء، وجهها مُرهق لكنه متماسك الملامح، العينان مبلّتان بندى حزن صامت، تجلس فوق كرسي معدني ذي ذراعين محنيين على قياس جسدها الخائف بالضبط.

في تمام العاشرة دخل سامي عرفان من باب كازينو فندق هيلتون، وقف لحظة عند منصة الاستقبال، ثم لمحها تجلس وخذها إلى طاولة مربعة قرب الزجاج العريض المطل على النيل، شعرها مربوط بإهمال، فستانها أسود بلا أكمام، والجرسون النوبي العجوز يملأ كأسها بلا مبالاة. اقترب بخطوات محسوبة، لا شيء تغير، حتى الموسيقى الخافتة في الخلفية، رفعت نظرها إليه، لم تبتسم، فقط أشارت إلى الكرسي المقابل وزفرت في ضيق، يُست من مراوغته لها في لقاءات سابقة على مدار ثلاثة شهور، لا يقدم إجابات ولا يقترح حلولاً، فقط يطيل الأمد للقاءات تالية.

جلس في مواجهتها تمامًا، عفويًا نزع ساعته ووضعها بجانبه، قال «أحكي لي أخبارك»، ردّت «أتيت لأسمع لا لأحكي»، قال «لن تحبي ما سأقوله»، لم ترد، فقط أمالت رأسها قليلاً، فواصل كلامه بالنبرة ذاتها «باهر تغير، أعرف أن هذا ليس ما جئت لتسمعيه، لكنها الحقيقة»، ندّت منها ابتسامة استنكار ولم تقاطعه، استرسل «منذ أشهر اختفى فعلاً ثم ظهر في برلين، لكن لا أحد يعلم يقيناً أين هو الآن»، ندّت ابتسامة استنكار منها هذه المرة، هفّت بمقاطعته، لكنه رفع يده مردفاً «ووصلتني معلومات أنه أقام علاقة مع امرأة ألمانية، صحفية فيما يبدو». لم تغير دينا يعقوب جلستها، فقط نظرت إلى الكأس الفارغة أمامها، ثم

إليه، وقالت «وماذا يعني كل ذلك؟» وبنبرة استنكار أضافت «أن أصدقك وأكذب مشاعري؟» قال «لا، فقط أردت إفهامك أنه اختار امرأة أخرى لسبب لا أعرفه، وربما لا تعرفينه أيضًا»، قالت «وهل باهر من نوع الرجال الذين يختفون هكذا؟» ردّ سامي بسخرية متعمدة «لا أدري، لكن النضال الثوري لو اختلط بالمال يترك آثارًا ثرى بوضوح»، مالت بجذعها على الطاولة قائلة «هل رأيته أو تكلمت معه؟» ردّ بسرعة «لا، لكنها معلومات مؤكدة»، سألت «ما مصدرها؟»، بثقة أجاب «صديق في سفارتنا بألمانيا»، صمتت لحظة، ثم قالت «وأنت تأكدت من رحيله مع امرأة أخرى وتريدني الآن أن أعود لك»، بهدوء أشد قال «نعم، أريد أن أصحح كل أخطائنا ونعوض ما فاتنا بسبب عنادك وغبائي»، أشعلت دينا يعقوب سيجارة وقالت «لكن أنت لا تعرف باهر كما أكدت لي فكيف تأكدت من صحة المعلومات وصدقتها؟» قال «أنا أعرفك واقتربت بما يكفي، وأعرف ما يمكن أن تفعله النساء بالرجال»، ابتسمت قائلة «أظن أنها ليست إجابة على سؤالي»، ردّ لها الابتسامة بأوسع منها قائلاً «وأنا أظن أنك أذكى من انتظار رجل لا يُريدك»، قالت «ومن قال ذلك؟ أنت فقط تنقل شائعة ولست محايدًا»، رمقها بنظرة حادة ثابتة، ثم قال بجدة «هل تتهميني بالكذب؟» قالت «أتهمك بما لا تقوله حتى الآن، أنت تخفي الحقيقة»، حاول مقاطعتها، فاسترسلت «كيف وصلت إلى المعلومات بسهولة؟ بأي صفة؟ كيف تأكدت منها؟» قال «لا أزال في رئاسة الجمهورية» ابتسمت باستهزاء وقالت «عملك إداري روتيني كما أخبرتني، لا يمنحك سلطة الوصول إلى هذا النوع من المعلومات»، سكنت لبرهة كمن يرتب أفكاره، فأضافت «إلا إذا كنت الآن شيئًا آخر تخفيه عني»، لم يبتسم سامي هذه المرة وقال «أنا قلت لك الحقيقة وحاولت المساعدة كطلبك، عمومًا لا تعود لي الآن، خذي وقتك لتفكري»، قالت «الحقيقة أن كذبك مفضوح، أنت بلا علاقات ولم تعرف أي شيء واختلقت القصة كلها»، قال «لا أظنك تقصدين ما تقولين»، قالت «بل أقصده، الأمر كان سهلًا بالنسبة لك، أن تختلق قصة خيانة وتسردها كأنها تقرير، هذا لا يفعله إداريون، بل من اعتادوا الكذب منذ الصغر واتهام الآخرين بخطيئة لم

يرتكبوها أبدًا، أم نسيت؟»، قال بهدوء أقرب لبرود «لن أردّ الآن عليك لأنني مقدر شعورك بهروب باهر المفاجئ»، ردّت ببرود أشد وهي تبتسم «لا فائدة في كذبك، نسيت أنني أخبرتك في أول مرة أن زوج صديقتي الأقرب ضابط بالمخابرات، ولما سألته أكد لي أن باهر لم يغادر مصر إلى أي بلد»، ارتبك سامي، ثم نظر إلى ساعته وإليها وقال بنبرة رجاء «لا أريد أن تغادر هذا المكان عدوين»، ردّت بهدوء «لا تقلق، أظن أننا لن نكون شيئًا بعد اليوم»، نهضت ببطء، أمسكت بهاتفها المحمول، وجذبت حقيبتها، ثم مالت نحوه وهمست «سامي، أنت تشبه هذا الهاتف حين يفقد شريحته، لامع من الخارج لكنه لا يستقبل ولا يرسل»، بعدها استدارت ومشّت نحو الباب بخطى راسخة، تركته جالسًا، لا يحرك شيئًا سوى أصابعه التي ظلت تعبت بزر سترته في عصبية حتى خلعت من مكانه.

مشّت دينا في شوارع وسط البلد دون اتجاه واضح، سارت أمام واجهات محلات تفتح أبوابها بتثاقل، الباعة يتثاءبون في وجوه المارة كأن المدينة استيقظت متأخرة بعد نوم طويل، مشّت وشيء ما بداخلها يتحرك بعنف لكن لا صوت قوي له، فقط طنين مستمر مثل نحلة تدور في كأس ماء فارغ.

لا تصدق كل ما قاله سامي، عيناه باردتان محتفظتان بالسر، أشبه بقفل حديدي عنيد لخزينة مغلقة بحرص زائد، كانت تراقب شفّتيه وهما تتحركان في كل لقاء من اللقاءات، تخرج الكلمات بحساب كأن أحدًا يقف خلف الستار يُملي عليه ما يقول، كل مرة تقول لنفسها ربما تغيّر، ربما تعب، ربما صار مثلي، امرأة فقدت رجلًا فصارت لا تثق في أحد، لكنها لا تقتنع بمبرراتها، تريد منه حقيقة صغيرة، جملة صريحة دون تمويه عن مكان باهر سعيد، كان بوسعه أن يقول لا أعرف، أو لن أستطيع، لكنه راوغ مثل سمكة عنيدة مع أن الشبكة مليئة بالثقوب. جلسّث على مقعد حجري في حديقة المتحف المصري القريب، نجيلتها صفراء

لا تسر الناظرين، وأشجارها نحيلة مغبرة، الريح تصفع أوراقها القليلة فتسقطها بلا ندم، وضعت حقيبتها بجانبها وأخرجت منها علبة سجائر قديمة نسيت أنها ما زالت فيها، أشعلت سيجارة ونظرت في الفراغ، وجه باهر هناك في الهواء، لا بكامل ملامحه لكن بروحه، بضحكته المجلجلة، بابتسامته البشوش، بصوته الذي كان يقول لها ذات مساء «لا تخافي أنا معك حتى لو سُحِبَت الأرض من تحتنا، أو أظلم القمر من فوقنا»، اليوم بدا لها سامي ظلًا غير مريح في فضاء خائق، اليوم شعرت بشيء يشبه العطش؛ عطش داخلي لا يروى إلا بإجابة واحدة واضحة على أسئلة صعبة، من هو سامي عرفان الآن؟ ما موقعه؟ ولماذا يحاول إيهاها بأنه يقدم مساعدة، بينما يقودها نحو حفرة من الشك؟ دارت الأسئلة في رأسها ولم تصل إلى إجابة. وَقَصَّت برأسها فكرة، ترددت لبرهة ثم أطفأت سيجارتها، أدارت رقفاً بهاتفها وانتظرت حتى جاءها صوتها، فقالت:

- اسمعيني من فضلك وما تقفليش السكة في وشي، أنا عندي طلب وحيد ومحتاجة مساعدتك.. أنا دينا يعقوب.

أجابتها الصحفية إلهام عبد المجيد ببرود كعادتها:

- صدقيني يا مدام دينا أنا معرفش فين الدكتور باهر ولا حصل له إيه، الموضوع كله لغز بالنسبة لي من ساعة ما شوفتك على شاشات التلفزيون بتعلمني اختفاءه. واحترامًا لظروفك لم أكتب عنه بالجورنال.

- أنا مش بتكلم عن باهر، أنا عاوزه أسألك عن سامي عرفان مدير مراسم الرئاسة.

- ماله سامي بيه؟

داخلها استغراب من سرعة تذكر إلهام عبد المجيد لسامي وبنبرة قلق في صوتها، لكنها تجاوزت الأمر وسألتها:

- عاوزة أعرف بيشتغل إيه دلوقتي وفين ألاقيه، وأوعدك إني مش هطلب منك حاجة ثانية.

تنهدت إلهام قائلة بنبرة هادئة خالت على دينا هذه المرة:

- كل اللي أعرفه أنه كان مدير المراسم زي ما أنتي قلتني، لكن بعد حادثة أديس أبابا نقلوه للمراسم الإدارية بناء على طلبه، وكثير بنشوفه في السفارات بيهني السفير بالعيد الوطني كمندوب عن الرئاسة، غير كدا معرفش عنه حاجة . لكن ليه بتسألني؟

أنهت دينا المكالمة دون رد، وضعت هاتفها بحقيبتها وحبست دموعًا كثيرة في مقلتيها حتى وصلت إلى بيتها، صعدت سلالم البيت بصعوبة، كل طابق يعيد عليها صورته وصوته وهو يمزج الكذب بالوعود، فتحت باب شقتها ونزعت حذاءها وجلست على الأرض في الصلاة وأسندت ظهرها إلى الأريكة، دق هاتفها فظهر رقم سامي أمامها، أغلقت الهاتف وأطفأت بطاريته، نهضت ووقفت قرب الشرفة تتأمل النيل من بعيد بينما سرب طيور يرفرف فوقه، تنهدت في ضيق، شيء ما بداخلها لا يصدق الصورة كلها، صورة باهر المتهم وسامي المنقذ، وهي في مأزق الاختيار، بين كذبة ثروى كحقيقة وبين غريزة امرأة باتت تشك كما تتنفس، بين أن تواجهه بهواجسها أو تحمي قلبها من الكسر، فاختارت نفسها.

توأم باهر سعيد

القاهرة/ لاظوغي/ أغسطس/ 2003

في هذه السنة لم يكن الثالث عشر من أغسطس يومًا عاديًا في الجهاز، وإن تظاهرت المعلومات الأمنية بالروتين المعتاد، لم يكن مألوفًا أن يتأخر العقيد سامي عرفان عن مواعده الصباحي، أول مرة يفعلها منذ بدء أعوامه السبعة في العمل، لم يُسلم تقريره في مواعده، لم يعتذر، فقط دخل بعد التاسعة بنصف ساعة على غير عادته، بدا شاحب الوجه، مرتخي الكتفين، ولم يخلع نظارته الشمسية حتى بعد أن أغلق باب مكتبه عليه. يقلقه حادث اختفاء الصحفي رضا هلال منذ يومين في ظروف غامضة، لم يكن صحفيًا في نظر سامي عرفان؛ إنما توأم لباهر سعيد، عشرات الهواجس تدور في ذهنه ولا يفلح في طردها، لا بد أن هناك ضابطًا مثله ينتقم من رضا بذات الطريقة التي اتبعها هو مع باهر سعيد، لكن هذه المرة جاء الانتقام قاسيًا حدّ الإخفاء فجأة.

تُرْجُح الفكرة كلما دارت برأسه، يرتجف لها جسده بعدما طاف خاطر سريع بذهنه عن احتمال قتل رضا هلال كما يتهامس الناس، جلس في مكتبه حائرًا، كتب الاسم في منتصف ورقة بيضاء كما لو كانت صحيفة سوابق، لم يكن الرجل ناشطًا سياسيًا، ولا معارضًا شرسًا، ولا حتى يكتب ما يحتمل تأويله بأكثر مما ينبغي، إشاعات منثورة بعشوائية عن علاقته السابقة بزوجة مسؤول مهم، لكن لا أحد يجرؤ على تأكيدها أو نفيها، الكل يتجاهلها كأنها تقال بلغة لا يفهمها أحد، لا يعرف ماذا يكتب في تقريره، ولا لماذا اختاروه لهذه المهمة الثقيلة، كل شيء وارد الحدوث وكل شيء قابل للنفي، الشيء الوحيد المؤكد أن رضا هلال ملف مفتوح بلا قرار اعتقال، بلا إذن تفتيش، بلا حكم محكمة، لكنه يحمل توقيعا لا يُرَدُّ بالذهاب إلى الظل وربما للعالم الآخر.

ظل مكانه صامتًا، لم يكتب تقريرًا، يشعر ببعض الخوف بعدما رأى الأرض تبتلع إنسانًا حيًا، بلا صوت، بلا شهود، بلا دم ليختفي فجأة.

صادف هذا المساء يوم الثلاثاء، ذهب لمشواره المعتاد، عزف في مسرح الجمهورية قطعة لشوستاكوفيتش، موسيقى حزينة ونغمات ناقصة لا تمضي إلى خاتمته، العبث والقلق يتسللان لموسقاه رغما عن عقله، ظل يكرر الجملة الموسيقية كما لو أنها حبل نجاة من سقوط داخلي.

في اليوم السادس للاختفاء، صدر بيان مقتضب من وزارة الداخلية، أشار إلى أن الحكومة غسلت يديها من اختفاء رضا هلال، هكذا قال له اللواء، نائب مدير الإدارة، عندما التقاه على السلم:

- مفيش حاجة رسمية تخصنا، الراجل اختفى من غير سبب سياسي، والأمن العام بيعمل تحرياته المعتادة، والقصة مش شغلتنا، اضبط تقرير البحث بتاعك على النتيجة دي يا سيادة العقيد.

لم يرد سامي، اكتفى بإيماءة ورفع يده بتحية عسكرية باهتة، ثم تابع نزوله من السلم في اتجاه مكتبه، هبط خطوة خطوة كما يُنزل النعش في مقبرة، يشغله مصير الرجل أكثر من أي ضابط آخر في الوزارة كلها، منذ يومين يحاول أن يُطمئن نفسه بأن رضا هلال حالة مختلفة عن حالة باهر سعيد، وهو لم يكن يريد من باهر اعترافًا، ولم يرغب في قتله، ولم يقم بإخفائه بعد، كان فقط يريد انكسارًا، يريد أن يرى في عينيه الندم، أو حتى الرجاء أو الاعتذار عن الزواج، ثم إعلان الطلاق لتعود له دينا وينتهي كل شيء، عاد يفكر أن باهر هو الذي جنى على نفسه، لم يمنحه شيئًا مما يطلبه وظل صامتًا، لا ينكر ولا يعترف، لا يدافع ولا يتوسل، ربما كان ينظر له بعينين معصوبتين، ربما يعلم أن كل هذا عبث، وأن الزمن سينتقم من الجميع.

أطل القلق بعينين واسعتين من رأسه، فرجع بظهره في كرسيه وأغمض عينيه،

وفي لحظة خاطفة تخيل أنه يذهب إلى غرفة باهر سعيد، يفتح زنزانته، ليجلس أمامه ويطلب الغفران منه، اعتدل في جلسته وتنهد بعمق، طمأن نفسه وهو يهم بالنهوض متمتعا «الغفران خرافة.. وحدهم الأحياء يغفرون، وباهر سعيد لم يعد حيًا، ربما مات معنويًا، مثله مثل رضا هلال بالضبط».

قرب المغرب غادر مقر الجهاز، بدا الشارع خفيف الحركة، الشمس مثل شبح نحاسي، والهواء محقل بغبار لا يرى لكنه يحس مثل الندم، عند الإشارة توقف رغم عدم وجود مشاة أمامه، طالت وقفته، كأن عقله يأتمر بأوامر لم تصدر بعد، أشعل سيجارة وشرد في الدخان الذي يخرج من فمه ليتلاشى، حتى علا صوت آلات التنبيه من السيارات التي توقفت ورائه، أخرج ذراعه من النافذة معتذرًا، ثم غير اتجاه سيره مقررًا الذهاب إلى الهيلتون، كان يحاول الاحتماء بذكريات غاليات هناك، لكن عندما دخل الفندق بدا كمن يعتلي مسرحًا لا يعرف دوره فيه..

توجه ناحية البار، وطلب كأسًا من الويسكي (دوبل) دون ثلج، شربه دفعة واحدة كأنه رصاصة، البار فارغ إلا من ساقٍ نوبي يرمقه بنظرة آسفة، ورجلين يتحدثان بالفرنسية، لم يسمع الكلمات لكنه كره ضحكاتهما بلا سبب، في الكأس الثالثة بدأ يتخيل وجه رضا هلال محفورًا على الجدار، وكان الفندق يكرمه كبطل شعبي، في الكأس الخامسة سأل الساقى بصوت منخفض:

- لو حد معروف اختفى فجأة تفتكر ممكن يختفي فين؟

نظر إليه الساقى النوبي وابتسم كمن تعود على تخاريف السكارى ولم يجب، فوقف سامي وأدار الكرسي بغلظة، ثم قال بصوت أقرب للصياح:

- أنا مش غلطان هو اللي اختار يكون عدو.

التفت الرجلان الفرنسيان ناحيته، بينما ظل النوبي يرمقه بالنظرة الآسفة ذاتها، خرج سامي من البار بخطى غير متزنة، عبر نهر الطريق بصعوبة بين السيارات حتى كورنيش النيل، جلس على السور وتنفس بعمق حتى شعر أنه أفضل حالًا،

أخرج دفتره من جيبه وكتب على صفحة جديدة بخط متعرج «أنا لا أندم، لكن لا أريد أن أكون ظلًا لرجل مات واقفًا».

قرأ العبارة بصوت عالٍ ثم مزق الصفحة وألقاها في النيل، ظلت تطفو كجثة خفيفة، ولما جرفها التيار ابتعد مطمئنًا.

كان طقس القاهرة في مارس 2006 باردًا على غير العادة، مع ذلك ظل سامي يتعرق بكثافة من تحت ملابسه، اشترى ثلاثة أقراص مدمجة، واحدًا لكل فيلم، رُقّمها بالترتيب كأنه يخفي اسمها الحقيقي، ثم راح يُعيد تشغيل الأفلام الثلاثة ربما للمرة السادسة خلال أسبوع، جلس أمام الشاشة كمتهم يُحاكم بدون قاضٍ، يتابع بقلق كمال الشناوي وهو يلعب دور العقيد خالد صفوان وهو يعذب المثقفين في فيلم الكرنك، ثم ينتقل لفيلم زوجة رجل مهم ليرى أحمد زكي، أو العقيد هشام، وهو يصفع زوجته في مطبخ ضيق بعد خروجه من الخدمة، ثم يختتم بفيلم طائر الليل الحزين، يتوقف عند مشهد محدد، عادل أدهم، أو طلعت مرجان، وهو يحذر الناس من معرفة الحقيقة كأنها مرض مُعدٍ، ثلاث لقطات في ثلاثة أفلام متتالية بثلاثة رجال يشبههم أكثر مما ينوي أن يعترف.

في الليل عاد إلى فيلم «الكرنك»، هذه المرة لم يتوقف عند مشاهد التعذيب، اختار لحظة سقوط خالد صفوان وهو داخل المعتقل بعد القبض عليه، كان يبرر أفعاله ويدافع عن نفسه بين المعتقلين الذين عذبهم وهم يحاولون التعدي عليه.

صرخ سامي فجأة:

- مش هبقى زيه، أنا مش زيه، أنا بعزف.

ثم رفع الكمان ووضعه على كتفه، لكن القوس ارتجف بين أصابعه وخرج منه صوت يشبه احتجاجًا مكتومًا.

نام مبكرًا تلك الليلة، وفي الكوابيس تداخلت الشخصيات السينمائية في واقعه بعدما خرجت من أدوارها، ظهر له خالد صفوان وهو يلعب على البيانو في زاوية المسرح، بينما العقيد هشام يمسك بالكمان ويختبر أوتاره بنظرة شك، في حين كان طلعت مرجان آخر من يظهر على المسرح باعتباره المايسترو مطلقًا ضحكته الشريرة الشهيرة، في نهاية الكابوس رأى نفسه جالسًا في الصف الأول، معصوب العينين، مُطرق الرأس، ويبكي في صمت.

استفاق فوجد أنه لا يزال مستلقيًا على أريكة الصالون، يده ممسكة بالريموت، والكمان مُلقى على الأرض بعشوائية كحيوان نافق، بينما شاشة التلفزيون مُثبتة على صورة عادل أدهم وهو يصرخ في غضب.

أغلق الشاشة بضغطة عصبية على زر جهاز التحكم، أغمض عينيه فرأى نفسه لا يعذب إنما يحقق فقط، كل ما يُكتب في المحاضر ربما يكون بعضه صحيحًا، وما لا يُكتب لا يعني أنه لم يحدث، من المؤكد أن باهر كان يختلي بحبيبته دينا يعقوب كل ليلة قبل اعتقاله، هتف أنه ليس العقيد هشام في زوجة رجل مهم، لم يضرب أحدًا ولم يلفق قضايا لآخرين، هذا ثأر شخصي، موضوع خاص بينه وبين دينا، لم يتحمّل أن يراها مع غيره، ولا علاقة لأمن الدولة بمشاعره، هذا أمنه وحده وسكينته الروحية، وبصوت أقل حدة تمتم أنه لم يكن شريزًا مثل طلعت مرجان، هو لا يخفي الأدلة لكنه ربما يعرف متى لا يبحث عنها.

في تلك الليلة لم ينم في فراشه هربًا من كوابيسه، خرج للشرفة ليدخن سيجارة ثم دخل حجرة جدته واستلقى على سريرها، مع ذلك زاره الكابوس وهو يضحك على خيبته، رأى نفسه في غرفة استجواب أشبه بمسرح، الكشافات مُضاءة، والكمان مُعلق فوق الجدار كشاهد على جريمة مستمرة، بينما باهر سعيد يجلس على الكرسي معصوب العينين، لكنه هذه المرة يتكلم، ينفي التهم ويواجه، يقول إنه يعرفه ويعرف حقيقته وسيعلنها على العالم كله، سيكتبها في مقال ويحكىها لابنه ولزوجته، خرج صوت سامي بنبرة تشبه صوت العقيد هشام

حين قال لزوجته «أنا اللي بحميكي»، وصوت يشبه طريقة حديث خالد صفوان حين قال للمعتقلين «الوطن ما يتحملش أسئلة دلوقتي»، الجملة ذاتها تتكرر بمعنى مشابه على لسان العقيد طلعت مرجان وهو يصرخ في مساعده بأن كل تعذيب تم في الجهاز كان من أجل حماية البلد من الفوضى.

في الصباح استيقظ وعيناه جافتان، الكمان يرقد بجواره على المقعد مائلاً هذه المرة، كأنه شاهد قرر العدول عن شهادته. في طريقه إلى المكتب مرّ بسيارته بجوار دار سينما تعرض أفلاماً قديمة، أبطأ سرعته قليلاً، تأمل الأفيش الضخم الذي جذبه وجزّ الأفلام الأخرى لكي يشتريها ويشاهدها كل ليلة، أفيش فيلم «زوجة رجل مهم» بمناسبة الذكرى الأولى لوفاة بطله، ممتد بطول واجهة السينما، تتصدر صورة أحمد زكي الأفيش وهو يصوب مسدسه نحوه، نظر إليه كمن يرى مستقبله بكل تفاصيله، ارتجف، ثم مضى مسرعاً إلى مقر عمله.

فن تثبيت الصورة

القاهرة/ ميدان التحرير/ إبريل / 2008

كلما سار في وسط البلد حرص على المرور بالأماكن التي تردد عليها أبوه، علّه يتعثر في خيط يدلّه عليه، يشعر كل مرة أن القاهرة من حوله تنقسم إلى نصفين؛ نصف يختنق بالإشاعات عن مصير أبيه باهر سعيد، والنصف الثاني يعيش على حكايات دينا يعقوب عنه وذكريات الصور القليلة التي يظهر فيها، بينما هو لا يزال عالقًا، في هوة بين النصفين، لا ينتمي لأي منهما، ولا يملك سوى الغضب الذي لازمه وعاش معه، كما تعيش العقارب في جوف صخرة لم تفلح الطبيعة، برغم قسوتها، في تحريكها من مكانها بعد.

صار اسم باهر سعيد في البيت يتردد على استحياء مثل ظل عابر، لكنه لا يُذكر في الجرائد القومية إلا مشفوعًا بالعار الذي لا يفخوه الزمن، تضع دينا يعقوب صورة له فوق البيانو لكنها لم تُعد تتكلم عنه، أخبرته وهو طفل أن أباه سافر، ولما كبر قالت له الحقيقة، أو ما سمته الحقيقة، حتى لا تُتهم بالكذب، فهي حتى اليوم لا تعرف له مكانًا.

سألها ذات مساء بصوت حاول أن يجعله عاديًا، بالرغم من أن ضلوعه ترتجف «لماذا توقف البحث عن أبي؟».

قالت بصوتها الهادئ الذي يثير غضبه:

- أنا دُورَت عليه في كل جحر من جحور البلد لغاية ما تعبت ويئست.

في تلك المرحلة الأولى من شبابه وهو على أعتاب الجامعة بكلية الطب لم يعد يصدّق روايتها عن أبيه، كل ما يراه منها مشوّشًا مشوّهاً ناقصًا، حتى الحنان

رفضه في ثورة غضبه عليها، ثم تشئت رأسه، ولم يعد يعرف إن كان يتمنى أن يجد أباه حيًا، أم يريد أن ينتقم ممن أخفاه فقط.

ذات مساء من يوم اثنين كان جالسًا في إحدى الندوات التي تعقدها ورشة الزيتون الأدبية بالقاهرة، تحدث كاتب يساري معروف عن الاعتقال العشوائي والإخفاء القسري والذاكرة الشعبية الوطنية لإعادة تدوين التاريخ وتسجيل وقائع ما جرى، موضوع كتابه الأحدث الذي جذب الابن لحضور الندوة، فجأة مالت على أذنه امرأة خمسينية ترتدي وشاحًا فلسطينيًا وتضع كحلًا كثيفًا، سألته بقلق أم:

- من أين لك كل هذا الحزن يا فتى وأنت دون العشرين؟

بهدوء أجابها:

- تركه لي أبي قبل أن يختفي.

- مين أبوك؟

- الدكتور باهر سعيد.

نظرت له السيدة بريبة، ربما لم تصدقه وربما لا تجد ردًا، هو نفسه يشعر أن لا أحد يصدقه والكل عاجز عن مساعدته، الآن تأكد أن باهر سعيد سقط من الذاكرة الرسمية والشعبية وبقي في رأسه وحده.

كانت دينا يعقوب تجلس في الصالة تقلب قنوات التلفاز كعادتها، تبحث عن خبر عاجل تنتظره من سنين ولم يعلن بعد، حين دخل ابن باهر سعيد عليها وجلس في مواجهتها دون أن يحييها، قال بصوت مكبوت لا يريد أن يصرخ بعد:

- انتي هتفضلي ساكتة لغاية إمتى؟

ظلت تحقق في الشاشة ثم أغلقت التلفزيون، أطفأت النور الجانبي وجعلت

وجهها في الظل، وقالت:

- أنا عملت حاجات فوق طاقتي، حاجات مكنتش أحب أعمالها وعملتها، وبرضه مفيش نتيجة، أنا ساكتة غصب عني ولو عليا عاوزة أصرخ لغاية ما أبوك يسمعني.

سمع الفتى تلك الجملة من قبل كما سمع غيرها، كبر على وقع كلماتها، صارت مثل مطر يهبط على أرض ولا يرويها فلا تُنبِت شيئًا، قال:

- يعني خلاص نصدق كلام الحكومة؟ طيب نقول للناس إيه؟ باهر سعيد كان أفاق وهلاس موش مناضل؟

قالت وهي تغالب ارتجافة في صوتها:

- والله العظيم خبّطت على كل الأبواب لكن كلها اتقفلت قدامي.

- كل ده ما يغيرش حاجة، إنتي عارفة أنه ما هربش، إنتي ذكية كفاية عشان ما تصدقش القصة دي، لكن الناس بتقول إنك ما كنتيش عاوزة تلاقيه لأن في حاجة كبيرة عرفتيها عنه ومخبياها، بيقلولوا إنك كنتي بتدوري عليه بصورة شكلية والسلام. مش عارف لغاية إمتى هتفضلي تتعامللي معايا على إني عيل صغير، أنا مش مسامحك أبدًا.

قالها ونهض مغادرًا البيت، ضمّت ركبتيها إلى صدرها وطوّقتها بذراعيها مثل طفل خائف، ابتلعها عتمة الغرفة كما لو أن الجدران انكشفت على نفسها، وحين بدأت الدموع تبلّل خدّها راحت تتمتم «أنا كمان مش مسامحة نفسي».

قالتها ودفنت رأسها بين ركبتيها، فوق رأسها تدور المروحة ببطء بينما تتراقص ستارة النافذة على نسائم خفيفة تسلت برفق، وعلى مقربة منها صورة صغيرة في إطار فضي تجمعها مع باهر سعيد وابنه، لكن كل واحد فيهم ينظر في اتجاه مختلف.

لم يكن سامي يرى شيئًا خارج أسوار الجهاز، لا يهمه إلا ما يرد إليه مطبوعًا في التقارير؛ ورقً يحمله ضابط صغير الرتبة إلى مكتبه كل صباح، يضعه أمامه وينصرف في صمت، يتصفح الملف بعين والأخرى تراقب انعكاس صورته على زجاج النافذة، كان ما يشغله أسئلة أخرى، هل ازداد شحوبه؟ هل طالت التجاعيد جبهته؟ هل أصبح يشبه والده كما كانت جدته تردد؟ هل بان عليه السن بعدما تجاوز الخمسين؟ هل تراجع مستواه في العزف على الكمان؟ لماذا أوقفت دينا البحث عن باهر سعيد؟ ولماذا لم تُعد تغادر بيتها إلا نادرًا وفقًا لتقارير المراقبة التي ترد إليه شهريًا؟

يكتب في تقاريره أن الأمور تحت السيطرة، بينما البلاد تسير على الحافة برعونة غير عابئة بالسقوط، يبذل الجهاز الذي يعمل فيه سامي جهودًا مُضنية لإعطاء النظام قُبلة حياة كل حين، لكن فسادًا فاحت له رائحة في عموم البلاد، ورجالًا من عشوائيات ظهروا كالقطر بعد المطر صاروا رجالًا للأعمال، وآخرين كانوا لا يملكون ثمن علبة سجائر طالت لحاهم وصاروا دعاة حتى جرت الأموال بين أيديهم بلا حساب، ونساء وجدن في النقاب خلاصًا من نظرات المارة؛ ملايين الفقراء والجائعين والمهمشين واقفون على يسار السلطة، لكنها لا تراهم إلا بعينها اليمنى، فيكونوا دومًا من المخالفين، لكن كل ما كان يجري لا يعني سامي عرفان كثيرًا، زُورت الانتخابات، زادت التفجيرات، تنوعت محاولات اغتيال مبارك، كبرت العشوائيات على أطراف العاصمة مثل حروق انتشرت في جسد ولا دواء لها، وهو يكتب العبارة ذاتها «الأمور تحت السيطرة».

- كل الأمور تمام يا سلطان بيه.

قالها ضابط مباحث المرج لسامي بعدما انتدبه الجهاز للتفتيش على سير الانتخابات، سحب كرسيًا وجلس تحت ظل شجرة في فناء المدرسة المخصصة

كلجنة انتخابية يتصفح جريدة الجمهورية بلا مبالاة، توقف عند تصريح بالبنط العريض للوزير عن تطوير التعليم والقضاء على الأمية، بعد ساعة شعر بملل فدخل اللجنة يتفحص في وجوه الناخبين، رأى مواطنين يتعزفون بالكاد على رمز الهلال ببطاقة الانتخاب، ثم يضعون خطأ متعرجا بالقلم على كلمة نعم في الاستفتاء على تعديل الدستور، صعد للطابق الثاني ووقف بالشرفة يدخن، من حوله غيطان على مد البصر، تذكر أن بعض تقارير زملائه بالجهاز حذرت من تنامي أعداد أعضاء جماعة الإخوان بالمناطق الشعبية بسبب توليهم مهام الدولة في توفير بعض الجِصص التموينية، ومراكز الدروس الخصوصية، والمستوصفات الطبية، حتى المساجد سيطروا عليها فتحوّلت إلى نقاط تجنيد، أطفالاً سيجارته وعاد إلى فناء المدرسة في محاولة لقتل ملل الساعات المتبقية على قفل الصناديق، وقعت عينيه على طوابير أخرى تمتد بطول الشارع، سأل ضابط المباحث عنها، أجابه وهو يداري ابتسامة:

- معلى يا باشا دي طوابير العيش. تحب سعادتك نمشيهم من هنا لغاية ما اللجنة تخلص؟

- لا لا مالوش لزوم.

وقف متوارياً على مبعده، بدت له طوابير رغيف الخبز أمام المخابز مثل طقوس عبادة، تقف فيها الناس منذ الفجر حاملة بطاقتها التموينية كجواز سفر إلى الحياة، لم يذق هذا النوع من الخبز، ولم يسمع عن الطوابير إلا في التقارير، لم يقترب يوماً من فرن، وقف يتأملها مندهشاً، كما لو كان يشاهد فيلماً وثائقياً عن بلد آخر، طوال حياته لم يشعر بتعاطف مع الفقراء ولا انتماء إلى الأغنياء، لم يهتم إلا بالموسيقى ونفسه من بعدها، لا يعرف شيئاً عن أولئك الذين يرتدون قمصاناً مقلدة ويقودون سيارات بالتقسيط، ويعملون في أكثر من وظيفة، ويسكنون على أطراف المدن في قلب الصحراء في شقق تنافس علب الثقاب في حجمها، هو فقط في مكانه، أمامه ملفات ربما لا تكون مهمة، لكن كل سطر

فيها يذكره بأنه موجود، وأن وجوده ضروريًا، حارس الليل الذي لا ينام كما يصفهم سمير رجب، رئيس تحرير جريدة الجمهورية، في مقالاته الأسبوعية كل يوم خميس.

غادر سامي مقر اللجنة الانتخابية مبكرًا عن مواعده قبل إعلان النتيجة، قرر أن يتمشى في منطقة وسط البلد، ترك سيارته بجراج عمر مكرم وترجل حتى ميدان التحرير، مزّ بين الباعة والمواطنين كغريب عن المدينة، وقعت عيناه على محل يبيع أجهزة تلفزيون صينية، رأى الناس مصطفى أمام الواجهة الزجاجية العريضة تتابع نشرة الأخبار، ظهرت على الشاشات في وقت واحد صورة الرئيس مبارك وهو يبتسم بعدما ألقى كلمة قصيرة بمناسبة عيد تحرير سيناء، كل شيء على ما يرام، شريط الأخبار القصيرة يجري بسرعة أمام عينيه بعناوين بارزة «الأسعار تحت السيطرة»، «الانتخابات نزيهة»، «الفاقدون قيد المحاسبة». السنون تمضي روتينية بصورة ثابتة على مدار ثلاثة عقود، ثبتت الصورة وواحد فقط بحوزته جهاز التحكم.

توقف لحظة وتأمل وجوه الناس من حوله، وجدها مُشبعة بالحسرة، خطى خطوات مترددة كمن يحاول الفرار من الناس، حتى سمع خلفه صوتًا ينادي:
- باشا.

توقف خائفًا ثم التفت بحذر، لم يجد سوى رجلٍ يخاطب منادي السيارات، أكمل طريقه، عاد النداء يتردد مرة ثانية، لم يلتفت هذه المرة، غلّت الأصوات تنادي بلقبه، كأن الصوت يلاحقه، البلد كلها صارت باشوات، شعر أن ماضيه يسبقه ويمشي أمامه، ثم يلتفت إليه ليبتسم له بنفس ابتسامة دينا يعقوب المستنكرة، حين كانت تعرف كل شيء ولا تقول شيئًا.

في صباح اليوم التالي جلس إلى مكتبه وكتب التقرير المطلوب عن الأحوال الأمنية في منطقة وسط البلد بعد إعلان تكوين «حركة 6 إبريل» المعارضة

للنظام، واختتمه بالعبارة الروتينية التي اعتاد كتابتها «الوضع مستقر»، ثم وضع
القلم وأغمض عينيه، تاركاً رأسه بين راحتيه مطمئناً.

عيد ميلاد سعيد

القاهرة/ مبنى بمدينة نصر/ ديسمبر/ 2010

الزمن هنا لا يمر بل ينزف قطرات كل يوم ببطء، يطول حتى ينسى المرء الفارق بين الليل والنهار، بين الأسبوع والشهر، حتى تبتلعك السنون من بعد الأيام.

يصحو باهر سعيد كل صباح على صوت حديد يحرث الأرض، لا يعرف إن كان بابًا يفتح أم جرحًا ينزف، في العام الأول طلب ورقة وقلما ففُوجئ باستجابة سريعة من سجنه سامي عرفان، كتب رسائل كثيرة إلى دينا يعقوب التي حرم منها قبل أن يهنا معها، وإلى أمه التي ماتت ولم يعرف برحيلها، إلى ابنه الذي تركه على مشارف السادسة من عمره ولم يشبع منه بعد، كتب مقالًا إلى جريدة لا تقرأها الدولة، ونظم قصيدة طويلة لن تروق لقارئ عادي، سلّمها جميعًا لسامي عرفان الذي يتولى استجوابه كل حين، وفي كل مرة يَعْذُه بأنها متصل للفرسل إليه.

ظنُّ باهر أن الكتابة ستنقذه وتُسْري عنه، وأن الحروف تُطير جدران الزنزانة ليتنفس بعض الحرية، لكن الحروف ماتت على الورق والرسائل دُفنت في درج سامي عرفان، الذي قرأها كلها وظل يشجعه على كتابة غيرها ليعرف منها آراءه وحقيقة مشاعره تجاه دينا يعقوب، وبقدر حبه لها، كان يأخذ من كلامه ويضعه في تقاريره ضده لتمديد فترة الاعتقال.

بحلول العام الخامس حاول باهر أن يتذكر وجه دينا فلم يستطع بسهولة، بالكاد تذكر صوتها، تشوّشت ملامحها في ذهنه، صبر نفسه بأن الحب لا يحتاج إلى شكل، ثم تساءل في شك «هل تعرف أنني ما زلت على قيد الحياة؟».

قبل أن يكتمل عامه السابع، شعر أنهم صادروا صوته ومحووا صورته، وبعد ثلاثة أشهر من العام الحادي عشر كان يتكلم في نومه، ويصرخ في كوابيسه، يحاكم العقيد سلطان في منامه، يتخيله واقفاً أمامه، وعصابة العينين على وجهه لا على وجه باهر، يأمره بأن يعزف لحن الغفران، وكلما فشل يضره بوتر الكمان على رأسه.

في مستهل العام الخامس عشر قرر سامي عرفان أن ينتقم من باهر سعيد بأسلوب جديد، فَبَزَكَ له خبرَ زواج دينا من أحد أقطاب الحزب الوطني، ثم تظاهر بمغادرة الحجرة ووقف يتأمله في شماته، هبط الخبر على عقل باهر كماء نار محت كل ذكرياته، ظل يبكي حتى جفَّت عيناه، ومن بعدها تأزمت صحته، نقلوه للمستشفى وبقي بها حتى بات على أعتاب عامه السادس عشر، ولما عرف سامي بقرار نقله للعلاج كتب تقريرًا بخطورة ظهوره في النور بعد كل السنوات التي قضاها في العتمة، أعاده في اليوم ذاته لزنزانتة، رجع باهر في حالة مزرية، جسده يشبه وتراً متأكلاً من كمان قديم مهمل، ينتظر من يعزف عليه للمرة الأخيرة قبل أن يتمزق.

كل عام يحتفل سامي بعيد ميلاد دينا يعقوب على طريقته الخاصة، يخلد ذكراها بجرح متجدد كطقس مقدس لا تتغير فيه إلا تفاصيل بسيطة كل مرة، يرتدي بدلة كحلية تحب لونها عليه، يختار رابطة عنق أهدتها له منذ سنين بعيدة، يتعطر بالعطر الذي تحبه ويدخل غرفة المكتب ببيته، يضيء المصباح الأصفر ويجلس وراء مكتبه، يكتب لها رسالة يحفلها فيها المسؤولية عن كل ما جرى له ولباهر سعيد، ثم يطفى شمعة ويبدأ في العزف لها كأنها جالسة أمامه.

هذا العام همس شيطانه في أذنيه بفكرة فاستجاب له، كان وقتها بالجهاز، طلب من رجل الأمن استدعاء باهر سعيد من الحجز بعدما مرّت سنوات لم يره

فيها، أنهى توقيع بعض الأوراق وقرأ تقريرًا عاجلاً عن تحركات محدودة محتملة في بعض المناطق بالقاهرة والسويس والإسكندرية من الجماهير التي وصفها التقرير بالقلّة المندسة، لم يُعزها التفاتًا كبيرًا باعتبار أن هناك رؤساء له قادرون على اتخاذ قرار مناسب، وما عليه إلا المتابعة كما اعتاد، أمسك بقلمه وكتب في التقرير المطلوب عن الحالة الأمنية عقب إعلان نتيجة الانتخابات «الوضع مستقر»، بعدها ضغط زر الجرس، ولما مَثَلَ فردُ الأمن أمامه، نهض فجأة وقال بنبرة بدت مثل قرار أمني لا يقبل التأجيل:

- سيبوه تحت، وخليهم يجهزوا الحجز أنا نازل له.

سار عبر رواق طويل وهبط طابقًا من خلال درج شديد الالتواء، وقف لبرهة على عتبة الباب ثم هندم ملابسه ودخل غرفة الحجز المخصصة للمعتقلين، صدمته رائحة الزمن، غرفة خانقة لا يعرف فيها الوقت طريقه ولا يجد الضوء لها مدخلًا، في ركن قصي وجد بقايا رجل يرقد على ظهره، أشبه بمومياء دُفِنَتْ من آلاف السنين ثم أعيد اكتشافها فجأة، أطلال إنسان نهش الزمن جسده وابتلع الظلم روحه، تساقط الكثير من شعره وفقد بعض أسنانه وربما نصف وزنه، إسود وجهه وتضخم بطنه، لم يعد قادرًا على الحركة بمفرده وصائمًا طوال الوقت، أجلسه رجل الأمن مستندًا بظهره إلى جدار بصعوبة وهو يلهث كمن ركض أميالًا، واضعًا ذراعيه خلفه كأن يديه مقيدتان بعدما نسي كيف تكون اليد طليقة.

لاحظ سامي أن عيني باهر لم تكونا معصوبتين، وأن فرد الأمن غادر الغرفة ولم يهتم بوضع قطعة القماش السوداء عليهما كعادته، توتر قليلًا لكن بعد برهة انتابته نشوة غريبة، سيواجه باهر سعيد لأول مرة بالصوت والصورة، مال بجذعه وقال:

- كل سنة وأنت طيب يا دكتور باهر، النهاردة عيد ميلاد دينا يعقوب، فاكرها؟

واهنا كجسده خرج صوته بكلمات غير مفهومة كمجذوب يهذي في شوارع

المحروسة، أخرج سامي قرار تجديد الاعتقال الذي وقّعه منذ قليل، وضعه أمام عينيه، كما لو أنه بطاقة تهنئة بعيد الميلاد، لم تكن هناك تهمة ولا محاضر، لم يُحاكم ولم يقف أمام قاضٍ ولم يَفُثْل في تحقيق بالنيابة، مجرد رقم في ملف اعتقال، مُلقى في درج بمكتب سامي عرفان، يُعاد تدويره بمعرفته كنفايات كل بضعة أشهر على ذمة قضايا هلامية، تارة التنظيم الشيوعي الدولي، وتارة الاشتراكيون الثوريون العرب، وثالثة تنظيم مصر الحرة.

- أنا العقيد سلطان يا دكتور.. فاكرنى؟

تدلى رأس باهر سعيد على صدره، صدرت منه أنات مكتومة ثم سال بعض لعبه على قميصه، ومنه إلى البلاط فأحدث صوتًا رتيبًا، قطرات سائبة تعلن عن مرور لحظات من زمن بلا نهاية، ظل سامي يحرك يده أمامه كأنه مايسترو وهو يبتسم ثم يعيد عليه تهنئة عيد الميلاد، بدا كشخص مجنون يعاير ميتًا بقلة حيلته وضعفه. مع تكرار الصوت تلفت باهر، ثم رفع رأسه كأنه يتعرف على المكان بأنفه ككلب، بدا لا يفهم شيئًا مما يدور حوله، مثل جثة دفنت وانصرف المشيعون ولم يعد يزور قبره أحد، استسلم لمصيره كجثمان راقد في كفن، لكن كلما سمع صوت سامي تذكره دون غيره من السجنانيين، فتنتفض بقلبه كراهية مدبوغة بقلة الحيلة، يكره قاتله دون أن يعرف اسمه ولا ملامحه، لا يعلم سببًا لاعتقاله كل هذه السنين ولا يعرف شيئًا عن زوجته، فعاش صامئًا كعصفور فقد رفيقه إلى الأبد.

خرج صوت سامي للمرة الثالثة باردًا كجدران الغرفة:

- عيد ميلاد سعيد يا دكتور. عرفتني؟ بص كويس وافتكرو؟

رفع باهر رأسه وراح يتلفت يمينًا ويسارًا، فجأة ساور سامي شك للحظة تمنى فيها وأد الفكرة التي راودته، بدأ يتعزق وشعر برعشة تغزو بدنه، بدا خائفًا وهو واقف مكانه بينما باهر ثابت في مرقده على الأرض ولا يجيب عن السؤال،

اقترب سامي منه بخطوة مترددة وجثا على ركبتيه، بدأ يحرك كفه أمام عيني
بأهر عدة مرات فلم يرمش جفناه.

نهض بصعوبة وهو يترنح، طرق الباب بعصبية كأنه سجين، ما إن دخل رجل
الأمن حتى سأله بجزء وهو يشير نحو عيني بأهر أومأ الرجل بالإيجاب، وفي
ذات اللحظة غابت النشوة وحلت الغمة، ويصوت مخنوق سأل حارس الزنا:

- من إمتى وهو على الحال ده؟

- معاليك مش بتطلبه للاستجواب من حوالي ثلاث سنين ونص يا فتني، وهو
بعد الشر عن سعادتك من ساعتها فقد الإبصار بالكامل، لكن الدكتور بيتابعه
وبيقول أنه يقدر يشوف خيالات سودة من قريب وجايز يتحسن، عمودنا التقرير
موجود أجيبه لمعاليك فوراً.

أشار سامي بيده في الهواء كما يسترو يعلن نهاية عزف كونشرتو حزين، في
تلك اللحظة أدرك أن زمن التقارير التي يكتبها بانتظام قد انتهى، وأن أظنان
الورق التي كُتبت بالجهاز لن تمنع السقوط، وأن ما لم يُكتب هو وحده الذي
سيحكم، وأن الحقيقة ليست في الملفات والأوراق، بل في نظرات بأهر سعيد
حين تمر به ولا تراه كأنه ميت لم يُدفن بعد.

صعد بسرعة إلى مكتبه وهو يتمم بكلمات غير مفهومة، مزق قرار اعتقال
بأهر سعيد، ثم أخرج ملفه من الدرج وكتب بخط مرتعش فوقه «المتابعة ملية
منذ فترة ونوصي بالإفراج عنه»، ثم سحب ورقة وكتب مذكرة بحيثيات قراره
بالإفراج ووضع خاتمه وتوقيعه والتاريخ 2011/24/1. نادى رجل الأمن الواقف
ببابه وسلمه القرار في مظروف سري ليعرضه على مكتب المدير في اليومطة
اليومية. وضع القلم وأغمض عينيه تاركاً رأسه بين كفيه ثم أجهش بالبكاء.

تأملات في غرفة مُعتمة

باريس / حي مونمارتر / إبريل / 2015

سَكّر النوافذ، أغلق الهاتف، حتى الإضاءة جعلها خافتة، جلس أمام آلة تسجيل قديمة يتفائل بها، يستخدمها عند تأليف مقطوعة جديدة لسمع اللحن عليها، ضغط زر التسجيل وبدأ يتكلم...

«اقترب بما يكفي من أضواء كثيرة، ثم هربت إلى العتمة من ظلي الذي تابعتني بالحاح لسنوات، أريد أن أختلي بنفسي وأطمئن على روعي، لا أريد أن يزعجني أي شيء الآن حتى ولو كان مجرد طيف عابر. أنا سامي مراد عرفان أو أنور سليم، وعندما عملت في الجهاز الأمني كان اسمي سلطان، العقيد سلطان، الذي لم يحصل على ترقية حتى خروجه من الخدمة ولم يُنقل أيضًا، ربما ظنوا أنني مجرد خردة مُكّهنة بالجهاز، وربما سخرية من كوني لا أفعل شيئًا فلم أستحق الترقي، الاسم المستعار لا يُغير من الوضع شيئًا، كل المحاضر ثمّهر بهذا الاسم، ربما بعض زملائي كانوا يعرفون اسمي الحقيقي، لكن بالطبع كل متهم جلس أمامي لم يعرف سوى أنني سلطان، كنت أقوله بأريحية وحميمية في آن حتى أكتسب ثقتهم وأكسر الحاجز بيني وبينهم بسرعة، فنادرًا ما يبوح الضباط بأسمائهم للمتهمين حتى لو كانت مزيفة، برغم أنهم جميعًا كانوا معصوبي العينين، لا أحد منهم رأى وجهي. أرجو ممن يستمع لي الآن أن يضع نفسه مكاني، تخيل أنك منذ ولادتك رُسمت حياتك كما تُرسم خريطة لأرض فضاء، كنت مثل قبطان وضعوه على متن سفينة وحده، دون أن يسألوه هل تحب البحر أم تخافه؟

أنت لا تعرف ماذا يعني أن تترك وظيفتك الرسمية المهيبة التي جعلت منك

شبحاً وتعود إنساناً عادياً مهما بلغت شهرتك، لا أحد يخبرك أن الأصوات التي كنت تأمرها بالصمت ستظل تهمس في رأسك حتى وأنت تعزف، ضع نفسك مكاني وتخيل أنك تمسك بالكمان والقوس لتعزف، وليس بورقة وقلم كي تدون اعترافات، تقف تحت أضواء مسارح باريس المبهرة، لا تحت مصابيح صفراء بغرفة تحقيق خانقة في مبنى كئيب بمدينة نصر في القاهرة، الجمهور يصفق لك وحدك، بينما في الناحية الأخرى هناك من يجلس أمامك، يود قتلك أو سجنك، لكنك تعرف أن بين كل كلمة تدونها في محضر وتصفية إعجاب في مسرح مسافة واحدة.. هي صوتك.

أرجوك يا عزيزي لا تتعجل في حكمك علي، الآن أنت رأيت المعتقل باهر سعيد مرة ثانية، لم تكن تتوهم، كان هناك أمامك في المسرح، لكن وهو شاب، مؤكد استعاد شبابه بعد خروجه من المعتقل ورجوعه لدينا يعقوب، أنت الآن تراه جالساً في الصف الأول، لا يصفق، ولا يتحرك، عيناه مثبتتان عليك كأنهما تحفران طريقاً بين النغمات وبين تلك الليالي السابقة التي لا ثروى ولا تريد تذكرها، لم يقل لك شيئاً، لم يتقدم نحوك، فقط نظر لك نظرة تكفي لتحيل كل العظمة التي تتوج رأسك إلى عار يلطخ جسدك، وكل المجد الذي وصلت له ستكتشف في لحظة أنه كان مجرد وهم. أنت الآن تجلس أمام جهاز تسجيل، لا موسيقى تعزف، لا جمهور يصفق، لا مرايا لتصفف فيها شعرك أو تختبر بها ابتسامتك، فقط الميكروفون وضوء أحمر صغير يشير إلى أن كل ما ستقوله سيُسجل، تريد أن تعترف، لا لثعاقب بل لتنجو من الجنون، تريد أن تقول إنك كنت تؤدي وظيفتك، لكن من داخلك تعرف أنك تكذب، على الأقل في ملف باهر سعيد، لم يطلب منك أحد تتبعه، ولم يراجعك أحد في قرار اعتقاله الذي اتخذته وحدك، حتى عندما اختلقوا قصة لغيابه راقى لك، ثم نسي الجميع باهر سعيد مثلما نسيك الجميع طوال عمرك، اختاروا له مصيراً وحياة مختلفة عن التي كانت في ذهنه، مثلما اختاروا لك مصيراً آخر وحياة مختلفة عن التي كانت في ذهنك... أنا وباهر سعيد ضحايا».

أطفأ سامي جهاز التسجيل، صب كأسًا مضاعفة من الويسكي وتجرعها دفعة واحدة، لا يصدق حرفًا مما سجّله، يعرف أنه لا يزال يكذب، وأنها محاولة خائبة لن تخيل على أحد، بسط كفه وراح يتأمل خطوط يده، ذات اليد التي كانت تتحسس العصاة السوداء من الوراء لتتأكد من إحكام ربطتها على عيني باهر سعيد، ومنعت الضوء عنهما لسنوات حتى انطفأ نورهما. صب كأسًا ثانية وارتشف على مهل وضغط زر التسجيل الأحمر، قال بنبرة شبه واثقة هذه المرة...

«عزيزي المستمع.. هل ستصدقني إن قلت لك الآن إنني تغيرت؟ وإن الموسيقى غسّلت ما فعلته يد الضابط بي؟ وإن يدي تطهرت بالعزف ومحت كل ما خطته من اعترافات لم يُذل بها باهر سعيد أمامي ونسبتها له، هل تعرف ما هو أسوأ من الذنب؟ أن تعيش وأنت لا تدري إن كنت تستحق الخلاص، أن تستيقظ كل صباح على نغمة جديدة، وتنام على صمت يشبه هوة عميقة، حفرتها بأصابعك، بصوتك، بتوقيعك على محضر لم يعترف صاحبه بأنه فعل شيئًا، لكنك غلبت الظنون وأثبتت الهوى، أنت الآن تقول الحقيقة لكن في عتمة، بعيدًا عن الورق الرسمي، بعيدًا عن المحاكم، تنقش حروف صك البراءة على صفحة الماء، ثم تشير للناس نحوها وتلومهم على أنهم لم يلمحوها».

سكت سامي لبرهة طويلة وراح يبكي في صمت، أوقف التسجيل وأعاد الشريط من البداية ليسمع كلماته المسجلة، لكنه تذكر كيف كان باهر يبتلع صمته كمسمار طويل في حلقة كلما دخل عليه بقميصه المعطر وقوامه المشدود وشعره المصفف بعناية، بينما هو مُنهك متصدع كجدار مشقق من قلة النوم والجوع وحصار الأسئلة وظلال الخوف.

أغلق جهاز التسجيل بعصبية وصرخ صرخة هائلة كأن رصاصة اخترقت صدره، نهض وأخذ يروح ويجيء في الغرفة كنمر حبيس يبحث عن مخرج وينبش الجدران بأظافره حتى بُرِيَتْ وَدَمِيَتْ، فجأة عاد وضغط الزر الأحمر وهو

«أنا العازف العالمي سامي المصري، بعث مليون أسطوانة، موسيقي عبرت الحدود، لامست قلوبًا لا أعرفها وأسعدت أرواحًا لم ألتق بها يومًا، جعلت الناس تبكي في هدوء وتبتسم في عز وحدتها، إن كان في هذا بعض الخير، فليشهد عليّ مَنْ فوق سبع سماوات، لكنكم لا تذكرون سوى رجل واحد.. باهر سعيد. هل أنا مذنب لأنني انتقمتم لحبي وكرامتي؟ أي عقل يزن مليون لحظة فرح بلحظة حزن واحدة؟ أي عدالة تُقاس بالعدد؟ لم أكن جلاذًا، كنت عاشقًا مخذولًا، لم أكن قاتلًا، كنت ثائرًا لكرامتي ومشاعري وحبي، لكل ثورة ضحايا وباهر سعيد ضحية، لكن ذنبه في رقبة دينا يعقوب وحدها. الآن اسمعوني جيدًا، أنا العقيد سامي عرفان، الضابط السابق بالجهاز، أسجل صوتي بإرادتي الحرة، أتكلم إليكم جميعًا، لا لأدافع عن نفسي، ولا أطلب منكم المغفرة، فقط لأعترف أنني لم أجد أحتمل هذا الصمت المدوي، أحمل في صدري جوقة كاملة من الآهات لم تخرج بعد، أنا ضحية مثلك يا باهر يا سعيد، هل تسمعي؟ إن كنت تسمعي فاعلم أنني أراك كل ليلة، في كل صف، في كل مرآة، في كل صالة أعزف فيها، لكني لا أخاف منك ولن تنال مني، أعرف أنك لا تطلب ثأرًا، بل تطلب شيئًا أبسط، أن تراني أعترف بعدما أرفع العصا من فوق عيني، لكني لن أفعلها، أنا مظلوم مثلك، فقط كلمة أخيرة أقولها لك، أنت أجبن من أن...».

قبل أن يكمل الجملة دق جرس الباب دقة غير معتادة على أذنيه، لا تخص مدير أعماله ولا السيدة التي تنظف له الشقة كل بضعة أيام، تجاهل الجرس وأغمض عينيه ليعيد التسجيل، لكن الدقات عادت بإلحاح فنهض مرتبكًا، ولما فتح الباب وجد أمامه آخر شخص يتوقع رؤيته في هذه اللحظة.

قبل الخروج بقليل

القاهرة/ قصر الاتحادية/ فبراير/ 2011

بدا قصر الرئاسة في تلك الليلة تابوًا ضخماً من رخام، مُغطى بأعلام بُهِت لونها من لهيب الحرائق القريبة، أبوابه العريضة أشبه بأفواه تهمّ بالصراخ لكنها لم تتلقُ الأمر بعد، مُحاطًا بأسوار عالية من أسلاك شائكة، تتراص أمامها دبابات ككائنات منقرضة مخيفة، ومع ذلك تبدو أليفة متجاوبة لأول مرة، تُوجّه بعض فوهات أنوفها الطويلة ناحية قاطن القصر لا صوب المواطنين، لكنه لا يدري بعد.

في الخارج وعلى مقربة من بوابة قصر الاتحادية هدير يُسمع بوضوح، يُشبه طوفانًا آتياً لا محالة، أقدام تدب على الأسفلت وتكاد تترك به أثراً، جدران تهتز من وقع الهاتفات، أعلام تمزق الهواء كالسكاكين، وعبر نافذة عريضة يمكن رؤية صورة مهترئة للرئيس، عالقة في سور الأسلاك الشائكة قرب البوابة، من بعيد تسلق طفل كتفي أبيه، راح يلوّح بيده الصغيرة القمصة بعلم مصر في حماس كأنه يُشهر ولادة زمن جديد.

في مكتب الرئيس ساعة كبيرة معلقة عن يمينه، توقفت عقاربها عند الثانية بعد الظهر، ربما تذكره بإنجازه الأخير في حرب أكتوبر من أربعين عامًا ولا شيء بعدها، المكتب يبدو مُعثّقًا إلا من فتحة صغيرة تسل منها ضوء نهار كاذب وقع على وجه رجل نبتت فوق جلده ندوب سنين عجاف، وملامحه محفورة كخريطة قديمة لمدينة اندثرت من زمن بعيد.

رائحة الغرفة تشبه مزيجًا غريبًا من دواء وشيخوخة متأخرة وقهوة باردة، يجلس الرئيس على مقعد ضخم ومع ذلك يبدو ضئيلاً، كرسي لا يشبه العرش بل أقرب لمقعد متحرك، وجهه شاحب، جسده منكمش، عيناه زائغتان، واحدة على

الماضي تتشبت به، والثانية تحقق في الفراغ نحو المجهول، ترجوه أن يكون حقيقًا. لأول مرة يرى سامي عرفان الدولة كما ترى الأشجار العتيقة في الحدائق الملكية المهجورة، تبدو جميلة من بعيد، لكن جذوعها متآكلة من الداخل، يحتفي الناس بظلمها، ولا يدركون أنها تسقط في صمت ورقة تلو الأخرى.

بدا سامي عرفان كطفل تائه وهو ينظر في عيون رجال المراسم، لا يعرف سببًا لاستدعائه في أجواء تنذر بهبوب رياح الخريف، آخر مرة رأى فيها الرئيس كانت لتعزيته في وفاة حفيده، وقبلها بسنوات عندما نجا من محاولة اغتيال ساذجة في بورسعيد، لا يعرف كيف تذكره مبارك لمرة ثالثة، ولماذا الآن تحديدًا، وعندما سأل أمناء المراسم، تبادلوا نظرات لم يفهمها، ثم نذت ابتسامة من كبيرهم الذي تعرّف على سامي ورحب به، قدّم نفسه بأنه من تلاميذه الذين تعلموا منه أصول مهنة المراسم، ثم اصطحبه للقاء الرئيس، همس أثناء سيرهما في ممر طويل شبه معتم كأنه سيفضي إلى قبر، قال:

- من أسبوع والمقابلات كلها كدا، اعتبرها قعدة ودية أو جلسة فضفضة، سيادة الرئيس كل يوم بيستدعي ناس من ذاكرته، آخرهم اللوا فهمي، كان مسؤول الحراسة عند مقر الإقامة وطلع معاش من عشرين سنة، وقبله طلب نستدعي محافظ إسكندرية في أول التمانينات، بس اكتشفنا أنه توفي من أسبوع، النهاردة طلب يقابلك فورًا من غير سبب، بس على الله تلحق تقعد معاه.

- ليه؟ هو الرئيس رايح فين؟

- الدنيا اتغيرت يا سامي بيه ومفيش حاجة بتفضل على حالها كثير لو الأساس اتهز جامد.

الضوء خافت، رجال الحراسة وموظفو المراسم واقفون في الظلال، بملابس داكنة ووجوه مطفأة، فوق المكتب ملفات مغلقة لن ترى النور، عينا سامي لا

تنظران لمبارك بل إلى ماضيه، شعر أن الرجل الذي أمامه لم يَغْد رئيسًا، يده اليمنى ترتجف في ومضات قصيرة خاطفة، شفتاه تتحركان بلا كلمات، ربما لا يتذكر من هؤلاء ولا لماذا هم هنا، ولا من الذين يتواجدون في الميادين بالملايين مطالبين برحيله، ربما لا يتذكره شخصيًا بالرغم من أنه هو الذي استدعاه وطلب لقاءه، ربما كانت لحظة إفاقة عابرة وانتهت.

- اتفضل هنا يا سيادة العقيد.

أشار مدير المراسم لسامي بالجلوس على مقربة من مبارك كي يسمعه بوضوح، اقترب أحد رجال الحراسة من النافذة، فتحها قليلًا كما طلب الرئيس، تسرب هدير الجماهير إلى المكان فخنق الحاضرين، فجأة رفع الرئيس يده وأدارها في الهواء كأنه يُوقِّع على فراغ، تبادل الموظفون نظرات يفهمونها، هز بعضهم رأسه أسفًا، ثم راحوا يتهامسون، كما يفعل الأقارب قرب سرير مريض يحتضر، اخترقت أذن سامي عبارات طائشة في الهواء «لا تزعجوه، لا تخبروه بما يضايقه، دعوه يرى أنه ما زال يحكم»، أغلق الحرس النافذة، اقترب سامي أكثر من الرئيس، رثت مبارك على ساقه وسأله عن أحواله، ثم بدأ يشكو له من نكران جميل المصريين، لكن سامي لم يسمعه بوضوح، شرد تمامًا، ثم تنبّه إلى أن مبارك يتنفس بصوت عالٍ كمن يلهث، شعر أن المكان كله يهتز من الداخل، لا بفعل الثورة والثوار فقط، لكنها بوادٍ الانهيار كما توقع باهر سعيد من سنين طويلة كأنه كان يعلم الغيب. فجأة تلفت الرئيس حوله بلا سبب، اقترب مدير المراسم، استمع منه لتمتمة لم يفهمها سامي بالرغم من قربهما، ثم جاء الياور، انحنى وهمس في أذن مبارك بكلمات قليلة لتظهر ابتسامة باهتة على وجهه، ربما ظن أن رجاله حققوا انتصارًا على الثوار، فجأة نهض الرئيس ثم التفت ناحية سامي ودعاه للجلوس قرب المكتب.

جلس مبارك في مكانه المعتاد، المكتب نظيف أمامه إلا من بعض أوراق بيضاء، لكن لا حاجة لتوقيع شيء الآن، ولا قرار نافذ منذ أيام، لَوْح بكفه في الفراغ،

ربما ظن نفسه يُوقَّع اتفاقية مهمة، أو يَسُنُّ قانونًا عاجلاً، أو يُعَيِّن محافظًا جديدًا للفيوم، بينما هتافات تعلو في الخارج صارخة بغضب «ارحل»، ربما الكل يسمعها بوضوح عدا الرئيس، بدا كأنه يحتجز الجميع كرهائن ويرفض التسليم، مثلما اعتقل هو باهر سعيد بدعوى العمالة.

بعد ربع ساعة من الصمت، توترت الأجواء فجأة، حضر وزير الدفاع ورئيس الأركان وقوات إضافية من الحرس الجمهوري، ثم ظهر اللواء عمر سليمان، نائب رئيس الجمهورية، وبدا غاضبًا، طلب مدير المراسم من سامي المغادرة على الفور، فانصرف دون وداع، تاركًا الرئيس خلفه كما دخل عليه، بنفس الملامح الشاردة الذاهلة، الموظفون واقفون حوله، يظللهم غيمٌ كثيفٌ يشبه النسيان.

خرج سامي من بوابة خلفية مُؤمَّنة، لكن قبل أن يبتعد بسيارته كثيرًا في شوارع مصر الجديدة المزدهمة بال جماهير، سمع ضجيجًا عاليًا، كأن السماء فتحت فمها وبدأت تصرخ لما ضاقت بعناد من على الأرض، دويٌّ بعيد يكسر الصمت ويفتته، مروحية عسكرية طارت فوق رأسه، حلقت فوق قصر الاتحادية، وظلت تناور قليلًا كأنها تتفادى هتافات المتظاهرين ودعواتهم، لتختفي بعد قليل بمن عليها، كان بداخلها الرئيس محاذًا بحزام أمان مشدود أكثر من اللازم، عيناه نصف مفتوحتين، صدره يعلو ويهبط في رتابة ميكانيكية كأنه آلة خرجت من الخدمة ولم تُفصل عنها الكهرباء بعد.

خرج مبارك من التاريخ بنفس الطريقة التي دخل بها، على متن طائرة تحلق فوق رؤوس الناس، لكن شتان بين المرتين، في الأولى كان يحلق فوق رؤوس أعداء ليقتلهم، الآن كتم أنفاس مواطنين ثم طار مبتعدًا عنهم، ولم يَعد أحد بوسعه منع كتابة كلمة النهاية.

قناع يسمح بالتنفس

باريس / حي مونمارتر / يوليو / 2011

حين هبطت طائرتي في مطار شارل ديغول بعد الثورة لم يكن معي سوى حقيبة صغيرة، هي كل متاعي، وكمان هو بقية حياتي، خرجت من مصر بعد إنهاء خدمتي فجأة بالجهاز، حتى إنني لم أتمكن من جمع متعلقاتي، خرجت وحيدًا بتأشيرة سياحية متجهًا إلى بلد لا يعرفني فيه أحد.

في باريس لم أنظر إلى اللافتات ولا إلى مفترق الطرق، بداخلي شعور غريب أنني أعرف طريقي مسبقًا، لم تكن المرة الأولى التي أزور فيها مدينة النور، لكني قررت أن تكون الأخيرة، جئت هارثًا من شيء لا تسجله أوراق اللجوء ولا تشمله مظلة السياسة، هارب من اسمي، من صوتي، من صمتي على مدار سنين.

باريس مدينة رقيقة لا تسأل الغرباء من أين جاؤوا، تعبرهم كالسحاب، تمنحهم الجمال ثم تنسى وجوههم، باريس لن تسألني من أكون، لكنها سألت باهتمام بعد وصولي عما أعزفه، وفي مقهى صغير في حي مونمارتر كنت أقضي نهاراتي، أعزف فجأة، دون مقدمات، حتى جاء يوم ولم يكن هناك جمهور كالمعتاد، فقط رجل عجوز ملتجٍ يقرأ صحيفة باري ماتش، ومهاجرة ربما تكون تونسية تهدد طفلها وتبدو ملولة، وفتاة يظهر من لكتتها أنها تنحدر من أصول بلجيكية، منكفئة على هاتفها المحمول وربما لا تشعر بجلوسي على مقربة منها، خرجت نغماتي ذلك اليوم من الكمان كأنها لحن هابط من السماء، عزفت «رقصة الموت»، ثم مقطوعة «النوستالجيا» لتارتيني، ثم شيئًا بلا اسم، على مقربة مني انتهت سيدة فرنسية يخالط الشيب شعرها، عرفت فيما بعد أنها تدرس الموسيقى وتذوقها بشغف، كانت تهتم بالمغادرة ثم تسمرت مكانها كأن قدميها التصقتا

بالأرض، أخبرتني بدهشة ممزوجة بإعجاب أن ما تسمعه ليس عزفًا بل ندمٌ يتجسد في نغم، توبة تتردد بين قوس يذبح ووتر يرتعش، سجلت بكاميرا هاتفها مقطعًا قصيرًا لي وأنا أعزف ونشرته على تطبيق إنستجرام، خلال أسبوع حقق مليون مشاهدة، أصبح اسمي على ألسنة الفرنسيين، ردّوا اللقب الذي اختارته السيدة الفرنسية لي «سامي المصري»، واشتهرت بهيئتي الجديدة التي لم أغيرها حتى اليوم عندما أظهر على المسرح، نظارة سوداء تغطي نصف وجهي ولحية بيضاء أضافت لعمرى بضع سنين وغيّرت من ملامحي كثيرًا، لم يعرف أحد أنني كنت ضابطًا بجهاز أمني حساس، أو ياوّرًا لحسني مبارك، رئيس مصر المخلوع، منذ شهور، لم أكذب عليهم، لكنني اخترت الصمت.

سكنت غرفة صغيرة بالايجار في الحي اللاتيني، أقضي نهارى في التمرين على مقطوعات جديدة، أحاول محو صفحة من تاريخي مع كل حركة قوس، وفي الليل كنت أعمل في ملهى قريب من المولان روج، عشاء راقص على أنغام الكمان الذي يعزفه سامي المصري كما تصفني الإعلانات.

كنت أقابل من جمهوري بعاصفة من التصفيق، لكني لم أهتم كثيرًا، ما زلت أبحث عن شيء آخر، أن أعزف حتى يتوقف وجه معين عن زيارتي في كوابيسي، هذا الظل المخيف الذي يمشي خلفي ومعى كل ليلة في ممر معتم طويل، ملامحه غير واضحة، لكن عندما أصحو من نومي أتذكر عينيه حين انطفأت فجأة وأنا أقترّب منه وأحرق فيه.

بعد ثلاث سنوات ونصف من العزف في هذا الملهى التقطني مدير الأوبرا، منحني الفرصة التي جعلتني عالميًا فيما بعد، قدمت حفلًا أبهرت فيه الفرنسيين كلهم بعد الباريسيّين، سلّطت عليّ الأضواء أكثر، وبدأت أدعى إلى مهرجانات أوربية، وفي إحدى الليالي عزفت في قاعة Salle Gaveau التاريخية، صفّق لي الجمهور طويلًا، وبكت امرأة عجوز في الصف الأول، أخرى خمسينية احتضنتني وقبلتني، وبينما كنت أنحني لتحية الجمهور شعرت بشيء ما لا

يربحني، ما زال وجه الرجل يظهر أمامي كأنه ضيف دائم بكل حفلاتي، اعتقدت أن الموسيقى تمحو الذنوب، فاكشفت أنها تفتح نوافذ كنت أظنني أغلقتها.

جاءني ذات يوم صحفي من مجلة باري ماتش، سألني عن جذوري، عن بلدي، عن ماضي، عن تأخر ظهوري اللافت، تهرت بلطف، قلت بتواضع إنني مجرد موسيقي من الشرق، ترئى وسط الحروب والنكبات والثورات، لكن الصحفي أصر كأثري على وشك اكتشاف مقبرة قديمة زاخرة بكنوز، تركته يناور مستمتعا بالإفلات منه، حتى فاجأني بسؤال:

- لكن عزفك به شيء يشبه الندم.

أجبت بهدوء قدر الممكن:

- ربما لأنني كنت أظن أنني أريح رأسي فاكشفت أنني كنت أؤدي نفسي طوال عمري.

لم تُنشر الجملة مع الحوار الصحفي، واكتفت المجلة بمدح عزفي وألحاني وتلميحات إلى تجربة غامضة شكّلت روحي، لكنني شعرت أن صمتي لم يعد درعاً واقياً، إن لم أعترف فكل نغمة أعزفها ستزداد ثقلًا، كأن الوتر ذاته يُدينني مع كل حركة.

في إحدى الليالي وأثناء بروفة لحفل مرتقب، طلب مني قائد الأوركسترا عزف سولو قصير من اختياري، اخترت مقطوعة لمؤلف أرمني يعيش في المنفى الاختياري بموسكو، لكن حين انتهيت لم يصفق أحد من الأوركسترا، ظل الصمت سائداً حتى همس المايسترو لي بعدما اقترب مني:

- أنت لا تعزف، أنت تتطهر.

أدركت حينها أن الفن لا يمحو شيئاً لكنه يكشفه، كان سهلاً علي الوصول للشهرة، وأن تكتب عني الصحف وتسلط علي الأضواء وتتضخم حساباتي

بالبنوك، ويُقدّم لي جواز سفر جديد، لكنني لن أستطيع إعادة بصر باهر سعيد مرة ثانية.

كانت باريس تكتحل بالضباب حين خرجت حاملاً الكمان، كنت أشبه بمن يحمل جثماناً لا يجد مكاناً مناسباً لدفنه، لم يكن في نيتي العزف هذا النهار، أردت المشي لمسافات طويلة حتى تنحل عقدة في رأسي، قادتني قدماي إلى ضفاف نهر السين حيث تتلاعب الرياح الخفيفة بالأغصان اليابسة، ويعكس الماء صورة السماء الرمادية، وقفت ساكناً وحيّداً كتمثال نُسي في ساحة خُلت من الناس، أخرجت الكمان من جرابه وأسندت ذقني إليه، شعرت أن شيئاً اندس في قلبي دون استئذان، جمهوري هذه المرة لم يكن سوى أفراخ الحمام المبلل من زخات مطر، والرياح التي تطارد أوراق شجر جافة في طفولة عبثية، عزفت يومها شيئاً غريباً، لحنًا لا يشبه المقامات الشرقية التي أعرفها، ولا الكلاسيكيات الغربية التي تمرّنت عليها، كان اللحن يشبه نبضاً خافتاً آتياً من أرض بعيدة، أو شهقة رجل يلفظ نفسه الأخير تحت وطأة همومه، عزفت كأنّ روحي ستغادر جسدي في نهاية المقطوعة، تمايلت بحدة كأن كل ما بداخلي نغم مكبوت، يومها وُلِدَ لحنِي الأشهر ومقطوعتي الموسيقية التي صارت أيقونة، والتي تطلب في كل مسارح العالم، وسُمّيتها «كونشرتو لعينين معصوبتين».

من بعدها بدأ العالم يدقّ بابي، دعوات لحفلات على مدار العام في بلدان أوربية وولايات أمريكية، صالات تعج بالأضواء تنتظر لحظة خروجي إلى المسرح كأني نبي أتى من عصر موسيقي مفقود، كبر اسمي في مدن لم أحلم بزيارتها، وكتبت عني مئات المقالات في صحف لم أكن أعرفها وبلغات لا أقرأها، وحين مررت بجانب أوبرا باريس ورأيت صورتي على واجهتها مزينة بحروف مضيئة لاسمي، لم أفرح، ربما هدأت نفسي قليلاً وخفتت كوابيسي، وابتعد باهر سعيد مؤقتاً عن زيارتي في منامي، لكن يومها أدركت أن الشهرة ليست أكثر من

قناع آخر يسمح بالتنفس، وعلي أن ارتديه طوال الوقت لأواصل العزف بعدما
بات النغم شريطًا ضيقًا بين الجحيم والمغفرة، ولا بد أن أحفظ توازني فوقه
حتى النهاية.

ملف قديم من الأرشف

القاهرة/ مبنى بمدينة نصر/ مارس/ 2011

أمضت دينا عمرًا وهي تسأل وتثور وترجو وتنتظر وتحبط وتبتلع الإهانات، وجوه الضباط تتغير، وفي كل مرة تعود محملة بجبل من التهيدات، تخرج ألبوم الصور وتعرضها على ابن باهر سعيد وتروي له الحكاية ذاتها كأنها تحفظها من النسيان.

كبر الصبي وصار شابًا، ولم يرَ والده، لم يسمع صوته، لم يلمس يده، ولم يفهم لماذا لا يزوره حتى لو كان سجينًا، كل ما يربطه به بضع صور قديمة، تتحدث دينا عن غيابه كما لو كان حاضرًا، تضع له نصيبه من الطعام أحيانًا، تبكي أمام فنجان قهوته الباردة، وحين يئست لم تفقد الإيمان بأنه حي، لكن شيئًا فيها كان يتآكل كل عام، ومع الوقت لم يَعد الفقد وحده يوجعها، بل تلك الخديعة المستمرة، ضابط يرت على كتفها ثم يقصّيها، آخر يقول لها كلمات مطمئنة لكنها لا تحمل صدقًا، وثالث لا يملك سوى توصيات بالصبر تبدو كأنها لعنة، حتى جاء يوم لم تتوقعه في أقصى كوابيسها، تلقت الاتصال المنتظر بعد ستة عشر عامًا، رنّ الهاتف برقم مجهول، لا ليُعيد الغائب لكن ليؤكد غيابه.

قال المتحدث بنبرة محايدة أشبه بخطاب حكومي «يرجى الحضور إلى مستشفى أم المصريين بالجيزة غدًا لتسلم الجثمان وأحضروا ما يثبت النسب». لم يُذكر اسم السجن الذي كان به، ولا زمن الوفاة ولا أسبابها، فقط جملة باردة ممهورة بخاتم بيروقراطية القمع، ذهب ابنه الوحيد ورافقه دينا وهي ترتجف، كما لو أنها تعيش مشهّدًا في كابوس طويل لا تعرف بعد كيف تستفيق منه.

دخل الابن ثلاثة المستشفى بشهادة ميلاده في جيبه وصورة أبيه القديمة

في الجيب الآخر، تلك الصورة التي وضعتها دينا بجوار فراشه طوال عمره، والتي كان يحنق فيها كل ليلة ويكلمها، وتروي له هي الحكايات عنها، صورة رجل متوسط القامة، كثيف الشعر، يبتسم بثقة، لكن من وضع أمامه الآن لم يكن هو، كان جسداً أشبه برماد، هيكلًا هشًا، جلدًا شاحبًا يكسو عظامًا حادة رفيعة، وعينين غائرتين لا تشبهان شيئًا مما تخيله؛ جسد لا يشبه الأب، ولا يخص المناضل، ولا يجاري حكايات البطولات، لكن تطابق الشبه بينهما أصابه بدهشة بالغة. وقف الابن مذهولًا، لا دمعة ولا صرخة، تَلْفَح بصمت طويل، كأن شيئًا انكسر فيه ولم يُحْدِث صوتًا، أما دينا فاقتربت ببطء بعدما رَفَعَ الفطاء عن وجه زوجها، ثم انفجرت بالبكاء، على السنوات التي التهمتْها الأسئلة، وعلى الولد الذي كبريتيًا ولم يعرف الحقيقة، وعلى حلم ظل معلقًا بصورة أب لم يَعد موجودًا إلا كجثمان.

بالكاد خرج صوتها وهي تسأل الموظف الذي اتصل بها وكان واقفًا على مقربة منها:

- مات إزاي وكان مسجون فين؟

بيروود يفوق برودة الجثمان، ردّ الموظف وهو يتعمد النظر في أوراقه:

- مكتش مسجون يا ست هانم، كان في شارع الجيزة ماشي على رجليه ويظهر أن أمر الله نفذ ساعتها، وناس ولاد حلال جابوه هنا ولقينا البطاقة بتاعته في جيبه وهي اللي دلتنا على العنوان وقدرنا نوصل لرقم التليفون.

قالها وقَدَّم بطاقة شخصية قديمة لباهر سعيد ثم استعجل موظفي المستشفى لإنهاء الإجراءات، ثم غادر الغرفة تجنُّبًا لأسئلة لن يملك حرية الإجابة عنها.

في طريق العودة، قبع الابن بجوار النعش، لم يُخرج هاتفه، لم يكتب شيئًا على مواقع التواصل، لم يُرسل خبر الوفاة لأصدقائه، جلس صامتًا يتأمل الفطاء

الخشبي كأنه يستمع إلى ما تبقي من أبيه، بينما الأسئلة تصدح كموسيقى مصاحبة للمشهد.. «هل قال شيئًا قبل موته؟ هل تألم؟ هل ذكر اسمه؟ هل عرف أنه كبير؟».

حين وصلوا إلى المقبرة، أصرّ الابن على المشاركة في إنزال الجثمان، وعندما هبطوا به تمت بصوت كسره التعب والخذلان..

«الآن فقط أراك.. لكن متأخرًا جدًا».

في تلك الليلة لم يعلن الخبر، لكنه اجتمع بأصدقاء أبيه وديننا يعقوب وطلب منهم طلبًا وحيثًا، ورجاهم أن يستجيبوا له، ألا يعرف أحد بوفاة باهر سعيد حتى يعثر على قاتله.

كاد الليل أن ينكسر، وزجاج النوافذ المتصدع في المبنى يبدو كأفواه مفتوحة تلهث في صمت، تنادي على شخص تواق للحقيقة، تريد أن تفتح قلبها بما ضاقت به من أسرار.

عاد ابن باهر سعيد من باريس منذ أسبوع حيث يجهز أوراقه للدراسة هناك، بعدما أكد له رفقاء الثورة أن كل شيء صار ممكنًا الآن في القاهرة، ثورة يناير نجحت والوجوه القديمة في السجن والكل يخضع للحساب، قاتل أبيه سيُعرف ويُقدّم للمحاكمة، عاد وبعد أيام قليلة تلقى مكالمة من صديق، أخبره أنهم الليلة سيقترحون مبنى الجهاز الأمني بمدينة نصر حيث مغارة علي بابا للمعلومات، لم يتردد لحظة، وطوال الطريق كان لا يرى سوى صورة أبيه، ويتخيل صوته وهو يناديه صارخًا «القصاص».

داخل الساحة الواسعة بعد البوابة الرئيسية، تسأل ضوء الفجر مترددًا بين الدخان المتصاعد من أوراق محترقة لم تشبع منها النار بعد. ركض ابن باهر

سعيد خلف مجموعة من أصدقائه الشباب بصعوبة بسبب توتره، عبروا البوابة الحديدية المحظمة، اقتحموا المكان بسهولة إلقاء عقب سيجارة، تقافزت خطواتهم على درجات السلم كأنهم يطاردون طيفًا قديمًا، لكن غالبية الغرف خاوية، والجدران عارية من الخزائن إلا من صورة يتيمة للرئيس مبارك بكل غرفة ربما تُركت سهوًا، صورة يبدو فيها ساهقًا شاردًا كمن رأى خاتمته، الهواء مشبع برائحة غريبة، مزيج من ورق محترق، وعطن عرق بارد.

كل شيء هنا له صوته الخاص، صرير الأبواب، خشخشة الورق الممزق وهم يدهسونه بأقدامهم، أنين الخزائن القليلة التي تحوي السر وتعثروا فيها بالصدفة، دخل ابن باهر سعيد أربع زناتين بالطابق الأول تحت الأرض فلم يجد أثرًا يدلّه على أن أباه مرّ من هنا، بعد ساعات طاله اليأس حتى أشار له أحدهم إلى باب خلفي كان مواريتًا، مثبت عليه لوحة سقط مسمارها فمالت من يمينها، مدوّن عليها بحروف عريضة «غرفة حجز 9 - فردي»، اندفع نحوها بحدسه، بلهفة طفل كان تائها عن أمه في مولد، فلما رآها على مقربة منه تهلل وجهه، دفع الباب بحذر، بانّت أمامه غرفة ضيقة خانقة، أربعة جدران شاهدة على ظلم سنين طويلة، لكن جدارًا واحدًا باح بالسر، اقترب أكثر ليقرا كلمات محفورة بلون أحمر داكن أقرب للسواد، حروف كُتبت بأظافر ربما كانت دامية وقت الكتابة «سأظل أتنفس بوجودك.. باهر».

- لقينا ورق يخص أبوك.

انتفض مكانه على نداء صديق آخر من نهاية الرواق، صعد إلى طابق ثانٍ وعيناه تذرفان دمعًا بلا توقف، دخل غرفة متوسطة فيها مكتب حديدي مُغطى بطبقة سميقة من غبار، وخزانة سوداء نصف مفتوحة، تقدّم كالسائرين نيامًا، خلف صديقه، يده على قلبه، وقلبه على حافة صوته، ترتج ضلوعه وتعلو أنفاسه، فتح صديقه باب الخزانة إلى آخره، وجد الابن الملفات والتسجيلات كلها أمامه، مُرتبة، مكتوبة بخط يد مائل، وبين الأوراق والأشرطة عثر على منحة من القدر؛

وثيقة بخط واضح، تحمل توقيع ضابط الاستجواب بتمديد قرار الاعتقال لأبيه، ثم قرار بإخلاء سبيله بعد خمسة عشر عامًا، وكلها توقيع واحد، يُقرأ بوضوح «العقيد سلطان». قرأ الاسم وتجمّد مكانه، هنا جلس أبوه، باهر سعيد، أيامًا امتدت لسنوات طويلة معصوب العينين، الآن الوثيقة في يده، والحقيقة تتناثر كرماد في الغرفة وعليه أن يجمعها برفق ويرتبها كي لا تتوه مرة ثانية وتتبخّر إلى الأبد.

بقي ثلاثون يومًا لتكتمل أربع سنوات من بعد الثورة، ثلاث سنوات وأحد عشر شهرًا ينس فيها ابن باهر سعيد من العثور على أثر واحد يدله على ضابط بمباحث أمن الدولة يدعى العقيد سلطان، ظل يركض خلف شبح بلا لقب أو اسم ثنائي، حتى أدرك في النهاية أنه مجرد اسم مستعار خلّقه الأوراق الرسمية ليعيش فوقها فقط، مجهول قتل أباه واندس وسط الجموع حتى تاهت ملامحه مع سيرته في زحمة الحياة.

في الأسبوع الثاني من شهر نوفمبر 2014 تعثرت يد دينا يعقوب في الخبيئة، كانت تلملم أشياء ابن باهر سعيد من حجرته تمهيدًا لطلاء جدرانها، فعثرت على الأشرطة التي جلبها من مبنى مباحث أمن الدولة يوم اقتحامه، جذبها فضول غريب نحو تشغيل واحد منها بعدما لفت نظرها لوئها الأصفر الفاقع، أدارت الشريط الأول، بهتت، من أول كلمة تعرّفت على صوته، من تلك البحة المميزة والسعال الخفيف المتقطع كل حين، ذلك الصوت الذي لم يخطئه قلبها أبدًا، لكن هذه المرة بدا موجعًا كرشق سكين وهو يتسلل من بين الأشرطة المغبّرة التي خبأها الابن كما يخبئ الطفل ذاكرة الألم.

بعد دقائق قليلة خرجت منها الكلمات مشبعة بالوجع وهي تصرخ من أعماقها:

- يا ابن الكلب.. يا ابن الكلب.

في لحظة فارقة من الحزن والاندهاش اختلط فيها الماضي بالحاضر ظلت متسمة أمام جهاز التسجيل، تسمع النبرة الرتيبة الجافة التي كانت تُدار بها الحياة في قبو الاستجواب، نبرة لا تحفل بصراخ ولا ترتبك من دموع، لم تعرف أن الخوف له صوت وملامح، وأن للطغاة طريقة خاصة في الكلام، باردة كالجدران في الشتاء، خالية من الرحمة كقلب أفعى، لا تشوبها الحيرة ولا يغلبها الندم، وحتى لو كانت تعرف، فهي لم تتخيل أبدًا أن سامي عرفان سيكون واحدًا من هؤلاء.

سمعته يطلب من باهر سعيد أن يرفع رأسه، لا ليكرمه لكن ليهينه، أن يُعيد الإجابة، لا ليقنع بل ليكسره، صوت يعرف كيف يقول الكلمة نفسها عشرين مرة دون أن تهتز نبرته مرة واحدة، صوت رجل تعلّم كيف يخفي ضحكة التشفي بين الكلمات، رجل لا يغضب ولا يعفو ولا يرحم، رجل اسمه العقيد سلطان، لكنها تعرفه باسمه الحقيقي، رجل اختفى من حياتها قبل الثورة بسنوات وظهر كنجم لامع الآن في باريس، رجل تركها تحارب وحدها في رحلة بحث عن آخر كانت تظنه قتيلاً أو هارباً أو منتحراً، لكنه كان هناك، معه، حياً على شريط رديء، يكرر كلمة واحدة على كل الأسئلة «ما حصلش».

لم يكن الشريط الأول طويلاً، لكن الزمن فيه كان أطول من حياتها، راحت تعيد سماع الأشرطة السبعة مرات ومرات، لتعود إلى تلك الليلة التي انتظرت فيها باهر سعيد ولم يَعد، وكلما سمعت مقطعاً بَكَت. لساعات طويلة ظلت غير قادرة على النهوض من مقعدها، تذكرت السنوات التي أضناها البحث فيها عن العقيد سلطان، وأغلب الظن كانت ستظل على جهالها بينما هو أقرب إليها من أي شخص آخر.

على مدار أسبوع ظلت تستمع للأشرطة، تستمع بنصف عقل وتفكر بالنصف الآخر في وسيلة قتل، ثم تتراجع لتبحث عن وسيلة أخرى تعذبه بها، مثلما عذب زوجها وابنه وهي من قبلهما. بعد ثلاثة أسابيع وَمَضَتْ في رأسها فكرة، وبعينين

جامدتين لا توحيان إلا بالحسم، ويد ترتب الأوراق كما يرتب المحارب خطة هجوم مباغتة على عدوه، وعقل لا يدور به إلا أمر واحد يتردد كصدى، أدارت رقًا دوليًا على هاتفها، ولما جاءها صوت نادية الزيني رفيقة عمرها على الناحية الأخرى من باريس، صرخت باكياً:

- أنا عرفتة يا نادية، عرفت مين هو العقيد سلطان.

ذات الليلة قرب الفجر، عندما عاد ابن باهر سعيد، تعجب من كونها لاتزال ساهرة، شعر من نظرة عينيها أن لديها ما تقوله، تماسكت حتى لا تخونها مشاعرها أمامه فتبكي بحرقة، أمسكت بيده وقالت بصوت عالٍ دون مقدمات:

- أنا عرفت مكان العقيد سلطان .

قالتها وساد صمت مهيب بينهما، لم يكن في عينيها دموع ولا في يديها رجفة، إنما ثقل غامض يلف جسدها، شيء آخر عجزت عن وصفه لكنه استقر في عقلها وعقل الابن في الوقت ذاته، أن الدم لا يمحو أثره إلا دم مثله.

قبلة اعتذار على جبين ميت

باريس / الحي اللاتيني / إبريل / 2015

سماء باريس تبكي بغزارة، لتمحو ما تبقى من حكايات بذاكرتها لم تُعد تجرؤ على روايتها، الأمطار تهطل بلا توقف، بينما دينا يعقوب تصعد بثقة درجات السلم المؤدي إلى شقة سامي عرفان، تحمل في قلبها عشرين عامًا من الأسى، سنوات خرساء مرّت فيها الحقيقة كشظايا مفروسة في صدرها لا تنزف ولا تبرأ، لكنها تؤلمها طوال الوقت.

دقت الجرس دقات متتالية بعصبية، وعندما فتح الباب لها شعرت لوهلة أنها ستهبط قبرًا فانقبضت، كانت لحظة الصمت الأولى بينهما أشبه بمحكمة تُعقد بلا قضاة، بلا شهود، فقط نظرات تنزّ من ثقل ما لم يُقلّ على مر السنين. دخلت الشقة بخطى بطيئة، عيناها تتفحصانه كما لو كانت تُجري تشريحًا لحقيقته التي دمّرت حياتها، في حين ظل سامي مذهولًا، لم يحاول أن يتقدّم خطوة نحوها أو يقول كلمة ترحيب واحدة، كأن السنين أذابت كل حصون دفاعه فجأة.

في الصالون الصغير جلس على طرف الأريكة، دفن وجهه بين كفيه، ربما يود أن ينسحب من الزمن، من الحكاية، من نفسه، مرّت دقائق ثقيلة لم تقطعها إلا أنفاس متقطعة عالية من داخلها شعور غريب أنها ترى وجهه لأول مرة، تحاول أن تستخرج منه اعترافًا بما تبقى من ملامح رجل ظنّته يومًا ملاذها، ثم اكتشفت أنه كان شركًا خداعيًا.

كانت ترتدي معطفًا رماديًا من صوف خفيف، شعرها مجدول إلى الخلف، لا شيء فيها يوحي بالانفعال، حتى عيناها اللتان كانتا في شبابهما تنضحان بالأسئلة، صارتا أشبه بعدستين لتوثيق اللحظة دون تعليق عليها. ترى أمامها

الرجل الذي كان يومًا حبيبًا ثم صار جلاذًا، الآن يظهر في صورة عازف عالمي، أنيق، لامع، كأنما غسل يديه من الذنب بموسيقى الكمان، تتسارع أنفاسها وتتحول ذكرياتها إلى سحب داكنة تتراكم في لحظة، ما بين مراهقتها العاطفية معه وصوت زوجها وهو يبثها غرامه قبل اعتقاله، الغضب والحنين يتقاطعان مثل برق خاطف ورعد مدوّ، كل شيء يُضاء لوهلة بوميض عظيم ويُسمع كأنه صوت مخيف، ثم يعود أكثر عتمة ملفوفًا بالسكون.

إحساسها بالخذلان القديم يتجدد، لكن هذه المرة ممزوج بمرارة اكتشاف أن الجلاذ يستطيع أن يتنكر في هيئة فنان حساس ملهم، لم تقل شيئًا بعد، وفي داخلها تسمع زمجرة ريح تقتلع ما تبقى من استقرارها، لقاء ظنت أنها مستعدة له رغم أن العقيد طارق زيدان حذرها منه، حاول إقناعها بالعدول عن الفكرة وترك الأمر له وحده لينهيه بمعرفته، لكنها صممت وأتت لتجد نفسها في لقاء أشبه بارتطام روحين متناقضتين داخل جسد واحد في لحظة فارقة، ظل جسدها ينتفض رغم ملامحها الجامدة مثل بحيرة يعلو سطحها السكون وتعج أعماقها بالتيارات، بينما يجلس سامي مأخوذًا في مقعده الأسود الشبيه بمقعد الاعتراف، ظهره للكمان ووجهه ناحية جهاز التسجيل، طال السكوت حتى صاح فيها فجأة وهو يضحك بهستيريا:

- أنا مش خايف من باهر سعيد ولا منك على فكرة، أنا سجلت الحقيقة والناس كلها لازم تعرف إنك السبب.

بهدوء حاولت الحفاظ عليه قدر استطاعتها وهي تفجر القنبلة التي أتت من أجلها، قالت:

- أي حقيقة فيهم يا سيادة العقيد سلطان؟

برقت عيناه، اعتدل في جلسته واقترب منها، خافت واستقام ظهرها ووضعت يدها على فتحة حقيبتها، ظن أنها تحمل مسدسًا فتراجع وانكمش بمقعده، فجأة

سالت دموعه صامته، ثم هتف أنه مظلوم واضطر لإخفاء الحقيقة عنها، تلقت حوله حتى وقعت عيناه على جهاز التسجيل بالرغم من أنه أمامه مباشرة، أداره ورفع الصوت، استمعت مجبرة لتسجيلاته، يقول بصوت مهزوز إنها التي خانتها عندما تخلت عنه وفتحت باب الجحيم على باهر سعيد، صرخت فيه:

- كفاية. أنا لا جاية أنتقم ولا عاوزه أسمع منك تبرير، أنا جاية أقولك إنني عرفتكم على حقيقتكم وبس.

أغلق سامي جهاز التسجيل كمن يحبس مصيره في الغرفة معه، أشار لها بيد مرتشعة مؤكداً بصوت مرتجف أنه لا يخاف من مطاردة باهر سعيد له ولا يخاف الموت أيضاً، ابتسم ابتسامة مريبة، ثم تغيرت نبرة صوته وهو يبتسم بغرابة زاعقاً:

- أنا كنت عارف إن اليوم ده جاي وكنت مستعد له وعلشان كذا سجلت، دي الحقيقة اللي الناس هتسمعوها.

قالها وأعاد تشغيل شريط آخر، هذه المرة ظلت دينا جالسة كتمثال حتى انتهى، لا تتحرك ولا حتى تومئ، ثم نهضت وخبطت خطوة للأمام، أغلقت جهاز التسجيل بضربة عصبية من كفها، أسكتت الصوت كأنها قطعت رأس الأفعى، قالت شيئاً لم يسمعه سامي جيداً لكنه رأى وجهها يتغير، لمح في نظرتها انعكاساً لسجن انفرادي طويل قضاه باهر في عزلة تامة، شفتاها تتحركان لكنه لا يفهم ما تقول.

مع علو صوتهما ظهر مدير أعماله، بدا قادماً لتوه من الخارج، لم يصافح دينا أو يحييها وكأنها غير موجودة، فقط سأل سيده إن كانت الأمور على ما يرام، هز سامي رأسه بلا معنى، ثم نهض كمن تذكر شيئاً فجأة وسلمه ثلاثة أشرطة قائلًا:

- خلي الشرايط دي معاك وشيلها في حته أمينة بره البيت.. محدش يعرف يوصل لها.

تعتمد رفع صوته ليُسمع دينا التي شعرت بأن الأمور تكاد تفلت من سيطرتها وبكثير من الإهانة، ندمت على الزيارة التي صممت عليها، أدركت متأخرة جدًا أن كل ما خططت له لن يحدث، تلفت أعصابها وبدأت ترتعش فانفجرت في وجهه كقنبلة صوتية، شظاياها كلمات ودموع مكبوتة وصراخ، وكلما حاول إسكاتها لا تحمله ساقاه، يرفع يده كأنه يقي نفسه من سيل كلماتها، لم تكن تعنفه وإنما تكشفه وتعريه، قرأت عليه نص الحكم الأخير بإعدامه ثم غادرت دون أن تلتفت، وتركت الباب مفتوحًا كجملة ناقصة في رواية طويلة، بينما جلس هو يلهث في مقعده، نظر إلى آلة الكمان الموضوعة على الطاولة وراءه ولم يمد يده نحوها، فقط انكمش في مكانه كطفل يختبئ من عواء ذئب مخيف.

غادرت دينا يعقوب بيت سامي بخطوات متسارعة على الرصيف اللامع، غير عابئة بابتلال ملابسها وشعرها من الأمطار، ملامحها مكفهزة بعدما خرجت من معركة لم تُحسم بعد، لكنها مطمئنة إلى أن ما تبقى من الطريق أشبه بزمنٍ مؤجل ينتظر فقط كلمة النهاية. كانت تعرف وجهتها قبل أن تستقل سيارة أجرة، قادتها نحو مقر السفارة المصرية في حي إيينا، المبنى بدا من بعيد كتلة من الصمت؛ والجنود الواقفون على الباب كتماثيل يراقبون الداخلين والخارجين بلا كلمة واحدة، دخلت من باب خلفي إلى ملاذ آمن وهي تحمل بداخلها خليطًا من المرارة والرهان الأخير.

أوصلها موظف الأمن المرافق إلى مكتب العميد طارق زيدان، زوج صديقتها الأقرب نادية، والذي يساعدها منذ شهور ويمدها بالمعلومات، استمع لما جرى ودون ملاحظات على التسجيلات التي أدارها سامي لها بالشقة، لم يوجه لها لومًا ولا عتابًا، بل راح يعدد لها مزايا الحالة النفسية التي وصل إليها سامي عرفان وأن النهاية ستكون أسهل مما تتخيل. رن جرس هاتفه المحمول، تلقى المكالمة

لكنه لم يقل سوى جملة واحدة قبل أن يغلق الخط:

- بعد ساعة بالكثير يا فطين.

التفت إلى دينا بوجه جامد وقال:

- بعد مقابلة النهاردة الوضع اتغير ولازم يبقى فيه لقاء ثاني بأسرع وقت، بكرة تتصلي بسامي وتطلبي تقابليه.

بدهشة قالت دينا:

- أنا اللي أطلب؟ وليه؟ ثم إن معنديش حاجة ثانية أقولها، أنا كنت عاوزه يعتذر ويبيدي ندمه لكن....

قاطعها بحدة:

- لازم تقابليه علشان نطمئه أنك ملخبطة زيه وإنك مش جاية تنتقمي منه هنا، وتقول لي اللي اتفقنا عليه امبارح قبل لقاء النهاردة، لازم يقلق مني أنا بس، وأنا من وقت الحفلة هنا في السفارة بوصله الشعور دا، وإني كشفته علشان يمشي من باريس ويرجع مصر، وما تخافيش أنا هكون قريب منك وهو عموما جبان مش هيعمل لك حاجة.

- طيب لو اتصرف معايا زي النهاردة أعمل إيه أو أقول إيه؟

- قل لي كل اللي كان نفسك تقوله السنين اللي فاتت كلها.. دي فرصة يمكن ما تتكررش ثاني في القاهرة لو عرفنا نقنعه يرجع.

صافحها لينهي اللقاء لكنه ودعها حتى الباب، وقف يراقبها بنظرة ثابتة، عيناه جامدتان، لا تفضحان ما خطط له بالتفصيل، كلماته لم تكن كافية كي تطمئن دينا إلى أن اللعبة قد انتهت، بعدما أكد لها بوضوح أن باريس لا تصلح مسرحاً لختام طال انتظاره.

تلك الليلة عاد العميد طارق زيدان إلى منزله مبكرًا، خلع سترته وتركها على حافة الأريكة، اتجه مباشرة نحو السفارة حيث كانت زوجته نادية تُحضر العشاء، جلس إلى المائدة شاردًا يتناول طعامه ببطء، بينما زوجته تراقبه بنظرة قلق، تنتظر اللحظة المناسبة للكلام، وعندما التقت عيناها قالت بصوت منخفض وهي تضع بطبقه مزيدًا من الطعام:

- دينا كلمتني من شوية مكالمة طويلة، وحكت لي اللي حصل مع سامي.

سكتت لثوان، ثم أضافت:

- هي قلقانة وخايقة جدًا.

رفع طارق عينيه من طبقه، تنهد، ثم قال بجدية:

- طبيعي تقلق، الموضوع مش بسيط، وسامي مش بني آدم سوي أصلًا، لكن جبان مش لازم تخاف منه.

وضعت نادية المعلقة جانبًا، ونظرت إليه بتوتر:

- بصراحة هي خايقة إنك ماتقدرش تساعدنا لغاية الآخر.

- عارف، بس هي وابن باهر الله يرحمه بيطلبوا طلبات صعبة، أنا من أول ما كلمتنا من كام شهر اتأكدت أن العقيد سلطان هو نفسه سامي عرفان، وبلغت الجهاز في القاهرة علشان أشتغل رسمي وأخذت الموافقة بعد ما قُدمت دينا بلاغ في سامي، ولغاية دلوقتي الخطة ماشية كويس وقريب هيكون في حل.

- امتي يا طارق؟

ابتلع لقمة ثم نظر إليها بابتسامة خفيفة وقال:

- هانت.

صمت نادية الزيني لوهلة، ثم سأله بتردد:

- يعني ممكن يدخل السجن زي ما عمل في باهر سعيد؟

- دينا صاحبك موش عاوزه كدا ولا حتى ابنه كمان راضي بالحل ده.

- أومال هي عاوزه مساعدتك في إيه؟

أجاب بهدوء، وهو ينظر إلى الطبق أمامه:

- دينا شخصية مثالية عاوزه يطلع يعتذر للعالم كله في بيان رسمي علنا على المسرح عن كل اللي عمله في باهر سعيد، وعاوزه يكذب كل كلمة اتقالت في البيان القديم اللي اتذاع وقت ما باهر اختفى.

رفعت نادية حاجبيها بدهشة، ثم سألته:

- اعتذار وتكذيب بس؟ وابنك راضي بكدا؟

هز طارق زيدان رأسه نافيًا، ثم قال بنبرة محبطة:

- لا طبعا... ابنه عاوز يقتله.

سكتت نادية فجأة، وارتسم الخوف على ملامحها بوضوح، مدت يدها ووضعتها فوق كفه لتطمئن، ثم قالت بصوت خفيض:

- وأنت هتساعدهم إزاي؟

نظر إليها طارق طويلاً كأنه يزن الكلمات في رأسه قبل أن يسمح بخروجها، ثم ابتسم تلك الابتسامة التي لا تعرف نادية إن كانت تطمئنها أم تقلقها أكثر، وقال:

- عندي حل يرضي جميع الأطراف.

وعندما ألحت عليه ليخبرها بالحل ابتسم وطبع قبلة على وجنتها اليسرى وذهب لينام، لكن طوال الليل ظل يتقلب في فراشه ويشغله نجاح خطته، برغم اقتناعه بأن أكثر ما يُخيف الذئب أن يسمع عواء أعلى من عوائه.

اللقاء الثاني

باريس / نوتردام / إبريل / 2015

الأشجار على جانبي نهر السين تشهق في صمت كلما داهمتها الريح، تتساقط أوراقها كما تتساقط الذكريات من عقل رجل عجوز، وعلى مقهى صغير منزو قرب كنيسة نوتردام، جلس سامي يرتجف برغم المعطف الثقيل الذي يرتديه، أصابعه التي عزفت ألف نغمة على مسارح العالم ترتعش من الذكرى، من الماضي، من تلك الخطوة الأخيرة التي تفصل الاعتراف عن الصمت.

لم يتأخر لحظة هذه المرة، كأن قدميه سبقتا عقله، نزل للقائها في اليوم التالي بعدما اتصلت به، الجاذبية القديمة جرّته نحوها في الشارع الباريسي المبلّل بزخات مطر خفيف، في طريقه لمح معطفها الرمادي يبتعد بين المارة، فأسرع دون أن يناديها، تجاوز رجلاً يدفع عربة طفل، وكاد يصطدم بسائحة تضحك بصوت عالٍ مع آخرين لكنه لم يعتذر، كان يرى في ظهرها كل ما لم يقله بعد، وحين اقترب منها ومدّ يده ليلمس كتفها ليخبرها بوجوده، استدارت نحوه ببطء بعينين لا تدمعان، لكنهما تشتعلان كعود ثقاب جاف يتوهج تحت وطأة النار.

هي من اختارت المقهى هذه المرة للقاء الثاني، وعندما جلس ظلّ يتفرس في وجهها، لم يندهش من الشعيرات الفضية التي تسلكت بغزارة إلى رأسها، لكن من ذلك البريق الذي ظلّ في عينيها، البريق ذاته الذي كان يحبس أنفاسه معه أيام العشق والغرام، فعلى مقربة شارعين أو أقل، يقع الفندق الذي أمضى فيه معها ليالي لا تُنسى وقت زيارة مبارك لباريس، من ثلاثين عامًا كانا هنا، معًا، لكن الآن بروحين مختلفتين.

نظرت دينا إليه كما ينظر المرء إلى لوحة قديمة نُسيت لزمان طويل في مخزن

مهجور حتى غطاها التراب، بعد دقيقتين فُص سامي بكارة الصمت بصوته المبحوح:

- آسف على كل اللي حصل مني في البيت، أنا لم أتوقع أنك تكوني جنبي في لحظة فارقة كنت فعلاً محتاج لك فيها. بعذر مرة ثانية عن كلامي وتصرفي امبارح.

أجابت بالفرنسية دون أن تنظر إليه:

- لم آت من أجلك..جئت من أجل الحقيقة، كل منا يملك حقاً في دفنها بطريقته. لكن قبلها أريد منك اعترافاً علنياً بالذنب. وبعدها لن أطلب منك شيئاً.

ابتلع ريقه واستجمع ما تبقى من كبريائه:

- أنا فعلاً مدين باعتذار كبير... أنا آسف.

ضحكت ضحكة خفيفة، لكنها أشبه بصفعة من قفاز على وجه سامي، أشعلت سيجارة بعصبية واستكملت بالفرنسية:

- آسف؟ بهذه البساطة؟ بعد عشرين سنة؟ بعد أن قتلت رجلاً بريئاً، ودفنتني معه حية؟ تريد بمنتهى السهولة أن تفتح القبر على جثمانه وتقول آسف بيني وبينك؟

خفض رأسه وهو يتمتم بأنه لم يقتل أحداً، فاسترسلت دينا وهي تطفئ السيجارة في ثلثيها بيد ترتعش:

- باهر مات بسببك، والنهاردة غاوز تسرق منه الشيء الوحيد المتبقي له.. الاعتذار. لا. آسفة، لن أقبله منك.

برقت عينا سامي وصاح سائلاً:

- باهر مات؟ مات؟

ظل يكررها مرات غير مصدق ثم سألها:

- إزاي وإمتي؟ ومين السبب في موته؟

تجمدت ملامحها ولم تُجب على أسئلته فاسترسل بنبرة تتوسل الرجاء:

- والله العظيم أنا كتبت تقرير بالإفراج عنه ووقعت القرار ليلة الثورة قبل ما أمشي وأسبب الداخلية والبلد كلها بعد كدا، أنا لا أعرف أنه مات ولا أنا السبب في موته، دا أجله، لم أقصد غير أنه يطلقك، لم أعذبه، أنا بعدته عنك والموضوع كله كان أكبر مني معرفتش أسيطر عليه، ولو بعد عشرين سنة عندي خطيئة واحدة فأنتي السبب فيها، أنتي الدافع وراها موش أنا.

رذت بعصبية مكتومة:

- كنت صاحب الأمر، كانت كلمتك وقرارك، كل شيء حصل بسبب جبنك وخوفك وضعف شخصيتك، لا بد من اعتذار علني هنا في باريس أمام جمهورك وبعدها أسيبك في حالك مش عاوزة منك حاجة، وإلا هفضحك وكل مجدك يتمسح.

- أنا مظلوم...

قاطعته بحدة وقد علا صوتها:

- أنت أسوأ من أي ظالم، ظلمته بقانونك، أنت مجرم، قاتل بدم بارد حتى آخر نفس لباهر.

تنفس ببطء كأن الكلام يغرز سكينًا في رنتيه، ثم قال بصعوبة:

- أنا بتعذب من يومها لغاية ما كرهت نفسي، سنين طويلة بحاول أهرب من ملامحه ومن صورتك، من اسمك، من حبي ليكي.. لكن يظهر إني لسه بحبك.

- وأنا بحتقرك. باهر حبني حتى اللحظة الأخيرة من حياته وأنا كمان حبيته،

حبي أكبر من حزني عليه بسبب ما فعلته به، من انتظاري له، من خوفي أنه يكون نسيني، لكنه عمره ما خذلني حتى وهو ييموت بسببك. عارف باهر كتب إيه؟ ولا مكنتش بتزوره أنت كمان في الزنزانة اللي حبسته فيها لغاية مات؟

نظر لها سامي بعينين لا تعرفان إجابة، وأذن لا تريد أن تسمع عتابًا، وعقل لا يستوعب حتى الآن أن باهر سعيد مات بسببه، برغم توقيعه قرازا بالإفراج عنه قبل الثورة بساعات قليلة.

أردفت بينما عيناها تلمعان بالدمع:

- باهر ساب رسالة على الحيطه، حفر الكلام بضوافره، كتب نفس الجملة اللي كان بيقلها لي كل يوم الصبح «أنا بتنفس بوجودك». فاكرها والا نسيت إنك كنت بتتجسس علينا وبتسمعها؟

تحركت شفتا سامي، أراد أن يقول شيئًا، أن يستعيد لحظة من ماضٍ، أن يصرخ، أن يبكي، لكنه لم يستطع.

نهضت دينا بعدما شربت ما بقي من قهوتها، لكن فجأة عادت روح الضابط لسامي فسألها متوجسًا:

- هو باهر مات إمتى؟ أكيد قريب أوي لأنني لغاية شهرين أو ثلاثة كنت بشوفه دايماً قاعد في أول صف، كان بيجيلي المسرح يحضر حفلاتي. لا يمكن يكون مات أنتي كدابة.

- باهر مات من يوم القبض عليه، محدش كان بيجيلك المسرح ولا حد عاوز يشوفك ولا يفتكر، أنت لا تستحق أن تكون فصل في قصة حياة أي مخلوق.

بسخرية، ونظرة شك تطل من عينيه، قال:

- عارف ومتأكد انه مكنتش شايفني لكن كان عاوز يفهمني أنه موجود وهينتقم.

سكتت برهة وهي تتحكم بصعوبة باللغة في دموعها ثم قالت:

- أنت أحقر من إني حتى أفكر سيرتك.

باستنكار سألها وهو غير مصدق رواياتها:

- أومال سي باهر كان بييجي يحضر حفلاتي ويقعد في أول صف ليه؟ غاوي يسمع كونشرتو؟ حيلة مكشوفة يا مدام دينا، توهميني أن البيه بتاعك مات وجاية تنوحي وتطلبني اعتذار وطبعًا بعد كدا طمعانيين في تعويض، وفاهمين أن فرنسا بلد الحريات، أنا مصري يا هانم، وهنا مالهمش دعوة أنا مين أو عملت إيه. - إخرس.

قالتها وهي على وشك البكاء بينما عقلها لا يستوعب كلمات سامي بعد، لكنه لم يعطها فرصة واسترسل بصوت أعلى:

- كنتي فين من خمس سنين لما أفرجت عنه؟ أنا مفروض أطلب منك تقديم شكر علني، مش أعتذر لك يا مدام دينا.

لم ترد وبدأت ملامحها غاضبة، فكرت أن تضربه بمطفاة السجائر لتشج بها رأسه نصفين، اعتدل سامي في جلسته وراح يتكلم بلسان الضابط وهو يبتسم ابتسامة مخيفة:

- لو مش ناويين على انتقام أنتي والمرحوم بتاعك جايبين ورايا باريس ليه؟ لعلمك أنا عندي صورة من كل محاضر التحريات اللي بتثبت تورطه في تنظيمات سرية ضد البلد، يعني حتى لو رفعتي قضية في مصر أو قدمتي بلاغ هنا هيتحفظ، ولو فاهمة أني ممكن أعترف بذنب معملتوش وحدي تبقي واهمة.

- اخرس يا ابن الكلب.. اخرس خالص.

قالتها وهي تبكي ثم بصقت في وجهه ومضت، لم يلحق بها، لم ينادها، ظل

يحدّق في البقعة التي كانت تجلس فيها كأنها ما زالت تترك ظلًا في الفراغ.

سارت دينا في شوارع باريس تسبقها دموعها، تريد أن تصرخ بأعلى صوتها لتغطي على نغماته وتفضح قسوته بعدما تركته متسمّرًا في مكانه بالمقهى كنصب تذكاري للظلم، أتت وهي راغبة في العودة للقاهرة بابن باهر سعيد، لا تريد أن تفقده كما فقدت زوجها، لا تريد أن يظل سامي سرطانًا ينهش في أحيائها واحدًا تلو الآخر ليبتلعهم تباغًا. حتّى سيفهم سامي أن ابن باهر هو الذي يطارده وقد لا يتورع عن إيذائه. قادتها قدماها إلى ضفاف نهر السين، وقفت تذرف دموعًا وتنظر لصفحة الماء الجاري أمامها، بعد فترة قصيرة انتبهت لوجود شخص خلفها، التفتت فوجدت ابن باهر سعيد، احتضنها فبكت أكثر بين ذراعيه، غاب الكلام بينهما لبرهة طالت، حتى بدد الفتى حالة الصمت قائلاً:

- إوعي تضعفي وتخافي، أنا سمعت كلامك وصبرت لكن ما تخلينيش أفقد الثقة فيكي أرجوكي.

بنبرة عتاب قالت دينا باستفاضة كأنها تزيج همومًا من قلبها:

- عمري ما ضعفت، وإوعي تفقد ثقتك فيا، ما تنساش إن أنا اللي دليتك على صوته من التسجيلات، وأنا اللي وافقتك على كل اللي عاوز عمله معاه وخططت معاك كل خطوة من يناير اللي فات ورتبت مع العميد طارق وأنت بنفسك شفت بيساعدنا إزاي، أنت ظهرت لسامي في المسرح وفي الشارع وفي الفندق، بعث له رسائل وصور قديمة عدلتها بالكومبيوتر لغاية ما جننته وكان على وشك الانتحار قدام المترو، والعميد طارق اللي أنقذه عن طريق حد تبعه، ووقتها قلت لك كفاية كدا بلاش تبوظ اتفاقي مع سيادة العميد، موش شفقة ولا رحمة بسامي، لكن علشان ناخذ حقنا منه قبل ما يموت ويرتاح من غير عقاب.

سكتت برهة لتبتلع ريقها الذي جف، ثم أكملت بنبرة تغالب بكاءً قادمًا لا محالة:

- سامي فاهم إن أبوك لسه عايش وبيدور عليه زي ما أنت توقعت، ما يعرفش أنك اللي ظهرت له، ولا عمره هيفتكرك أو يفكر فيك لأنك ابن باهر مش ابني، صدقني هانت، هو خلاص اتجنن، والعميد طارق أكد لي أنه هيعرف يرجعه مصر قريب، وقال قدامك أن دي قضية تعذيب مش بتسقط بالتقادم.

- أنتي مطمئة للعميد زيدان دا؟

بتردد حاولت إخفاءه أجابته:

- طبعا، نادية الزيني أقرب صاحبة ليا وهو محترم جدًا، يمكن بحكم منصبه لازم ياخذ إجراءات رسمية لكن مطمئة.

- أنا مش فاهم هو ناوي يعمل إيه، وكل ما أسأله يقولي اصبر لغاية ما ننزل مصر.

- علشان كذا بطلب منك توعدي أنك ما تقريش لسامي تاني هنا. أنا خايفة عليك.

هز رأسه بالإيجاب، لكن ملامحه بدت محايدة لم تقتنع بعد، يشعر أنها تخفي فصلاً مهماً من روايتها عن سامي عرفان أو العقيد سلطان؛ فصل ربما لو عرفه لفهم دوافعها، لكن كلما سألها تهزبت منه أكثر.

تذكرة وحيدة للقاهرة

باريس / حي لومارييه / يونيو / 2015

مرّت الأيام ثقيلة على قلبي وعقلي معًا، مثل بقايا كابوس لم أستيقظ منه بعد، كل نهار أصحو لأتجول في شقتي كما لو كنت أمشي في قبري، مدفونًا بالحياة، لا أرى المدينة التي أحببتها إلا عبر نافذة، لكنني صرت أخشى الآن فتحها، لم أعد أغادر البيت إلا نادرًا، هربت إلى العتمة من ظلي الذي تابعتني بالحاح، ومع ذلك فشلت.

في تلك الفترة لم أتلّق خطابات مجهولة سوى واحد، أتاني عبر البريد من مدينة بعيدة، بتاريخ مضى عليه أسبوع أو يزيد، فتحتة فوجدت صورة لي غير مُلونة، تزداد فيها الظلال الداكنة حتى تكاد تخفي غالبية ملامحي، صورة التقطت من مكان مرتفع وأنا أعزف في قاعة سانت شابيل بباريس، الجمهور مكتمل، وخيوط ضوء متسرية من نوافذ الزجاج المعشق كأنها تهبط من سماء مشروخة، الكمان مستقر على كتفي كجناح مكسور، ويدي اليسرى تمسك بعنقه كأنني أخنقه، صورة في لحظة فارقة قبل العزف، تُشبه لحظة ما قبل الانهيار لمنزل متصدع، قلبت الصورة، فوجدت الخط الحاد ذاته، قرأت ما هو مدوّن عليها «باريس كلها ستعزف على أوتارك قريبًا». خفق قلبي بنبضات مرتفعة، مسيرتي تنهار بعدما بدأت كما أردتها، سيرتي التي بنيت حولها جدارًا عاليًا من السمعة والشرف والموهبة يتصدع الآن من كل جوانبه، من سهم نافذ خرج من عيني رجل يحفظ صوتي أكثر من ملامحي، رجل لا تقيدّه الذاكرة ولا تُفكّ عزمته السنون الطويلة، وتحركه رغبة في انتقام.

تيقنت الآن أن باهر سعيد لم يمت وأن دينا كانت تكذب في كل روايتها، بحثت

في شبكة الإنترنت عن جنازة باهر سعيد فلم أجد لها أثرًا، فتشت عن أي شيء يشير لوفاة المناضل اليساري باهر سعيد فلم أجد خبرًا واحدًا، شردت قليلًا ثم زعقت في مدير أعمالي فطين:

- احجز تذكرة طيارة الليلة للندن.

راودتني فكرة الهروب وتغيير اسمي حتى تهدأ العاصفة، لكنني عدلت عنها بسرعة، خفت على شهرتي ومجدي، يستحيل عليّ التخلي عن كل شيء لأموت وحيدًا في إحدى مدن أوروبا مهما كانت ملاذًا آمنًا، لكن عدوي قوي، ليس لسلطة ولا لنظام، بل رجل غاضب وامرأة جريحة كلبوة شرسة. التفث إلى فطين وقلت:

- استنى بلاش تحجز تذكرة للندن.

عدت أفكر في الاستقرار بأوروبا الشرقية والظهور متنكرًا، اسم مستعار وعملية تجميل بسيطة تخفي الملامح المحفوظة، ارتحت مؤقتًا للفكرة ليستك البركان الذي بداخلي، لكن بعد أيام قليلة جاءت لحظة انهيار جديدة، توقفت فجأة عن العزف أثناء التدريب، لم تعد يدي تطاوعني، أصابعي باتت ترتعش، حتى الكمان صديقي الوحيد بدا كأن أوتاره تحتفظ برجفة فلا تستجيب لعزفي، وجدتها حجة لتأجيل حفل قادم في مدينة ليون بعد شهرين، ثم ضرب هاجس عقلي فاتصلت بفطين وقلت له:

- إلغي حفلة القاهرة فورًا.

سكت الرجل برهة حتى ظننت ان الاتصال قد انقطع، بدا من نبرة صوته أنه متعجب من طلبي، ثم قال بهدوء:

- أنا ممكن ألغي كل حاجة إلا الحفلتين بتوع القاهرة في مسرح الجمهورية ودار الأوبرا، أنت عارف إنهم بمناسبة الاحتفال بالعيد الثاني لثورة ثلاثين يونيو والشؤون المعنوية مرتبة معانا، ولا يمكن يقبلوا اعتذارك وأنا أكدت لهم موافقتك،

وبعدين دي أول حفلة لك في مصر من يوم ما بدأت تعزف في باريس وأنت اللي اخترت مسرح الجمهورية بالتحديد ولازم...

زعقت مقاطعًا:

- أنت مين قالك تأكد موافقتي من غير ما ترجعلي أو ترجع للشركة الوكيله بتاعتي يا حيوان؟

أجابني بهدوء استفزني:

- حضرتك كنت مرحب قبل ما تروح حفل الكوكتيل بالسفارة وما قلتش أي تعليمات تانية بعدها، حضرتك قلت أنها فرصة تزور مصر بعد غيبة وقلت هتعملها من غير فلوس كمان فالشركة الوكيله بره الموضوع من الأول.

- والعميد طارق زيدان قالك حاجة على حفلة القاهرة؟

- هو بصراحة مش عاوزك تسافر مصر دلوقتي معرفش ليه، وكان مستعجل عاوز يعمل لك حفلة هنا في باريس للجالية المصرية قبل حفلتك في القاهرة أو نأجل حفلة مصر وهو يتصرف مع الشؤون المعنوية وأنا برضه استغربت طلبه، بصراحة يا سامي بيه أنا مش فاهم سبب إصراره على بقائك هنا اليومين دول، لكن عمومًا إدارة الشؤون المعنوية رتبت كل حاجة مع مسرح الجمهورية في القاهرة وبرضه مع الأوبرا في الحفلة الثانية وبلغوا السفارة، يعني خلاص قضي الأمر، وسعادتك عارف أنه مستحيل نعتذر.

- مستحيل ليه؟ والسفارة مالها ومال شغلي؟ اعتذر لهم وكلم الزفت طارق زيدان اعتذر له كمان وقوله أنني تعبان ومسافر للعلاج وإلغي فورًا حفلة باريس للجالية.

- الحفلة بعد أسبوعين في مصر والتذاكر اتباعت، وبصراحة معالي السفير هنا قالي في التليفون الجماعة الفنانين كل يوم بحال، وطلب مني أبلغك رسالة أن

سيادة الرئيس وارد يحضر الحفلة الثانية بتاعت الأوبرا ومستحيل نعتذر دلوقتي
زي ما أنت فاهم.

سكت فطين برهة ثم أردف بنبرة لا تخلو من تحذير حسبما فهمتها:

- إلا بقى لو سعادتك نويت أنك ما ترجعش مصر ثاني.

دارت برأسي عشرات الاحتمالات عن الوسيلة التي ستفضحني بها دينا مع
باهر سعيد هنا في باريس إذا ما استجبت لإصرار طارق زيدان في إقامة حفل
للجالية بفرنسا، مؤكد رثب معهما لفضحي علنا أثناء الحفل، رأيت حبل مشنقة
يتراقص أمام عيني، فسألت فطين بقلق:

- هو العميد طارق زيدان قالك ليه مستعجل على حفلة الجالية هنا؟

- لا.. لكن قالي أي مكان سامي بيه عاوزه في فرنسا همة مستعدين يعملوها
فيه، وقالي مرتين أنه ممكن يأجل حفلة القاهرة كمان علشان لو هيعمل الحفلة
بتاعته قبلها.

بعد برهة من تفكير قصير تيقنت من صحة مخاوفي، قلت لفطين:

- إسمعني كويس يا فطين، فوزًا تحجز تذكرة من غير عودة على أول طيارة
النهاردة للقاهرة وما تلغيش الحفلتين، لكن إياك تعلن موعد سفري للصحافة أو
لأي مخلوق خصوصًا الزفت اللي اسمه طارق زيدان.

فجأة رن هاتفي المحمول معلًا وصول رسالة، فتحتها مترددًا، كانت من رقم
مجهول كالعادة، مدون بها عبارة قصيرة تقول «أنا لا أريد اعترافك أو اعتذارك..
فقط أريد أن تسمع صوتك».

كونشرتو لعينين معصوبتين

القاهرة/ مسرح الجمهورية/ يونيو/ 2015

عاد إلى القاهرة كغريب كما خرج منها، أوصلته السيارة إلى فندق على أطراف العاصمة، لم يغادر جناحه ولم يُجر حوارات صحفية أو لقاءات تلفزيونية، طلب من مدير أعماله ألا يفصح عن المقطوعات الموسيقية التي سيلعبها، ولا الأوركسترا المصاحبة له في عزف الكونشرتو بمسرح الجمهورية، مع ذلك امتلأ المسرح عن آخره، وخُشرت مقاعد إضافية بين الممرات، ليلتها سهرت القاهرة على ضوء مبهر ينبعث من فوق مبنى مجاور للمسرح، وكأنها تستجوب سامي عرفان عن خطاياها.

على الباب الرئيسي لمسرح الجمهورية تلمع صورته، أسفلها اسمه بالبنت العريض بجملة دعائية قوية «سامي المصري، العازف الذي جعل الكمان يبكي كما لم يبكي من قبل». من باب جانبي دخل سامي بصحبة حراسة شخصية مسلحة طلبها من مدير أعماله، ظل بحجرتة حتى خفتت الإضاءة بالتدريج داخل القاعة لكن الستار لم يفتح بعد.

همس رجل أنيق جالس بمنتصف الصف الأول لزوجته التي تجلس بجواره:

- النهاردة سامي المصري هيلعب مع الأوركسترا كونشيرتو جديد لأول مرة.

- لا، الليلة هنسمع سيمفونية... سيمفونية فقط.

التفت الرجل بدهشة لابن باهر سعيد الجالس بالناحية الأخرى عن يمينه وتدخل في الحديث دون سابق معرفة، ابتسم له قائلاً بصوت خفيض:

- مساء الخير يا فندم، أنا مصطفى عبيد، صحفي وروائي .

- تشرفنا يا فندم.. أنا الدكتور أحمد باهر سعيد، طبيب أمراض نفسية وعصبية.

- مكتوب في البروجرام أنه كونشيرتو جديد اسمه صكوك الففران، اسم لافت جدًا.

هز ابن باهر سعيد رأسه نافيًا وقال بثقة:

- مجرد كلام للدعاية ما تصدقش .. الليلة سيمفونية واحدة بس ومفيش غفزان.

- يمكن تقصد إن الحفلة دي سيمفونية لكن حفلة الأوبرا كونشيرتو؟

- مفيش حفلة تانية يا فندم . الليلة آخر حفلة لسامي المصري.

بدهشة ممزوجة بقلق سأله الروائي مصطفى عبيد:

- بس هو دايمًا بيعمل حفلاته كونشيرتو، غريبة دي، طيب ممكن تقولي اسم السيمفونية والآلة التانية اللي معاه؟

أجابه ابن باهر سعيد بثقة شديدة:

- اسمها السيمفونية الأخيرة، والآلة التانية هي أنا.

مع اتساع دهشة الرجل من الإجابة فُتح الستار، خرج سامي عرفان للجمهور متباطئًا كأنه استيقظ لتوه من نوم طويل، يسير مترددًا وسط تصفيق مدو لم يقابله هنا منذ كان اسمه أنور سليم، مع أنه نفس العازف وذات الموسيقى، ارتسمت على شفتيه ابتسامته هادئة لما طاف خاطر بذهنه، حيا الجمهور بانحناء قصيرة وتوجه لمكانه، ظهره محني قليلًا وحقيبتة الجلدية في يده، وبداخله شيء لا يراه أحد، لم يستعذب نغمات التصفيق المتتالية، شعر كأنها رنين صفعات على وجهه، كاد يترنح ويسقط مرتين أثناء سيره على المسرح،

لكنه تماسك بسرعة وجلس مُغمضاً عينيه برهة، حُيِّلَ له أنه يرى سرب الحمام يطير فوق خشبة المسرح ويتخبط في الجدران، طيور لها أجنحة من ورق صحف قديمة تحمل حقيقته، تتحرك بعشوائية تحت ضوء أصفر باهت، توقّف عن التنفس للحظة وحاول ألا يمد أصابع يده في الهواء ليخنقها، لكنه وجد نفسه رغماً عنه يشير إلى واحدة دون غيرها، حمامة لها عين زجاجية وجناح ناقص، ووجهها يشبهه بصورة مخيفة، تسارعت أنفاسه واختلط صوت الكمان بصوت ريش يتمزق عنوة، ارتعشت يده للحظة ثم ضغط بكوعه أسفل كتفه وبدأ العزف دون أن ينتظر إشارة من المايسترو.

خرجت الموسيقى شجية كأنها تطلب المغفرة، لم يعزف كما اعتاد، ربما الألم بداخله هو الذي يدفعه هذه المرة، يُعيد سرد حياته بالموسيقى، كل نغمة أشبه باعتذار لم يقله، كل ارتفاع بالقوس على أوتار الكمان أشبه بحب لم يعشه، كل توقف يجسد قرار لم يتخذه طوال حياته، استمر يعزف لكن ما خرج من الآلة بعد برهة قصيرة لم يكن موسيقى؛ إنما صوت مبحوح، كأن الكمان يذوب والقوس يَجرح الخشب ولا يعانق الأوتار.

مرّت أمام عينيه صور جدته، وزوجته، والرئيس مبارك ثم دينا وياهر سعيد معاً، مرّ وجهه القديم، ذلك الشاب الوسيم الذي كان يقف في الظل، سواء خلف الرئيس أو أمامه، الضابط سلطان في إدارة الاستجوابات، العازف أنور سليم في المكان نفسه على مسرح الجمهورية، الرجل الذي عاش يراقب الحياة ولا يشارك فيها، ها هو ذا الآن في الصدارة، وكل الأضواء مُسلّطة عليه، والباقون مجرد ظلال تصفق له بحرارة، لكن بعد فوات الأوان.

فجأة، عند منتصف عزف المقطوعة الأولى، حدث ما لم يتوقعه أحد، توقفت الموسيقى، ارتبك المايسترو وبعض أعضاء الأوركسترا، رفع سامي رأسه متفرساً في الوجوه بقلق كمن ينتظر إشارة النهاية، ثم أغمض عينيه وفي داخله سقط شيء، ثم انكسر حتى تفتت، سمع تشويشاً لثوانٍ، ثم انساب صوته عاليًا مدوّياً

كفضيحة، سمع سامي مع الجمهور تسجيلات حقيقية من الاعترافات التي سجلها في شقته بباريس والتقطتها أجهزة مراقبة العقيد زيدان، ومن الأشرطة التي قَدَّم له مدير أعماله نسخة منها بعدما وقعت في يده، ومن الأشرطة التي عثر عليها ابن باهر سعيد بالجهاز، بدأ الكلام بجملة تجذب انتباه القاعة بأسرها وأعادها المتحكم في إذاعة الفضيحة «أنا سامي المصري الفنان العالمي، أو سامي مراد عرفان ياور مبارك، أو العقيد سلطان ضابط الاستجواب»..

خرجت الكلمات مدوية بأسلوبه المراوغ، بصمته الطويل، أذيعت على الهواء تسجيلات التحقيقات بصوته المبحوح، بتهديداته للمعتقل باهر سعيد، بسؤاله عن تفاصيل علاقته الحميمة مع دينا زوجته، بمساومته على تطليقها مقابل الإفراج عنه، بضحكته المستفزة وشماته وقسوته، بالاحتفال بعيد الميلاد الحزين.

في البداية ظن البعض أنها مزحة، ثم تدفقت الاعترافات كالطر فوق رؤوسهم. سمعوا صوت باهر سعيد يتوسل، يكاد يبكي، وضحكات باردة تقاطعه، شهقت سيدة عجوز وسقطت حقيبتها قرب قدميها، وثبتَّ رجلُ نظارته على عينيه ليتأكد أن ما يراه ويسمعه حقيقيًا، غطت سيدة أربعينية وجهها بكفيها، بينما تجمدت الغالبية فوق مقاعدها، تشوش الشريط للحظات ليعود أكثر وضوحًا، كان سامي يسأل باهر سعيد للمرة الرابعة وربما الخامسة عن مشاعر دينا تجاهه، عن علامات في جسدها، عن تفاصيل ممارسة الحب معها، عن لحظات الضعف، عن روائح الفراش، ترشق كل كلمة كسكين في قلوب محبيه من الجمهور، الذي ظل صامئًا كأن الصالة خاوية بعدما تعرفوا على صورة أخرى له.

كانت دينا تجلس بالصف الأول؛ شعرها مشدود للخلف، عيناها دامعتان ومثبتتان على يده اليمنى، تلك التي تمسك القوس، ملامحها متوترة والعرق ينساب باردًا على ظهرها أسفل فستانها، بجوارها ابن باهر سعيد، وعلى يمينها صديقتها نادية، بينما التسجيل لا يزال يعزف سيمفونية السقوط.

ظل سامي متيبسًا مكانه فوق المسرح؛ وجهه جامد وصوته غائب، يده قابضة على الكمان لكن الوتر لا يُمسّ، فقط صوته هو الذي يعزف سيمفونية السقوط، حتى اختتمت الفضيحة بتسجيل قصير لصوت مجهول يهتف «باهر سعيد مات» في تلك اللحظة سقط الكمان من يده، ودوى صوته كرصاصة شقّت صمت الصالة. ذُهل الجمهور، البعض جفّد في كرسيه، وسيدات وضعن أيديهن على أفواههن، نذّت صرخات مكتومة وعَلّت همهمات، كثيرون وقفوا محاولين معرفة مصدر التسجيلات، تحولت الصالة إلى غرفة استجواب ضخمة والكل شهود، بينما ابن باهر سعيد يبتسم في رضا بعد تأكده من تردي حالة مريضه.

أطرق سامي عرفان، تلك اعترافاته وهذه محكمته، وعندما توقفت التسجيلات صعد بضعة رجال إلى المسرح، واحد منهم همس لسامي بشيء لم يسمعه أحد، نظر إليهم ثم إلى الجمهور، وضع كمانه برفق على مقعده وسط المسرح، وبينما كان يبتعد سقط الكمان مرة ثانية، فأصدر نغمة خفيفة كأن وتّرًا وحيدًا تنفّس أخيرًا.

ساد المسرح سكون كصمت القبور، صمت أعمق من أي لحن، لأول مرة يغادر العازف العالمي بغير تصفيق أو تحية، فقط شخص واحد صفّق بحرارة لأول مرة، لا أحد يعرف من هو، ولا حتى سامي رآه.

أسدل الستار ودارت موسيقى مسجلة لمعزوفته الشهيرة «كونشرتو لعينين معصوبتين» وبدأ الناس في الخروج ذاهلين كأنهم في مشهد جنائزي مهيب.

بعد الحفل اختفى سامي عرفان تمامًا، قيل إنه خضع لمحاكمة عسكرية محظور النشر عنها، وقيل إنه انتحر، ثم سرت إشاعة قوية بعد خمس سنوات أنه هرب إلى فرنسا ومات هناك بعد عامين من وصوله، ظلت كلها شائعات كالدخان في الهواء لا أحد يقبض عليه، اختفى كما اختفى باهر سعيد ورضا هلال من قبله.

في باريس تزامنت أخبار رحيل عازف الكمان المصري العالمي مع خبر آخر نُشر في الصحف الفرنسية وشغل الباريسيين خصوصًا لفترة، خبر غريب عن امرأة رمادية الشعر، تزور كل خريف قبرًا لا يحمل اسمًا، مقبرة صغيرة في مقاطعة على تخوم العاصمة، تأتي السيدة في نفس الموعد كل عام، الحادي والعشرين من سبتمبر، لا تبكي ولا تترك وروثًا، ترتدي فستانًا أبيض، تبتسم ابتسامة رضا، وتضع ببطء فوق الرخام البارد قطعة قماش سوداء، ونوتة موسيقية مدوّنة عليها بخط يد مرتجف «كونشرتو لعينين معصوبتين»، معزوفة شهيرة لمؤلف عالمي صار مصيره مجهولًا؛ سيدة لم يتعرّف عليها أحد، تبتعد كل مرة بخطى بطيئة وملامح مرتاحة، تاركة وراءها لحنًا كان يعزف كذبًا طوال الوقت، انشغلت الجرائد بها لفترة طويلة حتى فشلت في كشف غفوضها، فتوقفت عن متابعتها أو نشر أخبارها، ومع الوقت نسيها الناس مثلما نسوا سامي المصري.

عاشت دينا يعقوب ما بقي من حياتها في شقة صغيرة مستأجرة بقلب باريس، بعدما تزوج ابن باهر سعيد من فتاة فرنسية واستقر هناك، عاشت مكتفية بالصمت بعدما أدركت أن بعض الأشياء حين تسقط لا تلتقط، وعندما تُفقد لا تُستعاد، وإذا كُسرت لا تلتئم، لكن لما سألها ابن باهر سعيد للمرة الأخيرة عن علاقتها القديمة بسامي عرفان منذ ثارت شكوكه لتعرفها بسهولة على صوته وقت سماعها أشرطة التسجيل، نظرت إليه طويلًا، ثم أدارت وجهها ناحية النافذة المطلّة على برج إيفل، نفس الزاوية التي رآته منها مع سامي لأول مرة في الثمانينيات من غرفتهما، شردت كأنها تتذكر الإجابة ثم تمتعت «كل ما فيه كان مؤجلًا، حتى موسيقاه وصلت بعد فوات الحنين».

أغلقت النافذة وجذبت الستار حاجبة برج إيفل وراءها، ابتسمت ابتسامة باهتة ولملمت بقايا مشاعرها، ودخلت غرفتها لتستريح، اكتشفت أن أثقل ما يحمله المرء في قلبه من أوجاع ليس هو الخسارات الصريحة، إنما الأحلام

بالنجاح التي لامست الواقع ثم تراجعت إلى العدم دون أن تكتمل، كانت تظن أن
البوح هو طريق النجاة الوحيد للخلاص، والآن آمنت بأن الصمت هو الاختيار
الأمثل الذي يليق بحفظ الحقيقة.

«النهاية»

6 أكتوبر/ 2025